



من أحيى الزوايا

يحيى حقى



ARCHIVE

جميع أشخاصه ، القريب منها لقلبه والبعيد ، فالمعنى الحقيقي للحياة المؤلف هو فى هذه المساواة فى الفهم لا فى تجرده أو خشيته من التعاطف .

ولكن تعاطف المؤلف لاجدوى منه ولا معنى له الا اذا كانت له قدرة الانطباع بحذافيره على قلب القارئ ، فيلتحم الطرفان وتنشأ بينهما وحدة تعاطف .

وانشاء وحدة التعاطف بين المبتكر والمتلقى هو غاية كل عمل فنى جدير بهذا الوصف أن يرتفع المتلقى الى مستوى المبتكر أن يشاركه جنته وجحيمه ، أن تنتقل اليه كل هزة للمبتكر مهما صغرت ، حقا أن الناس تتفاوت فى الاستجابة لهذه الهزات لتراوح حسهم بين الرقة والبلادة ، فالعيب عيب العاجز او القاصر لاعيب العمل الفنى ، انه يبلغ القمة حين يوحى لكل معترف منه بأنه قد استنفد معينه بالاناء الذى فى يده ، كبير أو صغر

✽ الغيب الأبيض فى وحدة التعاطف من المسلم به اليوم أن المؤلف يلتزم الحياد قبل أشخاصه ، لا يتدخل فيتمتع بالنطق جهرا بالحكم عليهم بل يترك الحكم للقارئ وحده ، يستعمله من واقع مخالطته لهم وهم يتشايكون ويتفرقون وبعد اكمالهم لدورة حياتهم فى الرواية من بداية الى نهاية ، وكان فى الرواية أصبح يعتمد على تعلق القارئ واتارة خيالاته بابهامه أن الأمر كله موكل اليه ، وأن اصدق الحكم هو حكمه ، ايهام للقارئ لأن المؤلف رغم هذا الحياد المزعوم لا يمكن له الا أن يضم نوعا من التعاطف مع كل شخص من أشخاصه فمنهم القريب الى قلبه ، ومنهم البعيد عن قلبه ، والقريب والبعد على درجات متفاوتة ، ولكن هذا التعاطف مدسوس بين السطوس ، مختلف وراء اللوحة كما يقال ، لا مفر منه للمؤلف فلولا لمسا كان عنده شيء يقوله ، انه وسيلته الوحيدة لرسم أشخاصه بصديق ، لاستخلاص الدلالة من اكوام الأقنعة ، للتعبير عن مزاجه وقلسته ازاء الكون والبشر ، غاية الأمر أن المؤلف يتساوى فهمه

على لوحة فسيحة حقة عامة من تاريخ بلادنا ، هي مطلع ثورة سنة ١٩١٩ ، حين نزع مصر الى التحرر من الاحتلال الاجنبى فى جميع صوره ، احتلال عسكري واحتلال ثقافى ، حين اخذت تبحث عن شخصيتها ، عن ادب صادق التعبير عن نفسها ، يهدف الى خدمة المجتمع والرقى به ، فكانت أولى خطواتها فى التحرر الثقافى هي القضاء على هذا الاعجاب المستحود عليها بكل ما هو اجنبى .

وقد رمز المؤلف لمصر ببطل روايته أحمد بن محمود منصور وكيل مصلحة التلغرافات والتليفونات ورمز لبريطانيا بفئة انجليزية هي « لورا » بنت مستر ويمان مدير تلك المصلحة . وكان الجوار فى السكن بالقاهرة واشترك الاوين فى العمل قد جمع بين الاسرتين قبل الحرب العالمية الاولى فى صداقة وطيدة بقيت بعد احالة الاثنين الى المعاش ، اذ ظلا متجاورين بعد انتقالهما الى الاسكندرية حيث تقع أهم أحداث الرواية .

واذا كان مضى المؤلف فى الرمز غير واضح كل الوضوح فى رسمه لأسرة أحمد فانه سافر كل السفور الى رسمه لاسرة لورا ، فالأسرة المصرية متماسكة متحابية غير متعصبة ولكنها مستمسكة بتقاليد قوميتها . وسيلة الابن فى كسب ابيه هو الانساع بلهجة الاحترام لا الثورة بزعميق وقع ، والبنت (منى) تنزوج من الشاب الذى تختاره لها اسرتها (مصطفى لطفي المحامي بقلم قضايا الحكومة) ليس فى الاسرة أى ضعف أخلاقى فهى فى صداقتها للأسرة الانجليزية معتزة بكرامتها فلا تحنى رأسها ولا تعاني من مركب النقص - الصورة هنا فى الحقيقة مسطحة لا يظهر منها الا جانب الخير وحده أما الاسرة الانجليزية فهى مرسومة فى صورة الاسرة المنهارة ، الاب مطربش قد بت صلته بوطنه واقام بمصر بعد احالته على المعاش ، جميع ابنائه مصابون بمرض عصبى شديدا فالبنات الكبرى (لينورا) مصابة بالهيسل ، والابن (رونالد) مخبول وأختهما (تونا) تتلظ بمرض قلبها لتعتزل الناس . وقد ظن المؤلف قديما يبدو ان الماضى فى الرمز على هذا النحو يخدمه من حيث قيسام التطابق بين انهيار الاحتلال وانهايار هذه الاسرة ، ولكنه فى الحقيقة قد أضر به ، اذ كان غرضه الاكبر هو الاشادة بثورة مصر على انجلترا ، فكيف يبت

وقد يكون الكلام السابق من قبيل البديهييات فكيف لا تنتشأ وحدة التعاطف والفن لا يعترف بمؤلف مصاب بمرض نفسى يحمله يحط من قدر الجمال ويرفع من شأن الدمامة ، ولا مفارقة كذلك فى التعاطف بين المؤلف والقارىء اذا رسم المؤلف شخصياته مسطحة لها جانب واحد ، الشرير شرير صرف ، والخير خير محض ، ولكن احتمال تباین التعاطف بين القارىء والمؤلف يقوم حين يرسم المؤلف اشخاصه - كما يطالبه الفن - مستديرة لها جوانب متباينة ، فيها ما هو جميل وفيها ما هو مدم ، فهو يدوره مطالب فى نظر الفن لا الاخلاق وحدها ان يعطى كل جانب حقه من الاهتمام ولونه من التعاطف ، فاذا كان الجانب المدم من المقومات غير التلقائية للشخصية ، فينبغى للمؤلف ان لم يشأ الانحياز عليه ان يتفادى على الأقل وبسط تعاطفه بالجانب الجميل وحده ، فقد يتخذ فى هذه الحالة - وعلى غير ارادته - صورة من يريد «تومع» جانب الدمامة وتبليعه للقارىء بسهولة ، والقارىء لن يخفى عليه هذا الجانب المدم المتروك بلا تعاطف من المؤلف ، فلا يستطيع ان يجارى المؤلف فى تعاطفه للجانب الجميل وحده ويجد نفسه متذبذبا للاهتمام بالجانب المدم لان المؤلف اراد ان يخدمه فيه ، وهكذا يكون تعاطف القارىء مع شخصيات الرواية مخالفا لتعاطف المؤلف ، ويفقد العمل الفنى رسالته وان كان فى القمة من حيث الصنعة .

هذه هي الافكار التى شغلتنى بعد قراءة رواية (الخيط الأبيض) للصديق الاديب الكبير محمد مفيد الشوباشى فهى جديرة بسبب تألق الفكر ونفاذ الاحساس وجلال الهدف واتساع اللوحة وصديق الوصف وبراعة الصنعة وجمال الأسلوب وقدرتها على الايحاء بالجو - فى الطبيعة والنفس - بان تكون من الأعمال الفنية التى تدخل تاريخ الادب لولا خلل خفى يلبد فى عجزها غير المفهوم عن انشاء وحدة التعاطف مع البطل بين المؤلف والقارىء ، ولعلها أول رواية عندنا تشر هذه القضية وحلال لها ان تزهر بهذا الفضل .

وضع المؤلف لنفسه غاية جلية ، لقد انصرف عن المشاكل الفردية أو الجزئية ، وأراد أن يرسم

فينا الاعجاب بهذه الثورة اذا كان خصمها في مثل هذا الانهيان ؟ كنت أحب - لكي تتحقق المقابلة - أن تكون أسرة ويمسان أسرة انجليزية عريقة ولها شموخها وجبروتها وتعاليلها على أهل مصر ولكنها في الرواية تكاد تكون هي الأخرى أسرة بلدية ، ليس لها من الانجليزية الا الاسم ، تفتقر على قول مدمس وتتفدى بالملوخية .

ويجىء هنسا أيضا - وإن كان الوضع مسبقا ومقلقا - مثل آخر على اهتزاز الرمز . فقد أراد المؤلف أن يرمز لاختراق الاحتلال في أن ينسب بقية من الظفارة في أرض مصر فجعل أسرة (ويمان) تطرد بعد الثورة من البيت الذي تملكه يدعوى ان ملكية العقارات محرمة على الأجانب ، والعجيب أن السئي يروي لنا هذا الخبر هو بطل الرواية نفسه وكان قد أصبح محاميا - وكل من له الملم بالثانون ولو بقدر ضئيل يعلم أن ملكية العقارات لم تكن محرمة على الأجانب حينئذ ، ولكن ماذا تقول في شهوة الرمز؟ انها من محام منتفخ بالاعجاب بالنفس سقطت لاغتفر، بطل الرواية الذي يرمز لمصر غارق في لجة الجهل!

وأحب أن أفرغ هنا من حكاية هذا الرمز برمتها وأختم كلامي عنها بإبداء اعجابي بصنعته المؤلف لأنه أبقى كل هذه الرموز كعنفة دون أن تسخر عين وجهها سفورا مبتذلا رخيصا ، فلا تفقد الوقائع قط فعاليتها وتسلسلها وارتباطها بالحياة دون أن ترتفع الى التجسريد - والمؤلف فوق ذلك قد عرف بمهارة كيف يخلع رداء المؤرخ ليبقى له رداء القصص وحده ، فلم يزحم روايته - كما يفعل غيره من مؤلفي الروايات التاريخية - بالتواريخ واقتباسات من الخطب والمنشورات ومقالات الصحف ، وإن كان بينهم أحيانا على القارئ غير الخبير بتاريخ هذه الحقبة أن يفهم من الرواية أسباب تطسور الموقف السياسي الذي يمثل (الخلفية) في الخيط الأبيض .

ليس من العسير بعد الوصف الذي قدمته لك للإسرتين أن تصدق أن لورا قد صلت عن شاب انجليزى يريد أن يتزوجها لتهب كل قلبها وجهها وخلصها وعمرها لأحمد ، جازها المصرى . ولكنه لا يستطيع أن يفصل بين الحب والسيطرة التي يخشاها ، فيتملص منها ويجد كل سعادته وعناثه واستتياب شخصيته

والشجاعة يوطنه في زواجه من فتاة مصرية سمراء هي (رجا) أخت نسيبه الأستاذ مصطفى لطفى ، وكما نما خط استقراره العاطفي نما أيضا خط استقراره الروحي والمذهبي - تحول عن المحاماة بعد أن أخفق فيها اخفاقا ذريعا بسبب خجله وحيائه ليصبح ادبيا ينادى في الصحف بضرورة اعتناق أدب مصرى أصيل يخدم الشعب ويسمو به والاعتناء الى هذا الراى هو الخيط الأبيض في حياته .

ونفهم من الرواية أن أحمد أصبح من اعسلام الأدب في مصر ، وأن دعوته قد نجحت واستلقت الانظار وجذبت لها الانصار ، فهو في نهاية الرواية يظهر لنا في صورة الزعيم ، لقد وجد أخيرا تحقيق آماله في تحرير وطنه ، وفي تحقيق تحرير ادبه من السيطرة الأجنبية .

عسى أن يتضح بعد هذا التلخيص - واعترف أنه مغل - ان المؤلف أراد أن يرسم أحمد في صورة البطل بالمعنى اللغوي لهذه الكلمة لا بالمعنى الروائي وخبط ، فقد رمز به الى جهاد مصر ضد الاحتلال بجميع صوره ، وارتفع به درجة درجة حتى أبلغه مقام الزعامة المحاطة بالانصار ، وتنطلق الرواية بأن المؤلف شديد الاعجاب بهذا البطل ، متعاطف معه بكل حيالاته ، يرتفعه بالبنهار كأنه مثله الأعلى ، انه متبلذ بتقنيته لكل لفظ يخرج من فمه ، وكل حركة يأتيها ، بل كل فكرة ترد على خاطره ، وكل تحول ولو خفى ضئيل يطرأ على قلبه ، هذه اللذة سوكانها التنويم المغناطيسي هي التي جعلتنا نحس أن المؤلف لا يشعر أنه يرسم لنا أيضا كل عيوبه البشعة ، أو أنه اذا شعر بما يفعل فإنه غير مبال بها . ولكن القارئ ليس له مثل لذته المسحورة ولانومه المغناطيسي ولذلك فإن هذه العيوب تفلز لعينه بل تكاد تستحوذ على اهتمامه ومجال اذن أن تتسم وحدة التعاطف ، بل الذي تم هو تضاد في التعاطف : اعجاب من المؤلف ونفور من القارئ يكاد يبلسج حد التافف .

وكيف تعجب ببطل هو مثال يدع لجيلة اسمها عننى « الاسفنجية » أنه لم يرتفع درجة بمجهود الذاتى ، بل بمساعدة من الغير فلا تنقلت من فمه كلمة شكر أو اعتراف بجميل ، بل يكاد يمتن على من يرفعه أنه ارتفع معه ، فلا يكون

نضجه الا نفضة كذابة أو تخمة دودة العلق بالدم المختص .

ان نسيبه مصطفى لطفى هو الذى يدفعه الى المسجد للاستماع الى خطباء الثورة . كل مشاركته فى الجهاد الوطنى هو سيره مرة فى مظاهرة ... لم يشترك فى خلية أو تنظيم سياسى .

كل شىء فى جمعبته الثقافية كان فى أول الأمر من عمل لورا - رمز الاحتلال - هى ، التى كانت تقرا عليه الشعر الانجليزى وتبصره بمعنى الجمال ومعنى الأدب ، هى التى تحاول تهذيب ذوقه ، هى التى تذهب معه لكتيب الحمامة الذى لا يصطاد زبونا واحدا لتنظم له الأناث الدميم الذى اشتراه ورسه فى المكتب هिला بيلا ، وبدلا من أن يشكرها كثر لها عن أنيابه اللامعة متهما لها بأنها تحاول السيطرة وفرض ذوقها عليه . هى التى وقفت وراءه فى كل خطوة تدفعه الى الامام . وتثبت له ثقته فى نفسه .

بل ان تحولاته الثقافية حين أقلح عن عبادة الأدب الانجليزى ليلقى نظرة الى الأدب الفسرسنى والايطالى كان من نصيحة أصدقاء له بالقاهرة . أخذ عنهم الراى ثم بشر به كأنه صاحب الذى اعتدى اليه وحده .

لامفر للقارى من أن يقارن بين (لورا) و(أحمد) ، (لورا) رمز الاحتلال وأحمد رمز الجهاد الوطنى والنزوع الى التحرر ، ولا مفسر له - مع الأسف - الا الاقراء بأن لورا تمثل جميع القيم الانسانية فى أرقى صورها ، هذه الفتاة وهبت قلبها لأحمد باخلاص لاشك فيه ، انها غير منافقة ، فهى لا تنكر انها انجليزية ولكنها صادقة فى تأكيدها لأحمد انها تحب مصر أيضا ، انها تراه يخونها ومع ذلك

تدعو له بالسعادة ، بل تكاد هى التى تدفعه دفعا الى الخروج من حيرته ليتزوج من الفتاة المصرية ، لأنها تريد قبل كل شىء مناهة وتوفيقه ، وأحمد يقسم لها أنه يحبها ويؤكد لها أنه سيتزوجها ثم لا ينفك يطمئن قلبها طعنات سميتة ، والعجيب انها ليست هى التى تتور ، بل هو الذى يشور عليها اذا حزنت ، لأن حزنها يؤلم حضرته .. ياله من جزار يذبح وييسمل انه يرقبها بعين النسر ، ويسجل فى قلبه - وهو الذى يزعم حبها - كل آثار فعل الزمن بهذه المخلوقة المسكينة ، التى فقدت جميع أسرتها وبقيت وحيدة عميةا وسط كلابها ، انه يلحظ أثر خلع أحد ضروسها فى تشويه وجهها ، وليس هذا فعل عين الحب الذى يقسم لها أغلظ الايمان ، بأنها تسكن قلبه ! لقد خشى أحمد أن تستعبده (لورا) فكان هو الذى استعبدتها وهو ماض فى طريق التحرر .. ليس فى أدبنا الحديث صورة بشعة للانانية مثل صورة أحمد ، البطل الذى يرمزه المؤلف الى مصر .. انانية مصحوبة باعجاب شديد بالنفس وباستعلاء على الغير ، وبالزهو بالقدره على الملاحظة فى السر .. أن طيفه العزيز لم يشرق فى صفحة من صفحات الرواية الا خشيت اننا ايضا أن يوجه الى نظرتة التجسس من تحت تحت .

اهتمت وحدة التعاطف وأضاعت الرواية رسالتها رغم نجاحها العفيدة التى ذكرتها فى أول هذا المقال .

والأثر الذى بقى فى نفسى بعد أن نسييت تمريرها لي هو أننى فى اجتماع أسرة ذات ليلة من ليالى الشتاء حول مدفأة ، فتنستمع الى حديث ابنها البكر الذى يعود من رحلة طويلة ، فيلذ له ان يستعيد معها ذكريات صباه وشبابه وهو آمن من النقد لأنه وسط أجياله ، فلا يفوته أن يذكر أيضا أخته زينب وما جرى لهما مع أنها لا دود لها فى أحداث الرواية .



الملاحم الفلسفية للأشترائية العربية

٢

يقدم :

الدكتور صلاح الدين عبد الوهاب



ARCHIVE

ترك لووزير الحربية والبحرية والطيران الحق في تأمين مصانع المواد الحربية . وكذلك دعت اعتبارات الأمن الوطني ومنها المحافظة على حصيلة الضرائب ، دعت الدولة الفرنسية الى احتكار الكبريت والمطابع وبنك الاصدار .

ويكفي أن نتأمل قائمة المشروعات المزمعة في فرنسا لتبين أن عملية التأمين شملت كل مشروع يتعلق من قريب أو من بعيد بالصالح العام . فقد أمنت مناجم الفحم في ١٣-١٢-١٩٤٤ وأمنت مصانع سيارات رينو في ١٦ يناير ١٩٤٥ (ولكن أخذ هذا التأمين بالذات مسورة العقوبة) وكذلك أمنت البنوك وشركات التأمين وشركات الغاز والكهرباء والصحافة وشركات المواد المعدنية وكثير من المشروعات الهامة الأخرى .

وفي إنجلترا لعبت الدولة دورا هاما في تنمية الاقتصاد القومي منذ تولى حزب العمال الحكم بين سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٩ . ويدخل في المشروعات التي أمنت تطبيقا لهذه السياسة بنك إنجلترا والطيران المدني وصناعة الفحم والمواصلات السلكية واللاسلكية

أوضحنا في العدد السابق من هذه المجلة كيف تتميز الاشتراكية العربية بفلسفة خاصة تفرق بينها وبين الاشتراكية الماركسية . ونعود اليوم لتبين كيف تختلف اشتراكيتنا عن نوع آخر من أنواع الاشتراكية ولدت في دول لم تتأثر بفلسفة كارل ماركس وهي مايمكن أن نسميه بالاشتراكية اليمينية .

وقد ظهرت البوادر العملية للتطبيق الاشتراكي اليميني في حركة التأمينات التي قامت بها دول أوربية كثيرة بعد الحرب العالمية الأولى .

ففي ألمانيا ظهرت بوادر الاشتراكية في دستور فيمر لسنة ١٩١٩ . ثم صدر قانون خاص بتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٩١٩ وضع هذه الاشتراكية موضع التنفيذ ، فنص على اخضاع مصادر الثروة الانتاجية للملكية المجموع (أي مجموع الشعب) من أجل استعمالها لتحقيق الصالح العام .

وفي فرنسا لجأت كثير من الظروف المشرع الى اصدار قانون ١١ أغسطس سنة ١٩٣٦ الذي

وصناعة النقل وصناعة القطن ومشروعات الكهرباء والغاز والحديد والصلب .

وساد ذات الاتجاه فى دول غربية أخرى مثل ألمانيا والسويد .

وسنركز اهتمامنا فى هذا المقال على استعراض أوجه التفرقة بين اشتراكيتنا وبين الاشتراكية اليمينية السائدة فى إنجلترا .

يطلق مؤرخو الفكر الاقتصادى على الاشتراكية التى ظهرت قبل ماركس اسم «الاشتراكية الخيالية» لأنها لم تكن تقوم على تحليل علمى دقيق ، وإنما نبعث من مجرد الرغبة فى القضاء على النظم الاقتصادية السائدة وما كانت تؤدى اليه من ظلم للطبقات الكادحة . فضلاً عن ذلك فلم يكن من الممكن أن تظهر الاشتراكية العلمية قبل قيام الثورة الصناعية التى أدت الى تأكيد الانفصال بين طبقة الرأسماليين وطبقة العمال ، وظهرت مساوئ المذهب الحر الذى يقوم على ترك المبادرة الفردية دون قيود ، وعدم تحديد الملكية الفردية بأى طريق من الطرق ، ووقوف الدولة من وسائل الإنتاج موقف المنظم والمشرّف فقط .

وقد ترتب على هذا النظام أن هضمت حقوق طبقة العمال والأجراء فلم يكن يسمح لهم بحقوق التصويت ، ولا بحق تكوين اتحادات تجارية ولا نقابات . وكانت أجورهم غير كافية ونسبة البطالة مرفعة جداً .

ولعل أبلغ وصف لحالة طبقة العمال ما كتبه جواهر لال نهرو عن عمال إنجلترا عند بدء الثورة الصناعية إذ قال : « تأثر عامة الناس غاية التأثر بالشو الصناعات فهجروا الأرض الزراعية الى المصانع ، وبدأت تنمو طبقة عاملة صناعية مزاحمة فى مدن قبيحة تفتقر الى جميع المرافق الصحية » .

وبدا العمال الانجليز يستشعرون حقيقة حياتهم وأنهم يموتون موتاً بطيئاً ، فأخذوا يجتمعون سرا فى أماكن غير معروفة ويشكلون جمعيات سرية بقصد الكفاح فى سبيل مستقبلهم .

واستمر الحال هكذا حتى ظهر رجل من بين أصحاب المصانع فى مانشستر يمتاز بالإنسانية ، فبدأ يدخل الإصلاحات الكثيرة مصانعه بقصد تحسين أحوال العمال حتى أثارت هذه الأعمال ضجة كبرى بين طبقة الرأسماليين أصحاب المصانع . ولكن لم

يشه ذلك عن الماضى فى طريق الكفاح من أجل العمال .

وكان هذا الرجل هو روبرت أوين الذى يقال أنه أول من استعمل كلمة « الاشتراكية » عام ١٨٢٠ .

وبفضل روبرت أوين صدر قانون المصانع الأول عام ١٨١٩ الذى يعتبر أول وثيقة رسمية فى طريق تأمين مستقبل العمال الانجليز .

ثم ظهرت بعد ذلك جماعة الفايين عام ١٨٨٤ بفضل جهود بعض من المفكرين الاشتراكيين الذين اقتنوا بمبادئ فاييوس مكسيموس ، وقد انضم اليها جورج برناردشو . ويتلخص برنامج هذه الجماعة فى الإصلاح الاجتماعى عن طريق أى نوع من التنظيمات ودعوا الطبقة المتوسطة الى ضرورة الاشتراك فى ادارة رأس المال الصناعى واستثماره بالتعاون فيما بينهم . ثم تطورت آراؤهم بعد ذلك فى المنشور الذى أصدره برناردشو والذى دعا فيه الى تأميم الأرض وحث الحكومات على التدخل بكل امكانياتها فى ميدان الإنتاج . واعتمد شو فى هذا المنشور على « نظرية القيمة » وأن اعتبرها من خلق المجتمع لا من خلق العمال وحدهم بعكس ما قال به ماركس .

وأوجزوا هدف الاشتراكية فى إتاحة الفرص لكل فرد دون إثارة طبقة على أخرى . والسبيل الواضح لتحقيق هذا الهدف - فى نظرهم - هو تحويل ملكية الأرض ورأس المال المنتج الى ملكية الشعب ، على أن تكون الحكومة هى المثلة للشعب فتديره لحسابه .

وكان الفاييون يتقون نقلة كبرى فى أهلية الحكومات الديمقراطية فى أوروبا وأمريكا لتنفيذ البرنامج الاشتراكى .

ولم يكن الفاييون يؤمنون بضرورة الوثبات الثورية فى مجال التطبيق الاشتراكى . بل كانوا يعتقدون بإمكان الوصول الى الاشتراكية بالتدريج . إذ لا حاجة - فى نظرهم - الى إحلال الاشتراكية محل الرأسمالية لإيمانهم بعدم وجود فاصل بين النظامين ولاعتقادهم بأن كلا منهما يمكن أن يتحول الى الآخر عن طريق الاجراءات التشريعية .

التي تمتلك وحدها أكبر شركة لإنتاج المواد الكهربائية في إنجلترا ، ولا يزال هناك من يمتلك بفرده نصف مليون فدان من الأراضي الزراعية وهو Duke of Buccleuch ولا يزال آرثر واثك يمتلك حوالي ٩٠٪ من دور السينما ويسيطر على صناعاتها وما زالت أسرة De Havilland تمتلك عدة مصانع ضخمة لإنتاج الطائرات الحربية

هذا في الوقت الذي لا تزال مشكلة البطالة في إنجلترا دون حل حاسم ، ولا يزال ملايين من العمال يعيشون في ظروف اجتماعية حيرت علماء الاجتماع الإنجليزي .

فإذا قارنا بين كل ذلك وبين قانون تحديد الملكية الزراعية ، وقانون وضع حد أقصى لدخل الفرد السنوي ، وقوانين اشتراك العمال في أرباح المصانع والشركات التي يعملون بها ، والقوانين التي كفلت لهم حدا أدنى للأجور ، والقوانين التي حولتهم حق التمثيل في مجالس إدارة الشركات ، وقوانين تأميم المشروعات الإنتاجية الكبرى والبنوك التي حالت دون افتتاح الاستغلال الفردي والمصلحة الخاصة على صالح المجموع ، وقوانين الضرائب التصاعدية؛ إذا أجري هذا المقارنة ظهر لنا كيف نجحت الاشتراكية العربية فيما فشلت فيه الاشتراكية السبئية في بريطانيا

٢ - ونختصر الفارق الثاني بين اشتراكيتنا والاشتراكية الإنجليزية في أن الأولى لا تتجسد في إطار حزبي بعيد عن الوحدة القومية كما هو الحال في الاشتراكية البمينية في إنجلترا ، إذ يخطط منهاجها ويعمل على تحقيقها حزب العمال البريطاني وهو في تصارعه الحزبي مع حزب المحافظين الاستقرائي تخيط في سياسته وفق اتجاهات الناخبين فتراه يتخلى في كثير من الظروف عن مبادئه الاشتراكية مما دعا إلى ظهور بعض حركات التمرد داخل الحزب بين وقت وآخر ، ومن قبيل ذلك الجناح اليساري الذي ظهر بزعامة أنورين بيفان والذي كان يطالب بالعودة إلى مبادئ الاشتراكية الأصلية .

ويعتقد السياسيون أن المعركة العنيفة التي نشبت داخل حزب العمال قد أسفرت عن نبذ فكرة التأميم من الناحية العملية . ويدور التساؤل الآن عن أفضل سياسة ينبغي للحزب اتباعها في

على أن بعض زعماء الغالبين كانوا يلقون بتعاليمهم الاشتراكية من أبراج عاجية ، ولا أدل على ذلك من أن « سدني وب » قبل لقب اللوردية وأصبح يعرف باسم لورد باسيفيلد وظل يحمل هذا اللقب إلى أن توفي عام ١٩٤٧ . وكذلك ظل « جراهام والاس » يملك الضياع الواسعة والمزارع الضخمة في الوقت الذي كان ينادي فيه بضرورة تقييد الملكية الزراعية .

ومما يؤكد هذا المعنى أن زعماء الغالبين طلبوا يحتفظون بأرستقراطيتهم فلم يندمجوا مع حزب العمال الذي نشأ في نفس البيئة الفكرية التي نشأت فيها الجمعية الغابية ، وظلوا ينسحبون إلى رجال الحزب نظرة كبرياء وتعال رغم اضطرابهم إلى إرسال ممثلين منهم إلى لجنة تمثيل العمال التي اعتبرت بمثابة جمعية تأسيسية .

١ - ومن هنا يبرز الفارق الأول بين الاشتراكية العربية والاشتراكية البريطانية . فبينما أن الأولى ثورية إذا بالثانية تطورية . ومعنى ذلك أن اشتراكيتنا لا تؤمن بالحلول الوسط ولا بالإصلاحات التدريجية بل تواجه ظروف المجتمع العربي مواجهة صريحة لا تقف فيها عند حد محاولات التوفيق compromise بين المصالح المتعارضة والتناقضات التي كشف عنها النظام الرأسمالي . وعملت ولا تزال تعمل على إيجاد حلول جذرية لتغيير شكل المجتمع إلى مجتمع يتحقق فيه الكفاية في الإنتاج والعدل في التوزيع . ولا تسيطر عليه طبقة من الطبقات .

وإحلال الاشتراكية محل الرأسمالية أمر لازم في الاشتراكية العربية التي تؤمن بأن الائتلاف تمثّلان ضدين لا يجتمعان ، والفصل بينهما هو فاصل أساسي لا يمكن أن يكفى في تحديده مجرد إجراء تشريعي بل يجب أن تتحول عقلية أبناء المجتمع من عقلية رأسمالية استغلالية إلى عقلية اشتراكية عادلة .

والدليل على ثورية اشتراكيتنا أنها حققت منذ سنة ١٩٦١ ما لم تستطع الاشتراكية البمينية في إنجلترا تحقيقه منذ تولي حزب العمال الحكم لأول مرة سنة ١٩٢٣ . فلا تزال الرأسمالية متغلغلة تماما في الحياة الاقتصادية في إنجلترا . إذ لا تزال بعض الأسر الأرستقراطية الإنجليزية تسيطر على المشروعات الصناعية الضخمة . ومن الأمثلة على De Ferranti

لا تبقى تحقيق هذا الهدف بل تبقى على الطبقات وعلى الاطار الاجتماعى السائد ، وتحاول ان تحل التناقضات وان تحقق العدالة الاجتماعية داخل هذا الاطار .

وهذه النقطة بالذات تمثل فى نظرنا قطب الرمح فى الاشتراكية العربية . ففى فى سبيلها لمواجهة الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لا تلجأ الى طريق العنف والصدام .. وانما تعمل على ايجاد نمط اجتماعى جديد اكثر عدالة لتتوزع بداخله الثروات والدخول فيصبح العمل هو المصدر الاساسى للرزق مع وضع حد اقصى للملكية الزراعية وللدخل العام مهما تنوعت مصادره .

فحل التناقض الطبقي انما يكون سلميا لانه يتم داخل اطار من الوحدة الوطنية المنظمة ، لا بضرية عشوائية كما فعلت الماركسية . ولعل اكبر كسب ايجابى احرزته الاشتراكية العربية هو ما نص عليه الميثاق من حق العمال والفلاحين فى الحصول على نسبة تساوى ٥٠ ٪ على الاقل من جميع مقاعد التنظيمات الشعبية ولجان الاتحاد الاشتراكي اذ ان هذا الاجراء يحيل طبقات الشعب الكادحة الى سلطة موحدة بعد ان كانت طبقة لا تتمتع باى حق من الحقوق .

ان الديمقراطية السياسية التى طالما تشدق الانجليز بها لا يمكن ان تتحقق الا بتحقيق الحرية الاجتماعية والتى لا طريق لها الا الاشتراكية . وانه لا شك يتناقض مع الاشتراكية وجود مجلس اللوردات الانجليزى والذى يضم طبقة اصحاب الاقارب من المتعطلين بالوراثة والتى لا بد ان تقف فى وجه كل اصلاح جذري يرمى الى تخليص العمال والفلاحين من اذى الماشى وتقلهم الى مستوى التوجيه السياسى والاجتماعى للبلاد .

الانتخابات القادمة والمقدر لها ان تجرى هذا العام لجذب اكبر نسبة من الاصوات (العائمة) والتى لم ترتبط باى من الحزبين ارتباطا ايديولوجيا . وقد اثبتت التجارب ان هذه الاصوات « العائمة » التى تجمع عددا كبيرا من الشباب المثقف ، تلعب دورا اساسيا فى الانتخابات البريطانية .

ويتفرع على ذلك قصور التطبيق الاشتراكي البريطانى عن تحقيق الغايات الاشتراكية السامية على مستوى المجموع . فلو تصورنا ان تولى حزب العمال مقاليد الحكم بحصوله على الاغلبية فى الانتخابات القادمة ، فانه لابد مصطدم كما حدث من قبل بمصالح الطبقة الارستقراطية والتى تمثل فى مجلس اللوردات ، واصحاب المصالح الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة وهم يكونون قوى لا يستهان بها ، وبذلك تستمر التناقضات هى فى دون تغيير .

اما الاشتراكية العربية فلكونها اشتراكية قومية وليست اشتراكية حزبية ، فانها ان تكون هدفا لمناورات حزبية او محلا لهجوم قوى مناهضة للاصلاح بعد ان بدأ التطبيق الاشتراكي المصري بتخليص البلاد من ادران الرجعية واثار الاقطاع والراسمالية المستغلة .

ولا شك ان تحالف قوى الشعب العاملة داخل اطار الاتحاد الاشتراكي العربى هو خير ضمان لعدم الانحراف عن الاهداف .

٣ - ويتبلور الوجه الثالث من وجه تميز الاشتراكية العربية عن الاشتراكية اليمينية فى الهدف التى تتوخاه الاولى بالنسبة لشكل المجتمع فيتمتع تهدف الاشتراكية العربية الى ازالة الفوارق الطبقة المصلطنة وتحقيق مجتمع لا طبقى تسود فيه المساواة القانونية بين افراده ، وتكافؤ فرص الجميع للعيش الكريم ، فان الاشتراكية اليمينية

نضاية الاستعمار

بسم: الدكتور محمد السيد غلاب



الاستعمار قديما :

الاستعمار ظاهرة بشرية قديمة ، ارتبطت في عصور ما قبل التاريخ وفجره بانتقال جماعات من البشر وراء الرزق ، واستقرارهم في أقاليم مختلفة، واتخاذها أوطانا لهم ، وبهذا المعنى يكون الاستعمار هو طلب العمران أو التعمير . وكانت المستعمرة تتكون بانتقال جماعة من الناس من وطنهم الأم ، والاستقرار في وطن جديد ، ونقل معالم حضارة بلادهم الأولى الأصلية ومدنيتها الى هذا الوطن الجديد ، واقدم امثلة الاستعمار بهذا المعنى في التاريخ ، بعد ظهور المدينيات الراقية في حوض النيل الأدنى ودجلة والفرات والحوض الشرقي للبحر المتوسط عامة ، انتقال شطر من الفينيقيين يحملون حضارة المشرق الى جميع انحاء حوض البحر المتوسط ، وتكوينهم مستعمرات فينيقية في كل مكان حلوا به ، في جنوب إيطاليا ، وفي شمال افريقية ، وفي سواحل ايبيريا الجنوبية والشرقية . وكانت المستعمرة الفينيقية تضم المهاجرين من الوطن الأم ، وتميزهم في الحضارة

اذا كان القرن الخامس عشر قد شهد مطلع عصر الكشوف الجغرافية ، وشهدت القرون الأربعة التالية عصر التوسع الأوربي عبر المحيطات أو عصر الاستعمار ، فان هذا القرن الحالي ليسمى بحق عصر نهاية الاستعمار . ولقد بدأ التحول والتغير يحل بنظم الاستعمار الأوربي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، فانتقلت بعض المستعمرات من مرتبة المستعمرة التي تخضع للحكم الأجنبي المباشر الى مرحلة الحكم الذاتي ، غير ان سرعة التغير نفسه قد ازدادت وسارت بخطى واسعة ، حتى ل يبدو لنا الاستعمار وقد انهار انهيارا كبيرا يكاد يكون فجائيا . وحتى ل أصبحنا نفتش في الخريطة بحثا عن مستعمرة ما . بينما كانت أعيننا لا تقع الا على مستعمرات خارج القارتين الأوروبية والأمريكية ، وكنا لا تكاد نعثر على دولة مستقلة واحدة في القارتين الأفريقية والآسيوية ، وكيف تم هذا التغير ، وما هي العوامل التي كانت كامنة فظهرت أو التي أثارت قوى جديدة تنطلق الى الاستقلال .

والثقافة عن سكان البلاد الاصليين ، وعلى هذا الدرب سار الاغريق فيما بعد ، منذ القرن السابع قبل الميلاد .

وتختلف هذه الظاهرة بشريا - اى حضاريا وثقافيا - من ظاهرة التسلط والسيطرة او العاهلية (الامبريالية) التى صساحت تكوين الامبراطورية الرومانية ، فمثل هذه الامبراطورية كانت مثلا لسيطرة قوة مركزية على كثير من الشعوب والامم بحكم البطش والجبروت والغريب انه بينما كتب للمستعمرات الاغريقية ان تنجح فى بث الحضارة الاغريقية فى كل مكان حل فيه العنصر الاغريقى - حتى وهو تحت سيطرة الرومان - زالت الامبراطورية الرومانية وذوت وعفت مع مضي الزمان .

وقد شهدت العصور الوسطى حركات هجرة وانتقال واسعة فى أوروبا وافريقية فهاجرت قبائل وشعوب بأسرها من وسط آسيا الى أوروبا ، ودقت ابواب الامبراطورية الرومانية حتى انهأت ، وعمرت السهول والوديان وكونت فيها مستعمرات جرمانية وسلافية مختلفة ، اى استوطنتها ، وكونت الاوطان الاوروبية الحديثة ، كما اتبعت العرب من شبه جزيرةهم وانتشروا من الخليج العربى الى المحيط الاطلنطى ، واختلطوا بالسكان الاصليين ، وتزاوجوا معهم ، واستعربت تلك الاقطار واسمت رقعة الوطن العربى الكبير .

وجاءت آخر مظاهر الاستعمار الاستيطانى فى اعقاب الكشوف الجغرافية الكبرى اى منذ منتصف القرن الخامس عشر ، تلك الكشوف التى تمت على ايدى البحارة الاسبان والبرتغال ثم الهولنديين والفرنسيين والانجليز ، والتى فتحت آفاقا واسعة امام تلك الشعوب البحرية فى الأمريكتين وشرقى آسيا ثم فى استراليا وجزيرتى نيوزيلندة ثم فى افريقية . وقد هاجرت افواج الاوروبيين الى الأمريكتين واستراليا ، واستوعب العالم الجديد اعداد السكان المتزايدين فى أوروبا ، وقد اقترنت تلك الحركة بعصر النهضة الاوروبية وتحرر الفكر من وصاية الكنيسة ، كما اقترنت بالفلسفة التجريبية والمادية ، وكان من نتائج تفاعل تلك العوامل جميعا ان تقدمت العلوم الطبيعية وظهرت آثار ذلك التقدم فى تحسين وسائل المواصلات ، وقهر كثير من الاوبئة والأمراض المعدية ، فنقص معدل الوفيات وازداد السكان فى أوروبا زيادة كبيرة ، كما

ادى تقدم العلوم الطبيعية الى استنباط وسائل اجدى وانفع فى حث الارض والزراعة فى أوروبا ، اى الى ظهور الثورة الزراعية الاوروبية فى القرن السابع عشر ، كما ادى الى استنباط قوى جديدة تدفع بمجالات الصناعة ، قوة دفع المياه ، ثم قوة دفع البخار ، مما ادى الى ظهور الثورة الصناعية ، وكان من نتائج تلك الثورة القضاء على النظم الاقطاعية وشبه الاقطاعية فى الانتاج ، وظهور المصانع الكبرى وتكدس رأس المال ، وبزوغ قوة الرأسمالية وتأثيرها فى الحكم . وتوجيه دفة الحكم نحو الاستثمار . فالصانع فى حاجة الى المواد الخام بارخص الاتمان ، والسلع المصنوعة فى حاجة الى اسواق لتصريف منتجاتها .

الاستعمار الاوروبى الحديث :

ومن ثم كانت حركة الاستعمار الاوروبى الحديث مرتبطة بتطور النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى لأوروبا الحديثة ، اى مرتبطة بنشأة الرأسمالية التى تسعى الى اجتثاث اكبر قسط من الارباح فى اقصر وقت متطاع ، والتى كانت تهدف باستعمار الى اخضاع اقتصاد المستعمرات ليتلاءم مع اقتصاد الدولة المستعمرة ويخدمه . وبذلك تخدم المستعمرات - بالمفهوم الحديث - غرضين أساسيين - كونها موردا للمواد الخام الرخيصة ، وسوقا لتصريف السلع المصنوعة .

ويعبر سيسيل رودس أحد بناة الامبراطورية البريطانية عن ذلك بقوله « يجب على حكامنا ان يتسلطوا اقاليم جديدة لمواجهة زيادة عدد سكان وطننا ، ومن اجل فتح اسواق جديدة لمنتجات مصانعنا ومناجمنا ، وكما قلت دائما ، فان الامبراطورية مسألة تتعلق بالخبز والزبد .. واذا اردنا ان نتجنب اى حرب أهلية فطينا ان نكون امبرياليين .. »

وكتب ايميه سيزار فى آراءه عن الاستعمار : « انه هدف للبحارة والقراصنة والفسامين الذين يبحثون عن الذهب ، هدف وصلوا اليه بال قوة ، وتحت ستر المدنية ، فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ ، مندفعين امام التنافس فيما بينهم .. » .

« وليس هناك استعمار برىء او استعمار بدون نية الاستقلال ، وليس بين المستعمر والمستعمر الا الضغط والسرقة ، وفرض ثقافة معينة ، والعنف

والصرايب المحففة ، والاحتقار وعدم الثقة ، انه لا يوجد اى اتصال انساني ، فالرجل الابيض المسيطر هو المستفيد والمستغل في حين ان الرجل الخاضع له ما هو الا وسيلة للاتناج » .

ولكى ندرك فداحة ما صنع المستعمرون في البلاد التي اكتشفوها ، او التي اخضعوها وحكموها علينا ان نتساءل ، أين امم الهندو الامريكيين في امريكا الشمالية ؟ والام صار امر الهندو الامريكيين في امريكا الجنوبية ؟ وكيف وصل الملايين من الرقيق الاسود الى شواطئ الامريكتين ، وكم من ملايين الانفس قضت نحبا في حملات النخاسة من سواحل افريقية ، او بفعل الامراض الوبائية في عرض المحيط الاطلسي ، وما هو مصير هؤلاء الزوج في تلك السواحل البعيدة ، وعلينا ان نتساءل من هو المسئول عن الرق والعبودية واستغلال القوى البشرية ، ومن هو المسئول عن تعظيم القوميات الافريقية والاسيوية وفتيتها ومسح شخصياتها ، وعن المآسى البشرية التي نجمت عن سياسة التفرقة العنصرية في افريقية وامريكا الشمالية .

ان الدول الاستعمارية الرئيسية الكبرى هي دول غرب أوروبا : بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولنده واسبانيا والبرتغال ، وقد اجتمعت كلها فيما بعد الدنيا وايطاليا من ناحية أوروبا واليابان من ناحية اخرى . وتتفق مجموعة دول غرب أوروبا في أنها بحرية وأنها صناعية . اذ ارتبط الاستعمار كما بينا بالكشف الجغرافي والمواصلات البحرية بالثروة الصناعية ، اما مجموعة الدول الاستعمارية الاخرى فهي بلاد تشكو - او هكذا تزعم - من اكتظاظها بالسكان .

ومن ثم اختلفت قيمة المستعمرات للدول الامبراطورية بعضها من البعض الآخر ، فهي اما ذات قيمة استقلالية اقتصادية او استراتيجية او هي مواطن جديدة للفائض من السكان . كما ان الدول الاستعمارية دخلت في ادوار متعاقبة من التسابق الامبراطوري والنزاع حول المستعمرات ، ومن بعضها على البعض الآخر حروب استعمارية ، فانهارت بعض الامبراطوريات وتضخمت اخرى على حساب التهمز وهكذا .

ويمكننا ان نقسم الامبراطوريات الاستعمارية الحديثة الى قسمين : امبراطوريات مندثرة ، واخرى في دور التصفية . ونخشي ان نضيف قسما

آخر هو الامبراطوريات في دور التكوين او التي تبلى ثيابا جديدة تتفق وروح العصر .

الامبراطوريات المندثرة :

واول الامبراطوريات المندثرة هي الامبراطورية الاسبانية ، وعنده بدأت يكشف كولومبس للعالم الجديد عام ١٤٩٢ ، وبلغت اوجها في القرن السادس عشر وقامت على رماح طبقة الفاتحين الغامرين conquistadores مثل كورتز فاتح المكسيك وبيرو والانثيل .

وقد امتدت امبراطورية اسبانيا فشملت جبهة المحيط الهادى الامريكية وجزر الفيليبين ، ودخلت اسبانيا في منافسة مع جارتها البرتغال في هذا المضمار ، واحتكمت كل من الدولتين الكاثوليكيتين الى البابا الذي اصدر قرارا بابويا بتقسيم العالم بينهما بخط طولى وهمى ! وقد اتجه الاستعمار الاسباني في امريكا الوسطى والجنوبية الى مناطق تجمع اصحاب الدنديات الامريكية الاصلية ، مثل الازتك ، والاكا والمايا ، ولم تكن لدى اسبانيا من القوة البشرية المثلة في عدد السكان ما يمكنها من تعمير مباحات واسعة في العالم الجديد ، ولذلك فقد اتجه استعمارها الى الاستغلال الاقتصادي والانتزاعي . وقد تآلرت امبراطوريتها الاستعمارية الجديدة بنظامها السياسى والاجتماعى الداخلى شبه الانقطاعى ، ومن ثم فلم يكن لديها ما تقدمه من خبرة للمستعمرات ولم يكن الحكام الاسبان ، وهم من العسكريين والغامرين يفعلون شيئا اكثر من تسخير الهندو امريكيين في المناجم ، بعد ان يهرهم بريق الذهب والفضة في يد حكام الازتك السابقين وسحرتهم خرافة الدورادو ، واطبقوا في نهم وجشع على ثروات الازتك والاكا والمايا ، ثم جلبوا الرقيق الاسود من غرب افريقية ليستنزفوا قواهم في زراعة قصب السكر والطباق ليحصلوا على مزيد من الثروة ، وهكذا اصبح الاستعمار الاسباني متسما بالقسوة في سبيل الاستغلال الانتزاعي والثراء السريع ، فحطم قوى الشعب الهندى الاصلى ، كما حطموا تنظيماته الاجتماعية والاقتصادية .

وبدأت حركة تحرير المستعمرات الاسبانية السابقة في العالم الجديد عام ١٨٢٠ ، وانتهت عام ١٨٩٨ باستقلال كوبا والفيليبين ، عقب الحرب الامريكية الاسبانية القصيرة الحاسمة .

وهذه جميعا غنية في انتاج زيت النخيل والكاكاو ، كما لا تزال اسبانيا محتفظة بجزر كناريا .

اما الامبراطورية المندثرة الثانية فهي **امبراطورية البرتغال** ، وقد بدأت بحركة الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر ، ولا تزال تحصل الطابع البحري القديم ، فهي عبارة عن نقط ارتكاز ومحطات بحرية حول الساحل الافريقي ، أو الطريق المسمى الهند ، وقواعد بحرية أخرى على المحيط الهندي .

وكان للبرتغال امبراطورية واسعة في البرازيل ، تتبع نفس الاسلوب الاسباني في الاستعمار ، مع فارق واحد ، وهو تساهل البرتغاليين في الامتياز مع سكان البلاد الاصليين واتخاذ الاماء والسراري منهم ، ومن ثم تكونت سلالات خلاسية من مختلف العناصر الانثولوجية في البرازيل ، واصبحت البرازيل بوتقة هائلة لصور مختلف السلالات والشعوب . ولقد كان لعامل قلة عدد السكان البرتغاليين اثر كبير في قسم عرى الامبراطورية البرتغالية في العالم الجديد ، كما ان نظام حكمها الداخلي شبه الافطامي لم يتسع لحكم امبراطورية بعيدة ، ومن ثم اعلنت البرازيل استقلالها عام ١٨٨٨ .

ولا تزال بقايا الامبراطورية البرتغالية حتى الوقت الحاضر مشكلة في كاي فرت في غينيا البرتغالية وجزيرة ساد توميه الضيئلة القابعة داخل خليج غانا . واكبر هذه المستعمرات هي انجولا وموزمبيق ، على كل من الساحلين الغربي والشرقي لجنوب افريقية ، ولقد عمل سيسيل رودس على ان تظل كل من هاتين المستعمرتين بعيدة عن الاخرى ، واسس مستعمري روديسيا الجنوبية وروديسيا الشمالية لتفصل بينهما ، بل انه لم يتورع عن ان يقاوض الالمان لتصفية مستعمرات البرتغال في افريقية قبيل الحرب العالمية الاولى .

اما النقط الاستعمارية البرتغالية الاخرى في آسيا فهي بقايا المحطات البحرية والتجارية التي كانت للبرتغال على اطراف تلك القارة في القرن الخامس عشر ، فلقد كانت البرتغال أولى الدول الاوروبية في اقتحام المحيط الهندي للتجارة ، يدفعها الى ذلك عامل الاستثمار بارباح تجارة التوابل والاغذية الهندية والحرير الصيني الطائلة من ناحية والرغبة في مطاردة التجار العرب المسلمين في البحار الدقية من ناحية اخرى . ولم يستطع البرتغاليون

غير ان الاسبان قد تركوا لغتهم وعاداتهم ونشروا الدين المسيحي في امريكا الوسطى والجنوبية ، كما اتهم تركوا نظاما سياسيا شبه افطامي من الناحية الاجتماعية ، واستعماريا من الناحية الاقتصادية ، فالمجتمع الامريكي اللاتيني يتكون من قاعدة عريضة من الهنود الحمر سكان البلاد الاصليين ، فوقها طبقة اخرى من الغلاسيين وعامة الاسبان carole وتربع فوق القمة حفنة صغيرة من سلالة الفاهرين الفاتحين القدماء ، وهذه القلة هي التي تملك الافطاميات الواسعة haciendas تضم الواحدة منها عددا كبيرا من القرى الهندية ، يعمل فيها سكانها من الهنود الامريكيين والغلاسيين كاشباه الرقيق ، والطبقة الحاكمة في معظم جمهوريات امريكا اللاتينية لا تزال تحصل طابع المستعمر الاسباني القديم ، دمه ولفته وتقاليد الافطامية ، والشعوب لا تزال في حالة استرقاق ، ليس هذا فحسب ، بل ان تلك الطبقة الرقيقة من الحكام تركت للرأسمالية الامريكية (من الولايات المتحدة) استغلال ثروات البلاد الزراعية والمعدنية في مقابل تأمين حياة مترفة للقلة الغنية .

ومن لم لا نستطيع ان نقول ان الاستعمار اسبق انتهى من امريكا اللاتينية بمجرد اعلان استقلال جمهورياتها ، ما دام لم يصحب هذا الاستقلال ثورة اجتماعية حقيقية تعيد للأغلبية من الهنود الامريكيين والغلاسيين بل وفقراء الاسبان حقوقهم المشروعة في اوطانهم ، وما دام هذا الاستقلال لم يتحرر من سيطرة رأس المال الاجنبي من ناحية ومن النظم الاجتماعية الطبقية من ناحية اخرى . وتدل البواذر التي تظهر من حين الى آخر ، الى ان سير التاريخ في امريكا اللاتينية يشير الى هذا الاتجاه .

اما الاتجاه الآخر للاستعمار الاسباني فكان صوب الساحل الافريقي ، اذ تحرك العداء القديم بين الاسبان والمغاربة في مطلع هذا القرن ، وانتقلت اسبانيا لها موطأ قدم على الريف الاسباني الى ان تم استقلال المغرب سنة ١٩٥٦ ، ولا تزال هناك ممتلكات اسبانية في الصحراء الكبرى ، دافني ، ونقط صغيرة متفرقة على الساحل الافريقي الغربي وهي ساحل الذهب الاسباني وجزر فرناندو بو وانوبون داخل خليج غانا ، وفانا الاسبانية الصغيرة ،

— بسبب قوة الامارات والممالك الهندية وتماسك الامبراطورية الصينية في ذلك الحين — من أن يظفروا بأكثر من موطن أقدم غشيلة على سواحل الهند والصين ، هي جوا وديو ، وجزيرة تيمور الصغيرة في خليج السوند ومكاو قرب كانتون .

دخلت هولنده ميدان الكشف الجغرافية في القرن السابع عشر ، واكونت شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٢ ، واستطاعت تلك الشركة أن تقيم رأس جسر لها في جزيرة جاوه بتأسيسها بتافيا سنة ١٦١٠ ، ومنها انتشرت الى بقية جزر السوند وملكا وسيلان وملقا ، كما انتشرت في نصف الكرة الغربي وأسس الهولنديون استردام الجديدة على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية وأسسوا لهم مستعمرة هولندية قديمة على ذلك الساحل ، وهذه هي نواة نيويورك فيما بعد ، كما أسسوا مستعمرات أخرى في جزر الهند الغربية والبحر الكاريبي وساحل أمريكا اللاتينية الشرقية المداري .

غير أن حروب نابليون قد أخرجتها من مستعمراتها فلم يبق لها إلا جزر الهند الشرقية وغيانا البرتغالية .

ويعتبر الاستعمار الهولندي مثلا في الاستغلال الاقتصادي البشع ، فلقد فرض الهولنديون على الاندونيسيين نظاما يشبه نظام السخرة البرتغالي ، إذ كان على أهالي القرى أن يتركوا خمس زمام القرية يزعمونه بدون مقابل لمصلحة الخزنة الهولندية ، كما كان على الفلاح الاندونيسي أن يقدم سدس مجهوده البشري في المزارع الهولندية الواسعة بدون مقابل ، وبذلك استطاعت هولنده أن تثرى على حساب الشعب الاندونيسي ، وتمكنت حكومتها من سداد دينها العام ، كما استطاعت أموال الخزنة الهولندية أن تكون جيشا قويا ، وتجدد خطوطها الحديدية وتعمق قناتها المائية ، وأن تزيد رفقة أراخيها ، وقد استمر هذا النظام الاستغلالي حتى عام ١٩١٨ ، عندما حل محله نظام الشركات الاستعمارية الاحتكارية الكبرى .

وتمكنت هولنده عام ١٩٣٩ ، وهي دولة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين نسمة — أن تحتكر إنتاج الكينا والفلفل في العالم وأن تمتلك ثلث موطات العالم ، وربع زيت النخيل ، وخمس الشاي والتصدير ، وعشر السكر العالي و ٤ ٪ من البن

العالي و ٣ ٪ من البترول العالي ، وأن تتحكم في نحو ٧٠ مليون نسمة من البشر يزدادون مع الأيام فقرأ بينما هي تزداد غنى وقوة .

وقد انتهزت هذه الامبراطورية الكبيرة بعد الحرب العالمية الثانية عندما رفض الاندونيسيون عودة الهولنديين مرة أخرى عام ١٩٤٥ ، وعندما التفتوا حول وحدة لغتهم الملاوية ووحدة دينهم الاسلامي وحضارتهم الهندية ، وحملوا السلاح في وجه هولنده .

ولم يبق لهولنده سوى غيانا الهولندية على ساحل أمريكا الجنوبية الشرقي ، وبعض جزر الانثيل الصغيرى وجزيرة كراكاو ، ولهذه الجزيرة أهمية خاصة ، فهي التي تكرر بترول فنزويلا .

إن بلجيكا ودول وسط أوروبا سالمانيا وإيطاليا لم تدخل ميدان الاستعمار الا متأخرة ، فبلجيكا لم تستقل الا عام ١٨٣٠ ، وقد دفع لاني ملوكها ليوپولد الثاني بالفسام الأمريكى ستانلى الى وسط افريقية عام ١٨٨٦ ، وشجعه على الضى في اكتشاف نهر الكونغو ، في قلب افريقية الاسوائية ، التي ادارها كملكية خاصة ، سماها بالكونغوالحررة ، إلى الحررة من رقابة البرلمان والحكومة البلجيكية ، ومارس بها سيادة استقلالية بشعة ، التي أن تم وضعها تحت اشراف الحكومة البلجيكية نفسها . وتنتج الكونغو ٧ ٪ من النحاس العالي ، الى جانب المحبىز والتصدير والاورانيوم ، والمنتجات النباتية مثل زيت النخيل .

ومن الممكن أن نفهم شيئا مما يحدث في الكونغو بعد اعلان استقلالها عام ١٩٦٠ إذا تذكرنا بعض الحقائق الآتية : أن الحكومة البلجيكية تكاد تحتكر اسهم الشركة العامة البلجيكية التي تشمل شركة مناجم الماس واتحاد مناجم كانتنجا العليا بما تحويه من مناجم النحاس والكوبالت والاورانيوم . وتمتلك شركة بريطانية ١٤ ٪ من ارباح شركة مناجم كانتنجا البالغة الذكر ، وهذه الشركة تمتلك في الوقت نفسه ٩٠ ٪ من اسهم شركة خط حديد بنجويلا التي تقسم بتصدير منتجات كانتنجا المعدنية . كما أن حكومة الولايات المتحدة كانت قد وقعت اتفاقا مع حكومة بلجيكا عام ١٩٥٥ يخول لشركاتها الحق في الحصول على ٩٠ ٪ من الاورانيوم والتوربيوم المستخرج من الكونغو .

مصالح كل من بلجيكا وبريطانيا والولايات المتحدة متفقة في الثروات المعدنية الهائلة التي تنتجها كاتنجا .

وهكذا كان الكونزو مثالا لانتهاء استعمار سياسي استغلالي وقيام استعمار اقتصادي دولي من طراز معين .

اما **الامبراطورية الالمانية والاطاليسية** ، فهما امبراطوريتان قصيرتا العمر ، جاءتا متاخرتين بعد انتهاء عهود الكشف الجغرافي ونشأة الراسمالية والتكالب على الاستعمار . وربما كان هذا هو سبب المراه التي كانت تشعر بها كل من المانيا وايطاليا نحو جاراتها الغربية . وقد قضت الحرب العالمية الاولى على امبراطورية المانيا في توجسو وكامبيون وجنوب قرب افريقية وتنجانيقا . كما صفت ممتلكاتها في شمال شرق فينيا الجديدة ، وارخبيل بسمارك وجزر ميكرونيزيا وساموا في المحيط الهادي . وتقاسمت كل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا واليابان هذه الممتلكات .

وقد بدأت ايطاليا مغامراتها الجشعية عام ١٨٨٥ باحتلال مصوع وساحل لورييا ، ولكنها انتهت بكارثة عدوة ، وغزت طرابلس عام ١٩١١ وضمت جزر الدوديكانيز في نفس الفترة ، ثم لاحق لوسوليني احلام مظلمة قائمة على التوسيع الامبراطوري ، فارسل جيوشه لغزو الحبشة عام ١٩٣٥ وضم المانيا عام ١٩٣٩ وكان يحصل بضم السودان حتى يتم اتصال شرقي افريقية الايطالي بسواحل برقة وطرابلس ، كما كان يحلم بضم تونس وقناة السويس . غير ان معظم امبراطوريته كانت مساحات صحراوية ، ولم تكن تضم اكثر من ١٢ مليون نسمة ، واخيرا انتهزت فجأة بعد خروج ايطاليا منهزمة من الحروب عام ١٩٤٥ .

امبراطوريات في دور التصفية :

اما **الامبراطورية البريطانية** فهي تمثل صور الاستعمار الاوروبي الحديث ، الذي يتغير ويتطور ليلائم الظروف المتغيرة التي تجابهه باستمرار .

لقد كانت انجلترا حتى آخر القرن السادس عشر امة من الفلاحين والصيادين ، الى ان اقتحم القراصنة الانجليز غياب الماء ، واعترضت سفنهم السفن الاسبانية العائدة من العالم الجديد محملة بمنتجاته من طباق وجلود وسكر ، وبشرائه من ذهب وفضة . وكان أشهر هؤلاء القراصنة سير

فرانسيز دريك الذي أصبحت هجياته على المستعمرات الاسبانية في البحر الكاريبي اصبلا وطنية ومريحة في نفس الوقت . وبذلك تكون الاسطول البريطاني في عهد الملكة اليزابيث الاولى ، وسارت انجلترا على غرار البرتغال وهولندا ، فاستت شركة الهند الشرقية التي بدأت تشق طريقها بصعوبة وجهد وصبر وأناة في شبه القارة الهندية الضخمة ، كما انجحت عبر المحيط الاطلنطي غربا وأسست مستعمراتها على الساحل الامريكي ، وكانت مستعمرات بالمعنى القديم للكلمة ، اي اوطان صغيرة تستقبل الفلاحين الذين لفظتهم اراضي النبلاء عندما حولوها من زراعة القمح الى رعي الضان لإنتاج الصوف ، والهبرين بمقتسالتهم الدينية المضطهدة ، ودأب هؤلاء المهاجرون منذ اول يوم الى قطع الغابات وتمهيد الارض للزراعة ، وبناء السفن للبحث عن رزق البحر وزراعة الحقول وتربية الحيوان وأنشاء القرى والمدن ، اي أنهم اتجهوا الى الاستعمار الاستيطاني .

ولقد لقت المستعمرات الامريكية حكومة انجلترا درسا لم تنسه قط ، فبعد اعلان استقلال تلك المستعمرات التي أصبحت الولايات الثلاثة عشر الاولى عام ١٧٧٨ ، بدأ الانجليز في استخدام كثير من الخدع واليافعة على مستعمراتهم فيما وراء البحار ، ولا سيما وان تطور النظام الاقتصادي والاجتماعي داخل بريطانيا ، ونشأة الثورة الصناعية فيها قد اكثرت استمرار حاجتها الى الاستعمار . فلم تكن بريطانيا عندما دخلت ميدان الاستعمار تحمل آثار طبقة شبه افطامية ، كما كانت تفعل اسبانيا والبرتغال في منتصف القرن الخامس عشر ، ولم تكن امبراطوريتها الى مضامير ومرترقة يقتطعون لانفسهم الاقطاعات الواسعة في المستعمرات ، بينما يكتفى البلاط الملكي في الدولة الام بخصيب معين على شكل جزية ، ولم يكن همها مجرد اختزان الذهب والفضة ، ولكنها دخلت هذا الميدان لخدمة نظام اقتصادي يقدم على الصناعة الراسمالية الكبيرة ، وكان غرضها من المستعمرات ان تمتدع الاعداد الكبيرة من السكان المتزايدين باستمرار ، او توفر الغذاء اللازم لهم في وطنهم الام ، وكانت تسعى الى بناء قوتها كدولة عظمى ورفع مستوى معيشة أهلها ، والعمل على رخساء اقتصادياتها ورفاهية طبقة المالكين لاسهم الشركات فيها .

العالي و ١٥ ٪ من القمح واللحم والزبد والقطن والحديد والفولاذ ، وهيمن أيضا على انتاج بتروال الشرق الادنى .

وكانت تخدم تلك الامبراطورية الضخمة اكبر بحرية في العالم ، اسطول تجارى واسطول بحرى ينقل تلك الثروات الطائلة لتصب في الجزر البريطانية ، مركز الصناعة ، حيث يعيش ٨٠ ٪ من السكان في مدن . وعصاا المصانع او تجار صفا او رجال اامال كبار ، حيث تلعب الاسهم والبورصة دورا كبيرا في حياة كل مواطن ، وحيث توجد الاسواق العالمية لمنتجات العالم الزراعية ، ففيها سوق القطن العالي في لغربول ، وسوق الككاو العالي وسوق الجوت العالي ، كل شئ يصب في لندن ، ومن لندن يبدأ التوزيع . والى لندن تعود الارباح لتتحول الى عمار ومؤسسات ومدنية راسخة ، والى زيد يغنى خبر الرجل الانجليزى في الصباح وحديقة اتيقة امام منزله وسيارة خاصة . اى تحول الى مستوى معيشى رفيع . كل هذا على حساب الكولى في الشرق الاقصى ، والفلاح الهنذى الذى يكاد يتضور جوعا ، ومنهج القطن في دنيا مصوغ وعمال المناجم في غرب افريقية ! .

وهن ثم كيف الحرس الشديد على تأمين الامبراطورية وطرقها الجوية ، وكان احتلال النقط الاستراتيجية على طول شريان الحياة البريطانية ، من جبل طارق الى مالطة : قبرص - السويس - عدن - سنغافورة وطريق المحيط الاطلنطى والمحيط الهندى الى استراليا وطريق الاطلنطى وبناما الى استراليا .

وعلى ضوء هذا الحرس على تمانك الامبراطورية يمكن ان نفهم السياسة البريطانية في القرنين الاخيرين ، فالتدخل البريطانى في مصر ، والحمايات المضروبة على حواقي شبه الجزيرة العربية ، من عدن الى الكويت ، والانتداب البريطانى على فلسطين وشرقى الاردن والعراق ، كل هذا لتأمين طريق الهند الاصلى او الطريق البرى او الاضافى الى الهند ، وسياستها تجاه افغانستان وايران ايضا يمكن تفسيرها على هذا الضوء . فالشرق العربى والشرق الادنى بالنسبة لبريطانيا فقط ذات قيمة استراتيجية حتى قبل الكشف عن البترول ، وهو ايضا مادة استراتيجية زاد من اهمية هذه المنطقة .

وقد كانت انجلترا تتفوق على الدول الاوروبية الاخرى في الصناعة ، ومن ثم تحمل لواء حسرية التجارة ، وكانت ترى في الهند مستودعا لا ينفد للمواد الخام وسوقا واسعة لتجارها . فعملت على حماية حدود الهند وتأمين تخومها ، وكان هذا يعنى ضم مساحات جديدة اليها ، من جميع اطرافها ، ويعتبر القرن التاسع عشر بحق عصر التوسيع الامبراطورى البريطانى في الشرق الاقصى وفي افريقية وظهرت نظرية تفوق الجنس الانجليزى ، الذى قال عنه الفيلسوف البريطانى جوسوزيف تشمبرلين : « هذا الجنس هو اعظم جنس حاكم عرفه التاريخ » كما قال كشمير « ان ايماننا يسوس جنسنا جعلنا نفزو الهند ، واذا كان هنالك مواطن هندى واحد بلغ من التعليم والدكاء شأوا بعيدا ، وحصل على اعلى الرتب التى يمكننا منحها اياه ، فالى مؤمن - على الرغم من هذا - ياتنه لا يمكن ان يصل باى حال من الاحوال الى مستوى اى ضابط بريطانى مهما اثبت من شجاعة واقدام » .

وقد استطاعت بريطانيا ان تستائر - بحسب الكشف الجغرافى - على القارة الاستراية كلها كما واصلت تقدمها غربا في كندا ، ودخلت في منافسة مريرة مع فرنسا فى التكالب على القارة الافريقية ، ودخلت في حرب مع البوير عام ١٨٩٩ للسيطرة على جنوب افريقية واختلقت مشكلة مع مصر واحتلتها عام ١٨٨٢ .

وانتهزت فرصة هزيمة المانيا وتركيا عام ١٩١٨ وحلت من الاولى فى ممتلكاتها بشرقى افريقية ، والمحيط الهادى ، وفى الحصول على انتداب فلسطين والعراق وثبتت اقدامها في مصر .

وكانت الامبراطورية البريطانية تتكون من الممتلكات البيضاء : كندا واستراليا ونيوزيلندة وجنسوب افريقية ، ومن امبراطورية الهند ، ومن الممتلكات الاستعمارية والحمايات في افريقية وجزر الانتيل وجنوب شبه جزيرة العرب وفى الشرق الاقصى .

وكانت الامبراطورية البريطانية اعظم قوة سياسية واقتصادية في العالم عام ١٩٣٩ ، تضم ربع سكان العالم ، وهيمن على جزء كبير من الانتاج العالي : نصف الارز العالي ونصف الككاو والشاى والكتان والمطاط والقصدير والنجينز في العالم . وهيمن ايضا على ثلاثة ارباع الذهب والنيكل في العالم ، وكل الجوت العالي ، وثالث السكر والقمح والتحاس

الخارجية ، رغم اتحادهما في الولاء المشترك للتاج » .

وبذلك أصبحت كل دومينيون دولة مستقلة لها حكومتها وتمثيلها السياسي الخاص ولكنها تحتفظ بروابط أربعة مع بريطانيا :

١ - الوحدة ورمزها التاج الذي يمثل حاكم عام في كل دومينيون .

٢ - المؤتمر الإمبراطوري الذي يعقد بصفة دورية ، مرة كل عام على الأقل - من رؤساءوزارات الدومينيون ، لبحث المسائل الاقتصادية والسياسية العامة .

٣ - وجود وزير للدومينيون في لندن ومندوب سام عن كل دومينيون في لندن .

٤ - مجلس الدفاع الإمبراطوري الذي يعقد في لندن .

وقد تغير اسم الدومينيون فيما بعد إلى الكومنولث البريطاني عام ١٩٤٧ ، وأصبح هذا الاسم يحل محل الإمبراطورية البريطانية ، وخصوصا بعد استقلال الهند وباكستان - أصبح يتكون من : المملكة المتحدة (بريطانيا) وملحقاتها ، وجنوب أفريقيا ، وكندا وأستراليا ونيوزيلندا . والهند وباكستان وسيلان واتحاد الملايو وغانا ونيجيديا والاتحاد جزر الهند الغربية . وتعرض بريطانيا باستمرار عضوية الكومنولث البريطاني على كل مستعمرة سابقة لها تحصل على الاستقلال .

وقد أصبحت كل من الهند وباكستان جمهورية ترفض الولاء للتاج البريطاني ، وإن اعترفت بالتاج رأسا للكومنولث ، وبذلك ضربنا المثل لغانا وجنوب افريقية .

وترتبط دول الكومنولث بعضها ببعض الآخر مصالح اقتصادية هامة ، تحرس بريطانيا على دعمها وأصعبها التمتع بامتيازات الدولة الأكثر رعاية من ناحية الجمارك .

وقد أصيب هذا النظام بعدة ضربات متوالية ، كان من أولها رفض بورما الانضمام اليه ، وتفضيها الاستقلال التام عام ١٩٤٧ ، ورفض جمهورية أيرلندا البقاء فيه ومقاومة الوطنيين الأفريقين في وسط افريقية فكرة الاتحاد الذي يضم روديسيا الجنوبية ومحمية روديسيا الشمالية ونياسلاند توطئة لإعلان الاستقلال وعضوية الكومنولث وأعلان جمهورية جنوب افريقية وانفصالها منه .

أما افريقية فهي بالنسبة لبريطانيا ، مجال الاستغلال الاقتصادي الواسع ، والاستعمار الاستيطاني حيث يطيب المناخ وتجدد التربة « مثل جبال كينيا » ، وبقية الإمبراطورية مجال اقتصادي واسع للصناعة البريطانية ، تحصل منها على المواد الخام بأدنى الأسعار وتبيعها السلع المصنوعة ، أو مجال لاستثمار رؤوس الأموال البريطانية ، إذ لم تكن هناك دولة صناعية واحدة في الإمبراطورية كلها سوى بريطانيا وحدها .

وإن حرص بريطانيا على مستوى معيشة شعبيها الرفيع هو الذي جعلها تستجيب لرغبات الشعوب التي تحكمها وتحاول ألا تقطع ما بينها وبين الشعوب المستعمرة من علاقات ووشائج ، فابتدعت لذلك نظم الحكم الذاتي لأيرلندا ، والحكم غير المباشر لنيجيريا ونظام الدومينيون ثم الكومنولث للممتلكات البيضاء ، واعترفت بالاستقلال لبعض الشعوب إذا وجدت الأمر من ذلك . ولكنها كانت تعمل على أن ترتبط بمعاملات اقتصادية ودفامية مثل معاهدات العراق ١٩٣٠ ، ومصر ١٩٣٦ والأردن ١٩٤٦ .

ولعل أهم مظاهر الإمبراطورية البريطانية في الوقت الحاضر أنها سلمت الاستقلال للجزء الأكبر من الإمبراطورية ، حتى لم تعد هناك إمبراطورية ، وإنما طورت نظام الدومينيون إلى الكومنولث ، بل إن دول الكومنولث نفسها بدأت تسلك سلوك الدول النامية المستقلة .

وقد نشأ نظام الدومينيون Dominion البريطاني عام ١٩١٠ ، بعد أن خرجت بريطانيا منتصرة من حرب البوير ، وهي أول حروب استعمارية بين أوروبيين وأوروبيين ، بقصد إخضاعهم بقسوة السلاح . ويبدو أن ساسة بريطانيا أرادوا أن يخففوا من وطأة هذا الإذلال المبكر فاعلنوا نظام الدومينيون في الممتلكات البيضاء : جنوب افريقية (مع تجاهل تام للأغلبية السوداء المطلقة) . وكندا وأستراليا ونيوزيلندا ، حيث تعيش مجتمعات بريطانية كبيرة ، مما يذكرنا بالمستعمرات الفينيقية القديمة ، وتعرف الدومينيون بأنها « مجتمعات مستقلة استقلالاً ذاتياً ، داخل الإمبراطورية البريطانية ، متساوية في المركز ، لا تخضع أحدها للآخرى بأى شكل من الأشكال ، سواء في الأمور الداخلية أو

الهند . وقد استقلت فرنسا تلك المستعمرات كنقط انطلاق لبناء امبراطورية ثانية ، رافقت قيام الجمهورية الثانية ، واعظمها ما فقدته من هيبه ، وسار الاستعمار الفرنسى فى اتجاهين ، اتجاها افريقى وآخر اسوى ، اما الاتجاه الاول فتأخذ من الجزائر والسفغال قاعدتين له ، توغل منها نحو داخل القارة الافريقية ، والتقى الاتجاهان فى الصحراء الكبرى والنطق السودانى .

ثم كانت الامبراطورية الثانية وهزيمتها على يد بسمارك سنة ١٨٧٠ ، تلك الهزيمة التى خرجت منها فرنسا أشد جشعاً فى ميدان الاستعمار لاسترداد هيبته مرة أخرى؛ فسارت فى سياستها الاستعمارية فى الجزائر ، وحصلت منها موطناً للاستعمار الاستيطاني ، واتجهت نحو الاستعمار الاستفلاسى فى المستعمرات المدارية وحاولت من مناطق نفوذها فى المشرق العربى (الإنتداب على لبنان وسوريا عام ١٩٢٠) .

ورغم تاريخ فرنسا الطويل فى ميدان الاستعمار، فانها لم تستطع تكييف سياسة خاصة لها ، وباعت فكرة الاندماج assimilation فى كثير من الممتلكات الفرنسية بالقشل ، فقد رفضها الجزائريون ، كما رفضها الفشانيون ، وهى نفسها لم تفعل شيئاً ببرر تلك السياسة، ففى لم تنشئ فى المستعمرات سوى مدارس ابتدائية ، ولم تشيد اقتصاداً قوياً فى المستعمرات ، ولم تحاول أن تتقرب من المجتمعات الوطنية ، واصبح فى كل مستعمرة فرنسية مجتمعان ، مجتمع فرنسى ومجتمع وطنى ، وأنشأت فى كل مستعمرة نظاماً خاصاً يعامل به الوطنيون أو الاصليون indigènes تميزاً لهم عن القانون الذى يطبق على الفرنسيين والاوروبيين ، بل ولا تقرب أو اندماج بين كل من المجتمعين . بل انها استخضمت سلطتها فى المستعمرات بجبر الوطنيين فى العمل الاجبارى travail forcé فى مزارع الدولة أو الشركات الاستقلالية .

ولم يكن لدى فرنسا ما تبرر به إنشاء مستعمرات استيطانية ودعوة مهاجرين فرنسيين للاقامة بها ، فسكان فرنسا لم يزدادوا زيادة كبيرة منذ القرن الثامن عشر ، ثم تباطأت هذه الزيادة فى القرن التاسع عشر .

ففى عام ١٨٦١ كان عدد سكان فرنسا ٣٧٤٠٠٠٠٠ نسمة .

ولقد كان الدمنيون البريطاني اهم مورد المواد الخام للدولة الام ، فهناك امبراطورية الخشب والقمح فى كندا ، والصوف فى استراليا .. الخ . واهم سوق للسلع البريطانية واكبر مجال لاستثمار ودوس الاموال ، وخزان كبير للقوى البشرية تجند منه الفياق والفرق وترج بها فى اتون المعارك خلال الحربين الماضيتين . ولقد وصلت تجار بريطانيا مع دول الدومنيون عام ١٩٢٠ الى ٦٠ ٪ من قيمة تجارتها الخارجية ثم هبطت الى ٤٨ ٪ عام ١٩٥٣ اذ ازدادت كندا ارتباطاً بالولايات المتحدة ، وبدأت تقوم بها صناعات متعددة تستغنى بها عن السلع البريطانية .

الا أن دول الكومنولث لا تزال ترتبط برابطة الجنيه الاسترلى ، التى تمنع لعضائها تسهيلات اقتصادية معينة ، وسياسة التفضيل الجمركى وتميزها تمييزاً خاصاً فى المعاملة الجمركية ، وهى جميعاً ذات سياسات نقدية مشتركة ، وتربط عملاتها بعمر خاص ثابت مع الجنيه الاسترلى .

أما فرنسا فلقد كانت لها ثلث امبراطورية من حيث المساحة وعدد السكان عام ١٩٣٩ غسر أن فرنسا ، بحكم موقعها الجغرافى ، دولة بحرية تطل على ثلاثة بحار ، ودولة قارية تحيط بها حوضاً ديرية لست دول ، ولذلك فقد كانت طموحة لا تلبى بين أوروبا من ناحية وبين مغامرات ما وراء البحار من ناحية أخرى، فلم تعرف فى سياستها الاستعمارية الاستمرار التاريخى أو وضوح الهدف أو وحدة الفكرة ، وهجرت من تطوير نظمها الاستعمارية بحيث تتلاءم مع التطور الفكرى والنمو القومى للمستعمرات ، ومن ثم كانت تنسلخ منها مستعمراتها ابتلاخاً عنيفاً نتيجة حرب دامية كما حدث فى الصين الهندية أو فى الجزائر .

وقامت اول امبراطورية فرنسية فى القسرون الخامس عشر ، وشملت كندا وبعض جزر البحر الكاريبى ووادى نهر الميسيسى ، ولكنهما تأثرت بحروب لويس الخامس عشر والحروب الانجليزية الفرنسية فى عهد نابليون ، وانتهت تلك الامبراطورية بالتفرق تماماً عام ١٨١٧ .

غير أن معاهدة فينا التى ختمت عصر الامبراطورية الاول فى فرنسا، قد تركت لفرنسا بعض المستعمرات قليلة الشأن مثل جزر المارتنيك وجواوولوب وغيانا فى العالم الجديد وريونيون ونقط خمس على سواحل

وفي عام ١٩٥٥ أصبح عدد سكان فرنسا ٤٢٠١٦٠٠٠ نسمة .

أي أن سكان فرنسا ازدادوا بنسبة ١٦ ٪ في نحو قرن من الزمان (٩٤ سنة) !

ولقد كان هذا البطء الشديد في زيادة السكان عاملا معرقلا لنموها الاستعماري، لاسيما إذا تذكرنا أنها دخلت ثلاثة حروب كبرى خلال قرن واحد ، ما بين ١٨٧٠ - ١٩٤٥ ، ولذلك كانت فرنسا تلجأ إلى المستعمرات لتجند القوى اللازمة لوقود الحرب .

بعد الحرب العالمية الثانية ، أرادت فرنسا أن تطور نظام امبراطوريتها الاستعمارية ، فطلعت إلى اجتماع برازافيل (في الكونغو الفرنسي) عام ١٩٤٦ لبحث العلاقة بين فرنسا والممتلكات المحكومة . ولكن قرارات هذا المؤتمر ، التي صيغت بلغة جميلة لم تفعل أكثر من إعلان أبوة الحكومة الفرنسية paternalism ولم يتحدث من دول المستعمرات ،

بل من شعوبها ولم يعترف بالمساواة بين الفرنسيين والحكومين ، فالإتحاد الفرنسي الذي حل محل الإمبراطورية الفرنسية أنشئ لكي يساعد الممتلكات الفرنسية على أن تتطور تطورا ديمقراطيا ، بينما يظل مرتبطا بروابط المصالح المشتركة . وقد تأسس هذا الإتحاد مع تأسيس الجمهورية الرابعة عام ١٩٤٦ وللإتحاد رئيس هو رئيس الجمهورية الفرنسية . ومجلس أعلى يتكون من ممثلي الحكومة الفرنسية وممثلي الدول المنضمة للإتحاد ، ومجلس يضم ممثلي الإتحاد جميعا . غير أن هذا المجلس لا سلطة له فهو مجرد مجلس استشاري للحكومة الفرنسية والحكومات الاستعمارية . وتحاول فرنسا بهذا الإتحاد أن تجمع شمل المستعمرات في وحدة اجتماعية وحضارية وسياسية ، على أن تكون لها القيادة لا ينازعها فيه منازع . ويضم الإتحاد الآن جزر مارتنيك وجوا ولوب وبوتيون وجيسانا وغرب أفريقيا الفرنسية (سابقا) وشرق أفريقية الفرنسية (سابقا) وملاجاشي .

كما أنشأت فرنسا علاقات خاصة مع مستعمراتها ومحيطاتها السابقة في الجزائر والمغرب وتونس وقد ابتدعت فرنسا تعبيرا مستخدما يدل على الصلاقة التي تحتفظ بها والتي تربطها ومستعمراتها السابقة وهو تبادل المنفعة ، غير أن هذا التعبير لم يمنع غيانا الأفريقية من أن تصوت ضد البقاء في الإتحاد

الفرنسي وتفضل الاستقلال التام عندما قدم دي جول استفتاءه المشهور للمستعمرات عام ١٩٥٨ ، كما أن الجزائر قد حصلت على استقلالها بعد ثورة دامية وهي مصممة على ألا ترتبط بفرنسا بأكثر مما ترتبط بغيرها من دول العالم .

روسيا :

ويعتبر امتداد روسيا وتوسعها في وسط آسيا من الحركات الاستعمارية الكبيرة التي تمت في القرن التاسع عشر ، فلقد كانت دوقية موسكو تتبع خلف نطاق القسسايات الصسنوبورية في النصف الشمالي مما سمي روسيا فيما بعد ، عندما كانت جحافل التتار والترك تحتجح شرقى أوروبا ، وكان فرسان جنجوزخان يشقون طريقهم في القرن الثالث عشر من مراعى وسط آسيا حتى مراعى جنوبى روسيا إلى أن وصلت إلى لبيزج ولريست .

غير أن صولة المغول والتتار ما لبثت أن خمدت ، فاحسر المد التتارى ، واستطاع دوقات موسكو أن يزحزحوا تلك العناصر التركية ويعيدوا فتح روسيا . ولم يبق الأمر عند هذا الحد ، فقد استخدم قيصرية اروس فرسان القوزاق للتوسع نحو الشرق فوصلوا إلى بحر قزوين في القرن السادس عشر ، وفي أواخر سيبيريا في القرن التاسع عشر ، حتى انتهى بهم السير إلى المحيط الهادى .

لم استمر التوسع الروسى شمالا بشرق حتى الاسكا في أمريكا الشمالية ، ونحو الجنوب إلى تركستان حتى جبال وسط آسيا ، ولكن روسيا تنازلت أو باعت الاسكا لولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر . وعملت على تثبيت مركزها في وسط آسيا .

وكانت نصف مساحة آسيا ملكا لروسيا عام ١٩١٧ ، كما كانت روسيا تعمل على (ترويس) هذه المساحات الشاسعة التي ضمتها إليها ، فهاجر ثمانية ملايين روسي إلى سيبيريا وعشرة ملايين إلى منطقة القوقاز وخمسة ملايين إلى تركستان ، وتركزت الحياة الاستعمارية حول خط حديد سيبيريا ، وأمدت تركستان صناعة المنسوجات الروسية بنحو ٨٠ ٪ من احتياجاتها التقنية . وكان حكم روسيا إداريا تصفيا قويا يكثير من انتفاضات الاحتجاج والمقاومة في اقوقاز وتركستان وأذربيجان .

وقد منح الدستور السوفيتي لكثير من القوميات حق الاستقلال الذاتي وتكوين جمهوريات داخل الاتحاد السوفيتي .

وقد أعلنت الثورة البلشفية في روسيا أن عداها منصب على حكومة قيصر التي استبعدت كل الشعوب المحكومة سواء في ذلك من كان روسيا أو تركمانيا أو أرمينيا . وأنها تدعو جميع العمال والجنود في دولة قيصر السابقة للاتحاد . وقد أعطى الدستور السوفيتي لكل قومية الحق في تكون جمهورية مستقلة ، تدخل في اتحاد حر مع غيرها من جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، ولم تعد روسيا سوى جمهورية روسية سوفيتية اتحادية اشتراكية ، شريكة في الاتحاد السوفيتي الكبير الذي يضم أيضا جمهوريات روسيا البيضاء وأوكرانيا (في أوروبا) وجمهوريات جورجيا وأرمينيا وأذربيجان (في القوقاز) وجمهوريات التركمان والأوزبك والتاجيك والقزاق في وسط آسيا وسيبيريا) . وقد ضمت إليها بعد الحرب العالمية الثانية جمهوريات إستونيا ولاتفيا ولتوانيا .

وبذلك قدم السوفيت حلا جديدا لمشكلة المستعمرات ، إذ منحت حق الحكم الذاتي في تكوين الجمهورية المستقلة ، ودعيت للدخول في اتحاد حر على قدم المساواة مع القوميات الأخرى . غير أن روسيا تمثل ٩٠٪ من مساحة الاتحاد السوفيتي كله ، وتؤلف ٨٠٪ من مجموع سكانه . كما أن اللغة الروسية هي اللغة التي يجب أن يتحدث بها كل سكان الاتحاد إلى جانب لغاتهم الأصلية ويجتمع ممثلو القوميات في مجلس خاص ، ولكنه ليس أعلى من مجلس السوفييت الأعلى الذي ينتخب بنسبة عدد السكان .

الولايات المتحدة :

وكان يقابل التوسع الروسي نحو الشرق في القارة الآسيوية ، توسع أمريكي نحو الغرب في القارة الأمريكية حتى وصلت إلى سواحل المحيط الهادي هي الأخرى ، واشترت الولايات المتحدة الأمريكية الإسكان من روسيا عام ١٨٦٧ . وفي نهاية القرن التاسع عشر دخلت الولايات المتحدة في مضمار التوسع الإمبراطوري ، تحت الرئيسين مارك كنلي وتيودور روزفلت ، فضمت هواي سنة ١٨٩٨ ،

ودخلت مع إسبانيا المنهارة حريا سريعة حاسمة ضمت أترها بورتو ريكو (في البحر الكاريبي) وجزر الفلبين (في المحيط الهادي) عام ١٨٩٩ . وأعلنت ميذا مونرو الذي أفلقت فيه نصف الكرة الغربي في وجه المنافسات الاستعمارية الأوروبية ، وقالت فيه أن كلمة الولايات المتحدة في أمريكا هي القانون . ورغم أن فراكلين روزفلت قد أعطى الحرية لكوبا والحكم الذاتي للفلبين ، فإن وضع أمريكا اللاتينية كلها بالنسبة للولايات المتحدة لا يختلف كثيرا عن وضع المستعمرات ، فهي جميعا حقول استغلال لرؤوس الأموال الأمريكية وإمبراطورية اقتصادية واسعة .

انهيار الاستعمار :

لقد أحدث الاستعمار الحديث ثورة في المجتمعات الأصلية التي اتصل بها ، في آسيا وأفريقية . ثورة بطيئة ، هادئة غير محسوس بها ، ولكنها عميقة الأثر . ففي آسيا وأفريقية تقابلت أنماط تقليدية من المجتمعات لم تكن تعرف التكنولوجيا أو العلم الحديث أو التنظيم الحديث للدولة أمام دول حديثة ذات قوة وسلطة وتنظيم سياسي واقتصادي متقدم ، واستطاعت القوى الأوروبية أن تحفظ الأمن الداخلي وتقي على أنواع القبلى في المناطق التي احتلتها ، كما أنها واجهتها بنظام اقتصادية جديدة ، تمثل في المزارع الواسعة التي تستخدم فيها التكنولوجيا الحديثة ، وأن تقضى على كثير من الأمراض المتوطنة ، ولكنها في مقابل هذا سلبت القوميات الأفريقية والآسيوية كياناتها وحضمتها ووضعتها في موضع التابع والمسود .

ومن ثم بدأ الصراع الطويل بين القوميات الأفريقية والآسيوية وبين السلطان الاستعماري الحديث ، وأن كانت القوى الاستعمارية قد تحدثت الزعميات التقليدية المحلية ، فلقد بدأ ظهور طبقات جديدة متطورة ، تعلمت العلم الأوروبي وتسلحت بأجهزة التكنولوجيا وأخلت بأساليب مناوئته السياسية وبدأت تطالب نفسها بالحرية وبنصيب من رفاهية الأوروبي المادية .

وكانت اليابان أول دولة آسيوية تأخذ بأسباب العلم الأوروبي وأفانين التكنولوجيا الحديثة عام ١٨٦٧ ، واستعملت تلك العلوم والفنون كسلاح تقوى به نفسها لكي تكون على قدم المساواة مع

أوروبا (وأمريكا) . وكان لهزيمة الروس على يد اليابان عام ١٩٠٥ دنة أسى في أوروبا وقرح في الدول الأفريقية والآسيوية ، خذها حافظ أبراهيم في قصيدته المشهورة على لسان اليابانية . وتلا ذلك ثورة الصين ١٩١١ والثورة المصرية ١٩١٩ وثورة تركيا سنة ١٩٢٢ وثورات الهند المتعاقبة .

وقد ساعد تلك الحركات التحررية ما تملكه تلك الشعوب من أيديولوجيات أصيلة مثل الإسلام في العالم الإسلامي ، والهندوكية في الهند ، والشتوية في اليابان ، وانبثاق القوميات الأفريقية الآسيوية ، مثل القومية العربية التي تمتد عبر أفريقيا وجنوبي غرب آسيا من المحيط الاطلنطي حتى الخليج العربي . والقومية الصينية في الصين .

يضاف الى هذا ما تعرض له النظام الاستعماري الرأسمالي نفسه من هزات عنيفة اثر حربين عالميتين كبيرتين ، لم تفصل بينهما الا فترة هدنة مؤقتة . فقد كانت الحرب العالمية الاولى من ١٩١٤ - ١٩١٨ اول حرب كبيرة ، يشترك فيها الأوروبيون ، يقتل بعضهم بعضا ، بل لقد جندت فرنسا وبريطانيا من الشعوب الحكومة (مثل السنغاليين والهنود) من تستخدم لقتال الأوروبيين آخرين ، فبدأت هيبة أوروبا في الانهيار الى الخراب الأفريقيين والآسيويين .

وكانت الحرب العالمية الثانية من ١٩٣٩-١٩٤٥ أشد ضراوة من الحرب الاولى ، جند فيها نحو ٩٣ مليون مقاتل ، فقد منهم نحو ٤٠ مليون وشملت تلك الحرب القارات الخمس وانهكت بلا شك القوى الاستعمارية كلها ، وفقدت بريطانيا استثماراتها في أمريكا اللاتينية ، وفقدت فرنسا هيبتها بعد اذلال النازي لباريس ، وفقدت الآله الأبيض (الرجل الأوروبي) كل هيبة في جنوبي شرق آسيا ، حيث تعمد اليابانيون اللن احتلوا اندونيسيا اذلال الاسرى الأوروبيين امام أهمل اندونيسيا . ومن ثم لم يعد الرجل الأوروبي الها صغيرا يستطيع ان يفعل ما يشاء ، بل هو بشر ، ومن الممكن أن يكون بشرا عاجزا ايضا .

ولا شك أن كثيرا من الأيديولوجيات الأوروبية قد تسربت الى المستعمرات ، مثل البرابلية الأوروبية ، وبداية الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والاخاء ، والملازمية .

كل هذه العوامل قد أدت الى انهيار الاستعمار الحديث ، والى قيام الحركات التحررية في آسيا وأفريقية . ولا شك أن الشعوب تتعلم ايضا بالمشاهدة والتجربة ، فحركات التحرر ذات مقدرة فائقة على الانتشار . لا سيما في عهد تحطمت فيه المسافات وأصبح في مقدور أي إنسان يملك جهازا صغيرا أن يستمع صباح مساء الى انباء ما يحدث في العالم كله .

الاستعمار والصهيونية :

في الوقت الذي كنت الأمة العربية تحارب فيه النفوذ التركي العثماني ، كانت بريطانيا تضع اليهود حق تكوين وطن يهودي في فلسطين ، وذلك في تصريح بلفور المشهور .

وبذلك تمكنت الصهيونية العالية ، وهي حركة استعمارية خبيثة ، من أن تطأ بأقدامها ارض فلسطين ، بعد أن وقف سلاطين آل عثمان طويلا دونه . ففي ظل الانتداب البريطاني على فلسطين، تدفقت موجات المهاجرين اليهود من كل مكان في أوروبا نحو فلسطين ، فارتفعت نسبهم من نحو ١٠ ٪ من سكان فلسطين سنة ١٩٢٠ الى نحو ٣٠ ٪ في تلكان البلاد سنة ١٩٤٧ .

لقد استطاعت الصهيونية العالية أن تقنع بريطانيا بانها حليف طبيعي لها في الوطن العربي . فهي ليست من أهلها ، ولا يمتها أمانته القومية ، وهي تحرس لبريطانيا الضفة الشرقية من قناة السويس ، وفوق ذلك فهي تشترط الوطن العربي الآسيوي عن الوطن العربي الأفريقي، وفلسطين تطل على مشرق البحر المتوسط ، ومن الممكن انشاء الطرق بين موانئ البحر المتوسط والخليج العربي ، وبذلك يصبح الطريق الاضائي لبريطانيا نحو الهند مأمونا .

وقد لعبت فلسطين فعلا هذا الدور اثناء الحرب العالمية الثانية ، اذ كانت جيوش بريطانيا وحليفاتها تنتقل بسهولة من الهند فالخليج العربي فالرافدين الى « امانة » شرقي الاردن فموانئ فلسطين على البحر المتوسط . كما أن بريطانيا استطاعت سحق ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق من قواعدها في شرقي الاردن .

واذا كانت الصهيونية العالمية تزعم لبريطانيا انها حينها الساهرة في مشرق الوطن العربي . فانها

كانت في الحقيقة ترمى الى استغلال رموس الاموال الاجنبية في المشرق العربي . وكان في تقدير اليهود الصهيونيين ، انهم سيكونون العقول المفكرة والأيدي الماهرة وسط محيط من البدو والفلاحين . وان فلسطين المحتلة ستكون المصنع والتاجر الكبيرين لملايين المستهلكين المتخلفين اجتماعيا واقتصاديا . وبذلك تحتكر قلة او نخبة من المستعمرين الاوروبيين الصناعة والتجارة في المشرق العربي بل والشرق الاوسط كله .

فاليهود اذن كانوا يرمون الى استعمار استيطاني واستعمار استغلالي في الوقت نفسه ، يتوطنون جزءا من فلسطين ويستغلون المشرق المصري والشرق الاوسط كله .

ومن ثم كان احكام المقاطعة الاقتصادية طمس فلسطين المحتلة عملا فعلا في سبيل هزيمة الفرض الاقتصادي للاستعمار الصهيوني ، واكثر من ذلك نهضة الشعوب العربية العلمية والاجتماعية والاقتصادية هي الفرية الفاضية على آمال الصهيونيين في السيطرة اقتصاديا على المشرق العربي وجنوبي غرب آسيا وافريقية .

الاستعمار الحديث :

ولكن هل معنى هذا ان يباس الاستعماري ويلقى السلاح تماما ؟ لقد قام الاستعمار ببطء شديد هزائم متوالية - بحركة التفاف جديدة ، فاصبح يقدم الاستقلال بيد ، والاعلال بيد اخرى ، واصبح والناس يرونه خارجا في احتفالات مظهرية ، ولكنه يتسلل من ابواب خلفية مرة اخرى . واصبحت شعوب آسيا وافريقية مهددة بما يعرف بالاستعمار الحديث .

يتمثل هذا الاستعمار الحديث في سياسة المساعدات الاقتصادية المشروطة التي تقدمها الولايات المتحدة للدول النامية ، والمساعدات المتعددة التي تقدمها بريطانيا للدول الكومنولث او البلاد الصديقة وفي نظام تبادل العون Interdependence الذي تقدمه فرنسا لمستعمراتها السابقة . كما يتمثل ايضا في سياسة الاحلاف ومحاولة كل من القوتين الكبيرتين في العالم - الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة - جمع الانصار والدول التي تدور في فلكها .

وانه لجهود كبير ان تحاول دولة ناشئة لم تكسب تحصل على استقلالها الا حديثا ان تتخلص من هذا

الاخطبوط الحديث ، ولا سيما اذا تذكرنا ان الاستعمار ترك معظمها مجهدا منهوك القوى ، في حالة كبيرة من العجز الاقتصادي ، بل لقد ترك لمعظمها نظاما اقتصاديا تافعا ، فهي - في معظمها - من الاقطار المنتجة للمواد الخام ، والدول الاوروبية هي التي تشتري تلك المواد وتصنعها ، ثم تصود فتبيع السلع المصنوعة لهذه الاقطار مرة اخرى .

والدول الاستعمارية السابقة في موقف احتكاري بالنسبة لسوق شراء المواد الخام ، ومن لم فقد عملت على خفض اسعار هذه المواد باستمرار ، بينما ارتفعت باسعار السلع المصنوعة باستمرار ايضا ، ومن ثم كانت الدول الاستعمارية السابقة تزدد ثراء ، بينما تزدد الدول النامية المنتجة للمواد الخام فقرا ، يوما بعد يوم .

غير ان هناك امثلة رائعة عديدة امام تلك الدول الحديثة العهد بالاستقلال ، توضح ان الإرادة القوية كمية بان تقف امام الاستعمار الحديث واخطاره ، مثل تأميم قناة السويس ، وتمصير الشركات والممتلكات الاجنبية في مصر ، ومواقف عدم الانحياز والحيد الايجابي في الهند ومصر ويوغوسلافيا ، وجهاد الجزائر الرائع وموقف غينيا الصغرى البطولي امام ديغول . ومجابهة الصين الشعبية لمشاكلها الوعيفة .

ويبدو في الافق الدولي من حين الى آخر بوادر تشر بمستقبل رائع للدول حديثة العهد بالاستقلال ، مثل مقررات مؤتمر بالندونج ومؤتمر القمة الافريقي . اذا هي حققت الوحدة الوطنية داخل حدودها ، وتكتلت في وحدات قومية كبيرة ، وحددت اهدافها واتحدت في سبيل تحقيقها .

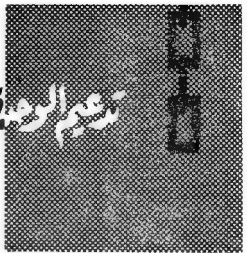
بعض المراجع الهامة

- الدكتورة دولت صادق والدكتور محمد السيد غلاب ، والدكتور جمال الدين الدناصوري : **الجغرافيا السياسية - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦١**
Goldberg, H., French Colonization : Progress & Poverty, New York 1959.
Easton, S.U., The Twilight of European Colonization, a political analysis, Methuen, London 1961.
Mulenzi, J. L'internationalisation du phénomène Colonial, Bruxelles, 1958.
Dechamps, H. La Fin des Empires Coloniaux, Paris 1959.
Georges, H. Géographie et Colonization Paris s.d.
Church, H. Modern Colonization, Hutchinson 1959.
ترجمة الدكتورة دولت صادق : **الاستعمار الحديث**

تعميم الوحدة اللغوية في الوطن العربي

بقلم:

الدكتور محمود السعران



وبأته لأول مرة وهو يناقش رسالته للمجستير أمام لجنة مكونة من الروحيين عبد الحميد العبادي ، وإبراهيم مصطفى ، والأستاذ محمد خلف الله أحمد - مد الله في عمره ونفعنا بعلمه .

وكانت أول رسالة تناقش في جامعة الإسكندرية ، وكانت أول رسالة جامعية أحضر مناقشتها . وعرفته بعد ذلك من قريب كصديق وكاستاذ ، وجمعتنا جلسات عديدة ، وقام بمراجعة ترجمتي لسيرة « الحظيبي » لكسيم جوركي ، وأكد القول انه اشترك معي في ترجمتها ، واشتركتا معا وبعض الزملاء في إنشاء رابطة لدراسات الآداب عام ١٩٥٢ ، ومع ذلك فقد ظلت صورته الواضحة في ذهني هي صورة طالب العلم الجاد المخلص ، بل لعل صلابته العديدة به لم تزد هذه الصورة الا وضوحا وتأكيدا . فلم اره الا باحثا في احدى المشاكل مشغولا باستجلاء كل ما يعيب بها حتى يهدي الى حقيقتها والتناول السليمة لها . يصنع ذلك باخلاص شديد وحساسية لا تقدر ، وفي نواحيه أصيل لا يشوبه استغلال أو انخداع .

ومنته اتصلت أسبابي بهذه المجلة ، وأنا أحاول ان أقدمه بالكتابة لها ، فلم يستجب الا منذ شعور قليلة ، وأرسل هذا الكفال الذي نشره باعتزاز شديد وإلى أشد ، فقد كان آخر مقال كتبته الدكتور محمود السعران طالب العلم الجاد المخلص . رحمه الله وعوفنا فيه - وإن عز الوفاء .

فؤاد دواره

١٩٥٢

ان لغتنا العربية الفصحى ، التي تجمع بين قلوبنا ومقولنا نحن العرب ، والتي تعد دعامة من الدعائم الأساسية للوحدة العربية السياسية الكبرى المرحوة ، ذات تاريخ طويل محيد يرجع الى العصر الجاهلي . وهي بهذا من أطول اللغات الموحدة عمرا ، إنها لتحمل طيناتها من بدور النشاط والحيوية والفعالية ما يكفل لها الاستمرار والازدهار .

وعلىنا نحن أصحاب العربية أن نوفر لمعامل التوحد اللغوي خير الظروف المواتية تدعيما له وتمكيننا ، وأن ننسب الى العوامل التي من شأنها أن لعوق نماء هذا التوحد وإطراده فنعلم على كسر حدتها أو التخلص منها ، فثمة مظاهر لغوية تتأني لأصحاب اللغة ، بالوعي والتوعية ، أن يتحكموا في تطويرها بالعمل المنظم الدائب جيلا بعد جيل .

ولكن ذلك يقتضي النظر في تاريخ لغتنا الطويل ، وإدراك مراحل نموها ، والدراسة بخصائصها على وجه سليم نظرا غير متفصل بالضرورة عن الأحوال الاجتماعية لأصحاب العربية .

ظهرت اللغة العربية الفصحى « لغة عامة » مشتركة في العصر الجاهلي ، فصارت لغة الشعر والخطابة والأمثال والحكم والرسائل القصار ، صارت اللغة الواحدة التي يشئ بها القائلون أيا كانت ديارهم : في نجد أو الحجاز ، أو البحرين الخ ولغة المانور من الشعر الجاهلي على تبأين مواطن شعرائه ترمي أساليب معينة ، وتتبع نظاما من التركيب مشتركة ، ولا يظهر في هذه اللغة من آثار المحلية الا سمات قليلة لا تخاو من أمثالها أي لغة عامة ، وذلك كاستعمال « ذو » بمعنى الذي في بعض اشعار قبيلة طيء ، وأثار آخر عنى بجمعها اللغويون والنحويون .

وقد عملت على توحيد العربية في العصر الجاهلي عوامل كثيرة استغرقت أزمانا لا نعلم مداها على وجه اليقين . وعوامل توحيد أي لغة كبرى ترتد الى ازدياد الاتصال والاختلاط بين المتكلمين المتبأين الذين يقدر لهم أن يصطنعوا لغة موحدة .

من الخطأ أن نظن إلا خلاف في الفصح بين
أقطار الوطن العربي ، بل إن الخطأ أن نرى عن هذا أو
أن نكتمه ، وهما منا أن التصريح به يهون من شأن
الوحدة القومية ، لا بل أنا لنرى أن التصريح بهذا
ومدرسته واجب قومي ضروري لتدعيم الوحدة
اللغوية القائمة .

ونحن لا نزع من نوع الخلاف ودرجته بين
الفصح هنا والفصح هناك كتوع الخلاف ودرجته
بين العامية هنا والعامية هناك ، ولكننا نرى أن مظاهر
الخلاف القائمة فعلا ، والمحتملة مستقبلا ، سيثاني
تجنب الكثير منها بعد الدراسة والتوعية والاتفاق .
ونشر الآن في بيان أهم عوامل هذا الاختلاف
ومظاهره ، وبعضه يتعلق بالنطق ، وبعضه يتعلق
بالمفردات والتعابير .

١ - وربما كان الاختلاف في نطق بعض الأصوات
والاختلاف في تحقيق بعض الخصائص الصوتية
الأخرى المتعلقة بالكلمة والكلام المتصل من أصعب
الأمر حلا ، لأن ذلك راجع في أغلب الأحوال إلى
نطقنا للهجات المحلية ، هذا النطق الذي ترشعه مع
لبن أمهاتنا ، وكثيرا ما يستدعي تغييره طولدربة ،
وشدة عناية .

ومن الأصوات التي يختلف نطقها على السنة
العرب ، الضاد والميم . وهذا الخلاف قديم سجله
صيبويه في كتابه - فنطق الضاد في مصر غير نطقه
في العراق وليبيا ، غير نطقه في اليمن مثلا - فهو
في مصر دال مطبقة ، وهو في العراق وليبيا أشبه
بنطقنا نحن للظاء ، ومن ثم يشتبه نطق الضاد والظاء
في كلام العراقيين والكويتيين والليبيين وسواهم ،
وينطبق أثر هذا في الكتابة - وقد لاحظت أن كثيرا
من الطلبة الليبيين والعراقيين والكويتيين ، وسواهم ،
يخطئون في هجاء الكلمات التي تشتمل على ضاد أو
ظاء فيحولون الحرف الدال على هذا محل الحرف
الدال على ذاك ، وهكذا . يريد الواحد منهم أن
يكتب « ضل سواء السبيل » مثلا فيكتبها « ظل
سواء السبيل » ، أو « فرع إلى ربه » فيكتبها
« ظرع إلى ربه » ، أو « أظلمت السماء » فيكتبها
« أظلمت السماء » أو ظلام ، فيكتبها « ضلام »
وهكذا .

وقد اتبه علماء العربية من قديم إلى هذا الوجه
من وجوه الخطأ ، ووضعوا تصانيف كثيرة في الفرق

ومظاهر هذا الاتصال والاختلاط تختلف من بيئة إلى
بيئة ، ومن زمان إلى زمان ، وإن كان منها ما يعمل
في كل زمان ومكان . فما أهم مظاهر الاتصال
والاختلاط في البيئة العربية الجاهلية التي أدت إلى
ظهور العربية الموحدة ؟

أهم هذه المظاهر : رحلات التجارة وما كانت
تستدعيه من التعامل والتفاهم بين رجال القبائل
المختلفة . ورحلات البحث من المرمي وما تستدعيه
من احتكاك واتصال . والحروب الكثيرة بين القبائل
المختلفة وما كان يصحبها من أسر ، وسبي ، ووفود
للصلح ، ودعوة للسلام ، وفرض أصحاب لهجة
السيطرة على أصحاب لهجة أخرى . وكان لاجتماع
العرب مختلفي اللهجات في موسم الحج في مكة ،
وفي سائر المواسم الدينية شأن كبير في العمل
على التقريب بين لهجاتهم المختلفة . ولا ننسى أثر
المواسم الأدبية التي كانت تعقد من وقت إلى آخر ،
ولا أثر رواية الأدب المحلي الذين كانوا ينشرونه
بالسنتهم من موطن إلى موطن ، فيضطرون في بعض
الوطن إلى تغيير شيء من مفرداتهم ، أو أساليبهم ،
أو طريقة نطقهم ليفهمهم السامعون . وكان لمكة دون
سائر المدن العربية الزها في توحيد العربية فهي
مجتمع الحجاج ، مما رفع شأن قرش فيفتحنا بين
القبائل ، وزاد ذلك ما كان لقرش من نفوذ في
تجارة القوافل .

هذه العوامل وسواها أحدثت آثارها فكانت
اللغة العربية الموحدة . وكان للأدب الجاهل شأن
عظيم في استفاضة هذه اللغة ، فالأدب الجاهلي من
وجه ثمرة من ثمار هذا التوحيد اللغوي ، وهو من
وجه آخر ، وعلى تواليه يتوالى السنين ، قد دهم
هذه اللغة ، وعمق من شأنها في نفوس العرب
وأدناها إلى قلوبهم .

ثم كان الإسلام وانتشاره ، وانتشار العربية معه
فالتسعت رقعة الوطن العربي ، وكانت لغة القرآن
- ولا تزال - من أهم عوامل الربط والتوحيد بين
أرجاء هذا الوطن الفسيح . ومع الفصحى المشتركة
الواحدة الموحدة حمل العرب إلى الأقطار المفتوحة
لهجاتهم المحلية المتباينة ، وقد تسربت بعض خصائص
هذه اللهجات إلى الكلام الفصحى في هذا القطر أو
ذاك ، على السنة المتكلمين من أهل البلاد المفتوحة ،
كما سنرى فيما يقبل من كلام .

بين الضاد والظاء جمعوا فيها أكثر الكلمات التي يقع فيها الاستنباط تعليميا للنشأة وتنبهها . ومن ذلك ما كتبه ابن قتيبة ، وما لخصه السيوطي في كتابه « المزهَر في علوم اللغة » وهو كتاب كثير التداول .

وربما كان المجال أمامنا لتصحيح مثل هذا الخطأ الفصح من مجال تصحيحه أمام الأقدمين . فنحن في عصر التعليم العام الذي يسهل معه زيادة العناية بكتابة أكبر عدد من الكاتبيين في مراحل التعليم الأولى . نقول « بكتابتهم » فربما كان علاج أخطاء الأقلام أيسر من علاج ما تجرى به الألسنة . ولا بأس من البدء ، في أمثال هذه الأقطار ، في تمهيد التلاميذ استنباط نقطهم للظاء ، وتعليمهم نطق الضاد نطقا مخالفا متميزا ، وليكن ذلك الذي يجري على السنة المصريين وغيرهم من العرب .

والجيم هي الأخرى تنطق من قديم على وجوه مختلفة ، وليس هذا مجال احصائها أو وصفها الوصف الصوتي الدقيق . وبكفي أن نشير إلى نطق السوريين لها ، وهو أشبه بنطق الفرنسيين للصوت الأول في كلمة *jeardin* ، وإلى النطق الفصح الذي يوصى به علماء مصر ، والذي يشبه شيئا ما نطق له ، والنطق في القاهرة والذي يشبه الصوت الأول في الكلمة الإنجليزية « *gate* » هذا النطق الذي أخذ من زمن يتسرب من بعض النطق العام إلى نطق أكثر المتعلمين والمتقنين المصريين ، حتى أننا نستطيع أن نرى في النطق الجديد ميلا غالبا ، وفوق جافا .

٢ - وأمثلة الخلاف في المفردات والتعابير تنضج بأجل صورة وأيسرها لو طالعنا مجموعة من الصحف اليومية التي تصدر في عواصم البلاد العربية : في الرباط ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس وبنى غازي ، والقاهرة ، والخرطوم ، ودمشق ، وبيروت ، وعمان ، وبغداد ، والكويت ، والرياض ، وصنعاء . الخ . سيري من يطالع صحف قطر غير قطره أنه يواجه مجموعة جديدة من المفردات والتعابير لأول مرة ، منها ما قد يدرك مضاه من السياق ، ومنها ما يعرفه على وجه الحس والتخمين ، ومنها ما يفض عليه ، ومنها ما يتردد أمامه على وجه آخر . ومن ذلك المفردات الخاصة بالتنظيمات القضائية ، والإدارية ، والسياسية والاقتصادية ، وفي لغة الآداب والفنون والعلوم . ونحن نذكر جميعا أنه عندما تمت الوحدة بين مصر

وسورية سنة ١٩٥٨ ، واستندى الأمران تكون نظم الجمهورية وتشريعاتها واحدة ، لزم تغيير كثير من المفردات .

ومن ذلك أننا وحدنا أسماء الرتب العسكرية ورتب « الشرطة » ، وأخذنا في ذلك بما كان سائدا في سوريا .

وفي مجال التعليم أحلنا كلمة « الصف » وهي سائدة في سورية والعراق ، محل « السنة » الدراسية .

ولكن لا تزال مئات ومئات من المفردات تستعمل هنا ويستعمل غيرها هناك ، أو تستعمل هنا بما لا تستعمل هناك . ومن أشهر هذا استعمال « الهاتف » و « البرق » في كثير من البلدان العربية كسورية مقابل « التليفون » و « التلفراف » في مصر ، واستعمال « الحافلة » مقابل « الأتوبيس » و « التلفاز » في الكويت (أو على الأقل في مجلة « المصري » التي تصدر في الكويت) محل « التليفزيون » في الجمهورية العربية المتحدة . - و « معاون الكلية » في جامعة بغداد تعني « مساعد العميد » ، و « الرقي » و « الجابي » و « النداف » و « التظاير » في عربية العراق الفصحى تعني على التوالي « البلطج » و « الكساري » و « المتجد » و « الجزار » ، وفي تونس تستعمل « الجامعة » بمعنى « نقابة العمال » ، و « وزارة الفلاحة » مقابل « وزارة الزراعة » . و « التراب » في شمال أفريقية عندما يقال « التراب المغربي » ، أو « التراب الجزائري » ، أو « التراب التونسي » بمعنى « الوطن » أو « أرض الوطن » . و « المختار » في سوريا تقابل « العمدة » عندنا ، وفي ليبيا يستعملون في التقسيم الإداري للدولة كلمة « متصرفية » ، « متصرف » ، وكنا من قبل نقول في مصر « مديرية » و « مدير » وصرنا الآن نستعمل « محافظة » و « محافظ » .

وكلمة « صلاحية » تستعمل في كثير من الأقطار العربية كالشام والعراق بمعنى « السلطة » أو « التفويض » ، يقولون « لا صلاحية لي في كذا » أي « لا سلطة أو تفويض » .

وقد لا يكون ثمة ضرر في استمرار استعمال شيء من مثل ما قدمنا فكثير منه لا يعوق الفهم . ولكن عندما يتعلق الأمر بالفاظ القضاء ، والإدارة ،

٢ - وقد يستدعي الترتيب الزمني أن نثني ، بالأساس القوى والثقافي السائد في كل قطر مفتوح ، والسابق على تصريه . كانت الفارسية غالبية على العراق ومعها آثار قوية من السريانية واليونانية ، وهاتان الأخيرتان كانت لهما آثارهما في الشام كذلك ، وفي مصر كانت اللغة القبطية وآثار الثقافة المصرية القديمة ، أما شمال افريقية فكانت تسود أكثر أقطاره اللغة البربرية . الخ . ومعنى هذا أن « تعريب » كل قطر كانت تحوطه ظروف لغوية وحضارية مغايرة .

كيف كان الاحتكاك بين « العربية » لغة وحضارة وبين اللغات والحضارات الإقليمية ؟ ان النتيجة معروفة وهي تغلب العربية وسيادتها ، ولكن كيف تم هذا ؟ وما ظروفه التي أحاطت به ، ومرآته التي استقرها في كل موطن ؟

ان دراستنا لتاريخ العربية لا تزال قاصرة عن الاجابة على هذه الأسئلة اجابة علمية ، وعندما تم دراسة « تعريب » الأقطار « العربية » المختلفة ستكشف على وجه من التفصيل حقائق كثيرة منها ما هو مجبول ، ومنها ما يكتنفه الغموض .

ولكننا نستطيع ان نلمس ونتحسس مقدما شيئا من نتائج هذا الاحتكاك . لا شك ان « ذوق » المثقفين والشعبيين والإداريين في كل اقليم كان له اثره في « تعريب » مصطلحات عربية دون سواها . كما كان له اثره « دون شك » في دخول الفاظ من اللغة الأصلية الى العربية ، لاسيما الفاظ التنظيمات الادارية ، والحضارية بوجه عام ، وبهذا دخل العربية منذ المرحلة الاولى ، في هذا القطر ما دخلها غيره في ذلك القطر .

ولا شك ان « النظم الصوتية » للغة التي صادفتها العربية في هذه البيئة أو تلك ، كان لها تأثيرها في ما آل اليه نطق الأصوات والكلمات والجمل العربية في هذه البيئة أو تلك ، وخاصة فيما يتعلق بمواضع ما يسمى في الاصطلاح الصوتي « الارتكاز » stress ودرجاته في الكلمة ، وبمواضع « النبر » accent

ودرجاته بصفة عامة ، وبمنادج « تنغيم » Intonation الكلمة والكلام . فمن البديهي أن كلامنا يميل الى أن يغرض عادته اللغوية التي رسخت في نفسه ، وتثبت على لسانه ، من طول ممارسته للغة الأصلية ، على اللغة أو اللغات الجديدة التي يتعلمها . ومن اليسير أن نفكر هذه الحقيقة عندما نلاحظ نطق الأجانب الذين يأخذون في تعلم العربية ، وكيف

والتشريع ، والعلوم ، وو . الخ فان الأمر يختلف . فهذه المفردات والتعبيرات خاصة بالنظمة الاجتماعية والإنتاج الفكري ، وكل منها يعمل على توجيه عقلية المتعاملين معه توجيهها مخالفا ، ويخلق فجوة دون ثلاثي عقول ونفوس ينبغي أن يكون تلاقيها على أوثق صورة . ولا شك أن الوحدة السياسية عندما تتم بين أقطار الوطن العربي ستكون أهم عامل في توحيد الفاظ الخلاف وعباراته ، ولكن العمل في هذا السبيل منذ الآن يقرب تحقيق هذه الوحدة .

- ٣ -

ونأخذ الآن في بيان اسباب الخلاف الكلامي في العربية الفصحى في الأقطار المختلفة ، وهي كثيرة متنوعة لا ترجع الى زمن واحد بل تزداد الى أزمان متفاوتة .

١ - وقد يكون أولى هذه الاسباب بالتقديم ، هو اختلاف الفصحى على السنة العرب الذين استقروا في أقطار الوطن العربي . فالعربية منذ توحدها في الجاهلية كثيرة ما يسمى « المترادفات » وزادت هذه « المترادفات » زيادة ملحوظة بعدئذ لغويي العربية بجبع اللغة ، وكره المزمعسات التي وضعت لتعليم « الأعاجم » لغة « العرب » .

ولكن كانت تغلب على بعض المتكلمين في الفاظ تسمية لموضوعات ، أو أفكار ، أو أشياء معينة بينما تغلب على غيرهم من المتكلمين في قطر آخر ، أو مدينة أخرى ، الفاظ سواها تسمية لنفس الموضوعات أو الأفكار أو الأشياء .

وكان اللغويون القدماء يقولون ان للسيف كذا اسما ، وللفرس كذا اسما ، وللجمل كذا وكذا . الخ مما هو معروف متداول . وربما كانت كثرة من هذه التسميات المتعددة للشيء الواحد صفات مختلفة له ، ثم انتقلت من باب الوصف الى باب التسمية بعد شيوع استعمالها ، وربما كان بعضها اسما له دخلت اللغة العامة من اللهجات العربية للمعددة .

ثم ان كل جماعة عربية استقرت في اقليم من الاقاليم كانت لها الفاظها وعباراتها حسب درجتها من البداوة أو الحضارة ، حسب غلبة التجارة عليها أو « الرعي » . الخ فكل مجال من مجالات القول مفرداته واصطلاحاته .

وبذلك تكون كل جماعة قد عملت على نشر كلام معين منذ المراحل الأولى لتعريب البلدان التي فتحتها الله على المسلمين .

يبدو كلامهم في آذاننا « غير عربى » على الإطلاق أو « أعجميا » ، وكيف يحوج الأمر الى دراسة دائية واهية ليصلوا الى نطق ترشاه الأذن العربية . وهذا نفسه متحقق ملحوظ في كلامنا نحن أصحاب العربية بالانجليزية أو الفرنسية ، فاكثرتنا ، دون ان يدري ، « يعرب » النطق الانجليزى والفرنسى . الخ وقد تكون هذه الحقيقة مسئولة الى حد ما - وربما صحبها في ذلك عوامل وظروف آخر كطبيعة الاختلاف بين كلام العرب الفاتحين - عما نلاحظه في الكلام العربى الفصحى من اختلاف في مواضع الارتكاز « و » النبر « و » فى « التنخيم » اذا انتقلنا من قطر الى آخر .

٢ - اما السبب الثالث من اسباب الخلاف اللغوى ، فهو ، في رأينا ، ما كان يطرأ على علاقات الأقطار العربية المختلفة من ظروف الانفصال والتباعد النسبى في بعض العصور ، ومرجع أكثر ذلك الى عوامل سياسية ومدهية .

فلا شك ان انبساط سلطان الدولة على أرجائها جميعا عامل أساسى يدعو الى التقارب اللغوى أو التوحد اللغوى ، فوحدة المذهب السياسى والدينى ، ووحدة النظام الادارى والاقتصادى .. الخ تفرض « التعامل » مع كلام معين . والاختلاف في هذا كله وما يجرى مجراه تفرض تعدد الأفكار وتباينها مما ينتج عنه تعدد الكلام المعبى عنه وتباينه . ومن مظاهر التباعد السياسى قديما وجود المباشين في المشرق ووجود الامويين في المغرب والأندلس ، ثم ظهور الفاطميين في شمال افريقية وامتداد سلطانهم غربا . ومن ذلك الدولات التى كانت تقوم من وقت لآخر كدولة بنى بويه ، والسلاجقة الخ . وكل دولة لها انصارها ومذاهبها التى تروج لها . وكان المذهب الشيعى سائدا في اقاليم عربية ، او في بلدان من اقاليم عربية ، ولهذا المذهب ، شأن كل مذهب ، لفته الخاصة التى تروج معه ، بينما تروج مع « السنة » لغة اخرى .

٣ - ولا شك ان الحروب التى كانت تتعرض لها بعض أقطار الوطن العربى مع عدو أجنبى ، كحروب العرب والروم ، كان ينشأ عنها جريان بعض الالتفات « الأعجمية » على السنة عسرب تلك المناطق ، واستعمالها في كلامهم العصبى ، ومن ذلك الانقلاب العسكرية والادارية مثل « الدمستق » التى نجدها في شعر المتنبي . وقد ترك غزو « التتار » لمساحات شاسعة من العالم الاسلامى صدها في عربيتها .

٤ - ويتصل بهذا السبب ، وهو الحروب والغزو الاجنبى ، الاستعمار الغربى الحديث للوطن العربى . كان الانجليز في مصر والسودان وفلسطين والفرنسيون في سورية ولبنان وتونس والجزائر ، والايطاليون في ليبيا ، والأسبان في جزر من « مراکش » .. الخ ، وكان كل مستعمر ينشر لفته وثقافته وحضارته - بما فيها من تنظيمات مخالفة سياسية وادارية وعسكرية .. فيما يحتله من أرض ، ومن هذا الطريق دخلت العربية الحديثة مئات المفردات والتعابير هنا عن الانجليزية ، وهناك عن الفرنسية أو الإيطالية أو الأسبانية ، وكان ذلك اما عن طريق الأخذ المباشر ، او الترجمة عن نماذج مختلفة ، او حتى من نماذج واحدة ولكن يختلف اللفظ العربى على ايدى المترجمين .

٦ - ومن الأسباب الهامة في حدوث الخلاف اللغوى في الفصحى ، اختلاف صلات الأقطار العربية المختلفة بالعالم الخارجى .

كانت مصر قبل الاحتلال الانجليزى على صلة ثقافية وثيقة بفرنسا ، وقد أولدت كثيرا من مبعوثيها اليها ، عادوا فكان منهم رواد نهضتنا الفكرية والعلمية .

وقد قام أكثر هؤلاء بترجمة كثير من ثمار الفكر الفرنسى والفلم الفرنسى الى العربية . ومصر في اوائل عهدها بالتشريع الحديث ، أخذت من التشريع الفرنسى . وقد نتج عن هذه الحركة ، حركة الترجمة عن الفرنسية ، دخول كثير من الكلم الجديد الى عربية مصر الفصحى .

ثم كانت صلات مصر بالانجلترا والمانيا وبأمريكا ، ثم قوى صلة مصر ، بعد قضائها على الاستعمار ، بروسيا ويوغوسلافيا .. الخ . وكل هذه مما اليها مسارب للدخول كلم جديد في عربية مصر .

يحدث هذا في مصر بينما تحدث في قطر وغيرها مثل ليبيا صلات أقوى بإيطاليا وبالثقافة الإيطالية ، وبينما تكون صلات المغرب بفرنسا وإسبانيا محدنة لأثار مخالفة ، وهكذا .

٧ - ويتصل بهذا بأقوى سبب ، اختلاف المترجمين في البلدان العربية المختلفة في ترجمة نفس المفردات والمصطلحات من اللغة الأجنبية الواحدة . فاللفظ الواحد ، أو العبارة الواحدة ، تترجم عن الانجليزية في مصر بصورة ، وتترجم عنها في العراق بصورة أخرى ، وفي الخرطوم بصورة ثالثة وهكذا .

ومثل هذا يحدث عند الترجمة عن الفرنسية في المغرب وتونس والجزائر ومصر وسورية ولبنان .. الخ ولا شك أن مسؤولية الصحافة والإذاعة والتلفزيون خاصة عن الخلاف في ترجمة نفس المصطلحات الأوروبية بالألفاظ عربية مختلفة مسؤولية كبرى .

ويساعد على زيادة شدة الخلاف في هذه الترجمة أن وسائل الإعلام تضطر إلى ترجمة ما يرد إليها من أنباء في ساعات أو لحظات ، وهذه السرعة اللازمة لا تأذن بطبيعتها بالنظر في تراجم الآخرين أو تدكرها . ثم أن من الأنباء الواردة باللغة الأجنبية ما يحمل معه كلمات جديدة في هذه اللغة الأجنبية نفسها ، لم يسبق ترجمتها ، فيترجمها هذا المترجم بصورة ويترجمها سواه بصورة أخرى .

٨ - ونختتم ما قدمنا من أسباب الخلاف بهذا السبب ألا وهو اختلاف تأثير العاميات المختلفة في اللغة الفصحى .

ويظهر هذا أكثر ما يظهر ، وأوضح ما يظهر ، عندما تدعو الحاجة هنا أو هناك إلى استحداث لفظ أو اصطلاح . فاهل العراق يأتسون إلى اخذه من عاميتهم . ويرونه لهذا أولى الألفاظ بالفرض لانه جار فعلا على اللسنة ، في حين يفتح أصل مصر على نفس الأساس ، إلى اخذ اللفظ من عاميتهم ، ولكن اللفظ هنا يكون غير اللفظ هناك والفصحى واحدة .

- ٤ -

الآن ، وقد عرضنا المشكلة ، وجولنا ظروفها الملازمة لها ، يحق لنا أن نتساءل : وكيف يتأتى توحيد ألفاظ الخلاف في الفصحى وعباراته ؟

إن أول خطوة في سبيل تحقيق هذا الهدف هي : حصر مواضع الخلاف من الكلام العربي في قوائم ، مع تصنيفها تصنيفاً موضوعياً ، وتصنيف كلمات كل موضوع تصنيفاً أبجدياً .

وهذا العمل الشاق يحتاج ، في رأينا ، إلى عقد مؤتمر عام لتحديد الهيئات العلمية التي تضطلع به ، ومن يشاركون من أفسراد كالجوامع اللغوية والعلمية في البلاد العربية ، والإدارة الثقافية للجامعة الدول العربية ، وأسادة الجامعات المختصين ، وطلبة الدراسات العليا ، وغير هؤلاء من الأكفاء ولبحث طرق تمويل هذا العمل .

والخطيط الدقيق لتقسيم العمل أمر واجب ، فيه يختص كل بموضوع تقاسداً من الوقوع في التكرار .

وبعد عملية الجمع والحصص . تعرض الموضوعات على لجان مختصة ممثلة للبلاد العربية لمناقشة ألفاظ الخلاف ، والألفاظ المقترحة لتوحيدها .

ومما يساعد في هذا الشأن أن تهتم المؤتمرات العلمية العربية التي تعقد من وقت لآخر - كمؤتمرات الطب والهندسة والدينامية .. الخ - بهذا الأمر ، فيشرع كل في مجال اختصاصه بالاتفاق على ما يرون الاتفاق عليه واجباً ، وهذه خطوة لازمة في الوقت نفسه لتقدم العلوم العربية نفسها .

وعمل اللجان المختصة بالجمع والمراجعة عمل دائم بطبيعته ، فليس الأمر قاصراً على حصر ألفاظ الخلاف القائم فعلاً ، فإن مصادر تجدد ألفاظ الخلاف ، كما كانت مصادر اجتماعية ، فستظل تعمل عملها من وقت إلى آخر .

ويحسن عرض ما تصل إليه الهيئات والأفراد في هذا الشأن على مؤتمرات لغوية دورية تمثل البلاد العربية جميعاً ، للتوصية بما يستقر عليه الأمر .

كما يحسن بالهيئات والأفراد التي سيوكل إليها تنفيذ العمل ، أن تدخل في اعتبارها الاعتماد على التوصية بالألفاظ والعبارات السائدة فعلاً بين أكبر عدد من المتكلمين والكاتبين بالعربية ، فالفصحى في عصرنا أكثر الفصحيات متكلمين وكاتبين ، والنشاط العلمي والفني ، والثقافي عامة ، فيها أكبر نشاط ، ووسائل الإعلام بها من صحافة وإذاعة وتلفزيون أقوى وسائل .

ويلزم بالضرورة طبع ثمار هذا العمل ونشره على أوسع نطاق ، وإدخال ما يستقر عليه الأمر من الألفاظ الموحدة في كتب التعليم العام في البلاد العربية ، وبهذا تخطو الاتفاقات الثقافية العربية خطوات جديدة في سبيل خير العربية والعروبة .

ولا شك أن خلاصة هذه الدراسات جميعاً ستكون مواد أساسية لاستكمال « المعجم العربي الكبير » الذي لا يزال جمهور العربية يتطلع إلى صدوره .

إن تجربة الوحدة بين مصر وسورية سنة ١٩٥٨ قد ألجأت إلى توحيد ألفاظ وعبارات كثيرة ، لاسيما تلك التي ترد في القوانين الرسمية التي تصدرها الدولة ، فالتعجيل من الآن بتوحيد الكلام الخلافى دعامة من الدعائم الأساسية اللازمة للتمهيد لقيام الوحدة السياسية العربية الكبرى على أسس سليمة .

فن رمضان



بقلم: الدكتور حسين نصار

فقد اقبل المسلمون على « التسحير » ، اعنى دعوة النائم الى السحور ، وتطوعوا للقيام به ، لم يأنف من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم حتى مارسه بعض امرائهم ، مثل عنبسة بن اسحاق الفسي ، والى مصر (٢٢٨ - ٢٤٤ هـ) . وكان عنبسة يذهب الى الصلاة في غير موكب ، متعماً بالميل الى رأى الخوارج ، فلم يرض عنه الشاعر يحيى بن الفضل وعاب عليه كل ذلك ، حين قال :

من فتى يبلغ الاسام كتابا

عرياً ، ويقتضيه الجوابا

بشيء - والله ما صنعت الينا

حين ولبتنا اميراً مصابا

خارجياً يدين بالسيف فينا

ويرى قتلنا جميعاً مصوابا

مر بمشي الى الصلاة نهرا

وينادى : السحور ، فصل وخابا

واقبل الشمراد من هؤلاء المسحرين على الإبداع فيما ينظمون من شعر ينشدونه في « تسحيرهم » ، وأصحاب الصوت الجميل على الإبداع في انشادهم . فكان المسحرون ، وانشيدهم طرفة رمضان ، التي يحرص المسلمون على مشاهدتها والاستماع اليها ، والمتع بها . ولذلك اعتقد أن هذه الاناشيد جديرة بالدراسة ، من أصحاب الأدب الخاص والشعبي ، وأن كان حديثي عن لون واحد من اناشيدها .

فقد ابتدع المسحرون فنا خاصاً من الشعر ، له قواعده وأجناسه ، وله اسمه الخاص ، وهو ما أحاول التعرف به في هذا المقال .

عرف هذا الفن باسم « القوما » . وقال صفي الدين الحلي أن هذا الاسم مشتق من قول المسحرين : في آخر كل بيت منه بعد قناء الرمل أو الرجل :

يقال أن المسلمين - حينما فرضت الصلاة عليهم - أخذوا يفكرون : كيف يعلنون عنها ويدعون اليها ، ووردت على خواطرمهم الطرق التي يسلكها غيرهم من الأمم في ذلك ، من قرع لجرس ، أو إيقاد لنار ، أو ماشابه ذلك ، ثم كان أن اتخذوا من « الصوت البشري » مؤذناً بالصلاة .

والإنسان مولع بالجمال في نفسه ، وفيما يرى ، وفيما يستخدم من أداة . فلا بدع أن شغف المسلم بتجميل « الصوت البشري » الذي اتخذ منه أداة للايدان بحلول الصلاة ، وأداة لأداء (إصلاة) - وأداة للتسرية من النفس ، ولاغرائها على الجهاد للتوصل ، ولهدايتها . فكان يطلب جمال الصوت ، وتجميل الأداء ، في ترتيب القرآن ، وفي أداء الأذان ، حدث على ذلك الرسول صل الله عليه وسلم ، وكشف عنه قولا وعملا ، وأتبعه المسلمون . فكان منهم القراء والمؤذنون ، الذين كسبوا الشهرة ، وفرضوا وجودهم على التاريخ .

وإن انطبق ذلك على كل أوان ، فلا شك أنه أعظم انطباقاً على شهر رمضان ، الذي يحتاج فيه المسلم الى من يؤذنه باقتراب الفجر ليقبل صلى سحوره ، والى من يؤذنه بخلاص ضوء النهار من عملة الليل ليمتنع عن غذائه وشرابه ، ومن يؤذنه بمغيب الشمس ليقبل على ما ألف من حياة ، غير من يؤذنه بأوقات صلاته اليومية . فلا جرم أن يكون رمضان شهر « الأذان » فيكون شهر « الصوت الجميل » . ولا جرم أن يكون رمضان - إذ كان شهر الصوم - شهر « القرآن » فيكون شهر « الصوت الجميل » .

وافتن « الصوت الجميل » في الإعلان عن نفسه : في ترتيب القرآن ، وأداء الأذان ، والدعوة الى طعام الليل أو السحور . وعن هذه الدعوة أتحدث .

« قوما لنسحر » ، يتبهون بذلك رب المنزل . وقال
دوزي Dozy في تكملة المعاجم انه مشتق من قول
المسحرين لأنفسهم : « قوما لنسحر قوما » . ولكن
جيرز Gies جعل الفعلين للأمر ، فقال انه مشتق
من قولهم لأنفسهم : « قوما لنسحر قوما » .

وقيل ان الذي ابتكره مسحر يدعى ابن نقطة ،
كان سحر الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ) .
ولكن الحلبي انكر ذلك ، وأكد ان مبتكره اهل بغداد
في عهد العباسيين ، وانه كان ذائعا قبل ابن نقطة .

ومن بغداد انتقل الى بقية أرجاء العالم العربي
ولم تتغير في رحلته هذه - فيما يبدو - قواعد
ولكن تغير اسمه . فقد قيل ان اهل الشام ومصر
والغرب كانوا يسمونه « الحماق » . ولم اصل الى
سبب لتغير الاسم ، ولا لتعليل الاسم الاخير وإيانة
اشتقاقه .

وكان المسحرون - اول ماوصلوا الى هذا
الفن - يتبهون به رب المنزل ، ويمدحونه ، ويدعون
له ، ويطلبون انعامه . وعندما شاع وكثر ، وانتقل
الى ايدي الشعراء ، نظموا فيه الفزل والتعجب
ووصف الزهر والبساتين ومسائر الموضوعات
الشعرية .

وذكر الحلبي ان الخليفة الناصر - كان يعمها
برمضان انشا فيه دور الضيافة ليقتطع الفقراء فيها
- كان يطرب لقوما ، ويعجب بابن نقطة الذي برع
فيه ، فاجرى عليه رزقا في كل سنة . فلما مات ،
كان له ولد صغير ماهر في نظم القوما والتفنن به ،
فأراد ان يعرف الخليفة بحوت والده ، ويرجوه ان
يخرج له الرزق ، فانتهاز فرصة مجيء رمضان ،
واخذ اتباع والده من المسحرين . ووقف في اول
ليلة عند شرفة الخليفة ، وغنى بصوت رقيق :

يا سيد السادات لك بالكرم عادات
انا بنى ابن نقطة وابى تعيش انت سعادات

فاجعج الخليفة به ، واستدعاه ، وفرض له
ضعف ماكان لايه .

وانفق النقاد على ان القوما والزجل والكان
وكان فنون ملحونة دائما ، فينبغي الا ينظم القوما
الا بلغة عامي رقيق ، بل يجب ان تكون الفاظه ارق
من الفاظ الكان وكان .

وتتألف القصيدة من القوما من عدة مقطوعات
تسمى كل مقطوعة منها بيتا ، وتركب البيت من

أجزاء يسمى كل منها قفلا - وكل بيت من القوما
قائم بنفسه ، منفصل ، فهو وحدة مستقلة ، ولذلك
يجوز تكرار القوافي فيها .

وذكر صفى الدين الحلبي ان القوما ينقسم الى
موعين . يتألف البيت في النوع الاول منها من ٤
اقفال ، يتفق القفل الاول والثاني والرابع في الوزن
والقافية . ويركب وزن ماوصل اليها منها من :
مستفعلن (او مفاعلن او متفاعلن) فاعلان ١ أو فعلان
او فعنان . وتهمل تقفية القفل الثالث ، ويطول
وزنه عن اخوته الثلاثة الباقية ، فهو مستفعلن
فاعلان (او فعلان) .

ومثال هذا النوع قول الصفى الحلبي :

لا زال سمكك جسيدي

دايم وجذك سمدي

ولا بسرحت مهني

بكل صوم وعيدي

✽

في الدهر انت الفريد

وفي صفائك جيد

فالتخلق شمس منقح

وانت بت القصيصد

✽

يا من جنانو شديد

ولطف راو سسديد

ومن يلاقى الشدايد

بقلب مثل الحديد

✽

لا زلت في تأيسسد

في الصوم والتعيسد

ولا بسرحت تهني

في كل عام جسيدي

✽

نحني (١) للذكر تشيد

بقولنسا والتشيد

وتبحث أو صاف مدحك

على خيول البريد

✽

لا زال قدرك مجيسد

وظل جودك مديد

ولا يرحت موافى
كما يوقى الوليد
ظلك علينا مديد
ما فوق جودك مزيد
وقد غمرت بفضلك
قربنا والبيد
لا زلت في كل عيب
تحتل بجهد سعيد
عمرك طويل وقدرك
وافر ، وظلك مديد

✽

مما زال برك يزيد
على اقل المييد
ومما يرح جرد كفاك
مما كجبل الوريد

✽

لا زال ظلك مديد
دايم وباسك شديد
ولا غمدنا مستورد
في صوم وفطر وعيد

✽

ويتألف البيت في النوع الثاني من ثلاثة أفعال تنفق في القافية ، وتختلف في الوزن ، وتندرج في الطول . فالقفل الأول اقصر من الثاني ، وتفعيله مستفعلان (أو مفاعلاتن) ، وهذا اقصر من الثالث ، ويتركب من فاعلاتن مفاعلاتن . بينما يتركب الثالث من مستفعلن (أو مفاعلتن) مستفعلن (أو مفاعلتن) مستفعلن . ومثاله من قول الحلبي :

أي قلب دعهم
أش ترى أوقعك معهم
انكف عنهم قبل ما تظهر يدعهم

✽

لولا طمعهم
بأن قلبي ما يدعهم
ما خالفوني وأظهروا في بدعهم

✽

ما عدت معهم
تا (١) يزول مني طمعهم
مالي فؤادا يحتمل كثرة ولعهم

(١) أي حتى

كثرة طمعهم
من بقى قلبي تبعهم
ومادروا أتو متى خانوا يدعهم

✽

من ملت معهم
أظهروا في بدعهم
والبسوا جسمي الضأ / هذى خلعهم

✽

كثرة ولعهم
هو الذي عندي وضعهم
من بعد ما كان الوفا مدعى رفهم

✽

دعني ادعهم
ما بقى قلبي يسهم
فكثرة التقيح من قلبه خلعهم

✽

لما قلهم
من بقلبو قد زرهم
مالوا معي ، لكن أنا ما ملت معهم

✽

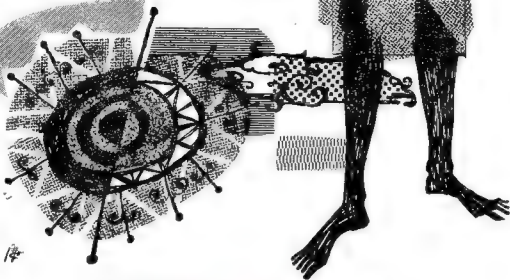
ضدى خدمهم
والت ما عني ردعهم
وظلني معري من أيدي ما ادعهم

✽

أش قد نفعهم
نصح من عني دفعهم
تركهم ، ما فادهم مني فزعهم

✽

ولكن الأستاذ فلهلم هنريخ Wilhelm Hoenerbach عثر في كتاب « الدر المكنون » المخطوط بمكتبة ميونيخ ، رقم ٥٢٩ ، اللوحة ٦ و ٦ ظملى نوع ثالث لم ينسب إليه أحد . وذكر أن البيت فيه يتألف من خمسة أفعال ، تنفق الثلاثة الأولى منها في القافية ، ثم يقف القفل الخامس مع بقية الأفعال الخامسة من أبيات القصيدة كلها . فقافية القفل الخامس هي التي تربط الأبيات جميعا ٠٠ والامر الذي يؤسف له أنه لم يتحدث عن وزن أفعال هذا النوع ، ولم يورد أمثلة منه .



طفل في طريق الحب

للشاعر أنسب داود

ARCHIVE

ورحت ثمرا الذكرى تقس حوله الظل
تناغمي حكاياتي التي - ياطفاني - تحلو
ونهر من بحار الشوق في عيني ينهل
أحلق في الطريق وفي وجوه الناس لأسلو
ومر على جمال ضرب الخطو معتل
وشبح أعفج يجثو على أهدابه الذل
وناهلة يروع شباها ما يفسر الليل
فاحتضن الطريق ، لكل من القاء لي أهل

وطوف حول متكني صغير ضارع النجوى
بعينه ماسيه وتاريخ من الشكوى
وفوق جبينه رسمت ملامحها يد البلوى
ينقر فوق صندوق صغير يبعث الشجوا
ويلهث خلف أقدام الآل مروا بلا جدوى
تردد حين أبصرني .. أيرجع خائب النجوى
وأوما لي : « اتسمح أن ألهه كما تهوى ؟ »
فأسلمت الحذاء له ليشبع لونه زهوا

بكرت مع الندى ، والظير في أعشاشها تفلو
وبين جوانحي قلب إلى عينيكم كم يهفو
يخف اليك عصفورا يشوق جناحه الرف
ويرسمك الخيال فلا يحيط بسحرك الوصف
فيكم هدهد الآلام من تحنانه عطف
ويصمكم نغم الأحلام من ألوانه طيف
فانت خميلتي ومرافى .. أهداك الوطف
ولفر برعم يقتات مما يحرق الصيف
« شحى القاك » ..

مأزال المسلى عن غايته ينشأ
إلى أن نلتقي سناظل أحمل غريتي عشا
أرود شوارد الغيمات أو استشرף الفسود
وأعدو في سقاء الشمس أو استعذب الفيسا
وأضئ حائر الخطوات لا أبقي هنا شيئا
إلى أن تظلمي ربا لكل مشاعري الظلمى
وفي آماد عينيكم يصانق قلبي الدفء
إذا شب الغرام الطفل

كان المنتهى بعد

صباحا حينما الخد ينوح بغطوى الوجع
أراقب صبية يقفون حيث العلم ينتهل
بأيديهم كرايس ، وفوق جسدوهم حلق
أراهم في شياى الصبح نور وجههم أمل
وعند رواجى الخاوى يغفر وجهى الملل
براهم مثل أسراب من الأطياف تنفعل
فأمرق في الدجى وحلى أكاد أصبح أقتل
ولكنى أرى عينا ودا الدب تبهل

صغبرى عمرى الباكي ودا سنينك المره
سيبصره في غد فجرا يعاقب أرضا الحره
يفتح في الجحيب النهر والزيتون والغضره
فلم ترأت والده لوح .. شارد النظره
واخلفنى أتابع ظله المهموم في حسيه
الى أن جئت باليلى في اشراقه الزهره
اليس لنا ودا الليل شمب يصنع الثوره
ألم تبصر هناك خلف أطلال الدجى فجره

وعبر ويمشى نظرتة ولون شحوبه الأذوق
تجول خاطرى واتساب فوق جبينه المرهق
اليس له أب يسرعه أو أم به تسرفق
الا تهفو طفولته الى النوح الذى أودق
ومدرج صبية عاموا بموعده اذا أشرق
واشياء بريئات يحب جمالها المطلق
فكيف تضيح دنياه وكيف بليتنا يفرق
ويمشى حافى القدمين من الدامنا يلحق

سألت خريفه السامان عن أيامه : أطرق
« صغبرى أنا صنوان في ليل الأسى نرق
وتجبل لقمى بالدمع كالدمع الذى تهرق »
فتبسم فى أسى : « أنى افتح قلبى المغلق
فقد مات الأب الحانى وقالت أمنا : « ترزق »
والقت نظرة بلهسا فى وجهى فلم انطق
ولكنى حملت ترانه صمنوقه المرق
دوت به على القدم كل الناس كى أرزق



1/4

صدق التفسير في عملية التحليل النفسي



الدكتورة منيرة حلي

منقول من مجلة "مبدأ" هي الاداة تساهم مع غيرها من الادوات في النجاح علاج الحالة ، هي أداة تنشيط وتثير استجابات مطلوبة عند المريض ، او أداة تغير في اتجاهات المريض ، لا يعني ان تكون صادقة او كاذبة ، وهل يقال عن الاداة انها صادقة او كاذبة ؟ لا ، ليست أحكامنا على المريض ، تلك الأحكام التي نطلي بها لتفسير انفعالاته واتجاهاته ، ليست هذه الأحكام أحكاما ذاتية من عندنا ، وانما نحن نستند الى أشياء كثيرة من الحالة الراهنة التي بين أيدينا ، ومن الحالات السابقة التي عالجنها ، نستند الى هذه الأشياء جميعا حين تصدر هذا الحكم . سيقولون انها أحكام تستند الى معايير اكلينيكية من شأنها التغير ، وسيقولون انها أحكام استقالية من عندنا ، وبالتالي هي أحكام كاذبة ، لا تصدق على الحالة ونقول نحن ، ان حكمنا او تفسيرنا حين يكون كاذبا سرعان ما يستبعد نفسه بنفسه في سياق عملية التحليل ، ويحل محله ما هو أصوب منه ، وان معاييرهما مهمما كانت غير ثابتة - كما يقولون - الا انها توصلنا الى النتائج التي تهدف اليها ، توصلنا الى حل الصراعات عند

المعلوم كلها تسعى سعيا حثيثا نحو اكتشاف اليقين الموضوعي ، تحصدوها في ذلك فلسفة العلوم ، فتبرز لها معاييرها ، وتناقش هذه المعايير مبينة مدى صلاحيتها ومدى تحقيقها لهذا اليقين . وعلم النفس ، شأنه شأن العلوم جميعا ، يسعى الى تحقيق هذا اليقين الموضوعي ، وما حركة القياس النفسي التي ظهرت بوادرها منذ نهاية القرن الماضي الا تنبها شديدا ، ولفتة جادة نحو تحقيق هذا اليقين . لكن بقي جانب تطبق من هذا العلم محتفظا بطرقه ووسائله ، لا يريد لها تطسورا او تغييرا الا في أضيق الحدود وفيما لا يمس أصوله الفنية في شيء . بقي التحليل النفسي على ما هو عليه ، يسمع هذه الدعوات المتواصلة نحو اليقين الموضوعي ، ويسمع أكثر منها الاعتراضات المختلفة الموجهة الى طرائقه وما يعوزها من مثل هذا اليقين ، يسمع ذلك كله فلا يترزع إيمانه بنفسه قيد أنملة . انه مؤمن من أعماق الايمان بفرديته المستمدة من فردية من يعالجه ، مؤمن بأن كل عبارة تقال أثناء جلساته ليست في حاجة الى التحقق من صدقها او كذبها ، ليست في حاجة الى مستند

مرضانا وعلاج حالاتهم نهائيا . واتنا لا نقنع بالنتائج الاولى العاجزة التي قد يفرينا بها تفسير عاجل كاذب .

هكذا دافع « فرويد » منذ البداية عن نتائج واحكام التحليل النفسي امام المعارضين بل تنبأ باعتراضاتهم هذه وسبقهم الى الرد عليها ، وهكذا انتهت كل البحوث الخاصة باختبار اليقين الموضوعي لما يقوله المحلل من تفسيرات في عملية التحليل النفسي . لكن بالرغم من هذا ، بالرغم من ان هذه البحوث كانت تنتهي الى نفس النتيجة التي انتهى اليها « فرويد » في هذا الموضوع ، ما زالت هذه البحوث قائمة ، تبحث عن «ماير لليقين الموضوعي في عملية التحليل النفسي » . وتعرض فيما يلي لبدة مما رد به « فرويد » على اعتراضات المعارضين في هذا الموضوع ، ثم نعرض بحثا في صلب هذا الموضوع ، هو آخر ما وصل اليه من اجابات فيه .

فمن « فرويد » منذ « محاضراته التمهيدية في التحليل النفسي » الى ما عدا ان يشار من اعتراضات خاصة باليقين الموضوعي لاكتشافات التحليل النفسي بوجه عام ، ولتفسيرات الحلل النفسي لتجاهات المريض ودوافعه « بوجه خاص » ، تلك التفسيرات التي يواجه بها المريض والتي تمثل جانبها هاما من عملية التحليل النفسي ، فقد ورد في محاضراته الثامنة والعشرين النص التالي ، موجها الكلام فيه الى طلابه : « ستقولون الآن انه سواء كانت القوة الموجهة للتحليل النفسي تسمى التحويل ، او تسمى الايحاء ، فان الخطر ما يزال قائما ، ذلك الخطر المتمثل في ان يكون تأثيرنا على المريض من شأنه ان يضع اليقين الموضوعي لاكتشافاتنا موضع الشك . وان يكون ما هو كسب لمصلحة العلاج ، خسارة على حساب البحث العلمي وهذا هو الاعتراض الذي يثار كثيرا ضد التحليل النفسي . ولا بد لي ان اسلم بانه على الرغم من ان هذا الاعتراض لا مسوغ له ، الا انه لا يمكن ان ننتحيه جانبا وننتجاهله على اساس انه اعتراض غير معقول . فاننا اذا افترضنا ان هذا الاعتراض له ما يسوغه ، لكان التحليل النفسي مجرد ضرب معين فعال من ضروب الايحاء العلاجي احسن اخفاؤه . ولكانت كل النتائج التي يصل اليها عن هيمنة العمل الماضية ، وعن العوامل الفعالة في تكوينه

النفسي ، وعن لا شعوره ، وغير ذلك مما يصل اليه التحليل النفسي ، القول لكانت كل هذه النتائج مما يجب ان يؤخذ مأخذا غير جاد . ولذلك ينظر المعارضون لنا ان دلالة الخبرات الجنسية بوجه خاص ، ان لم تكن هذه الخبرات نفسها ، من المفروض ان تكون نحن (المحللين النفسيين) الذين يضعونها في ذهن المريض بعد ان تكون قد خلفنا هذه الاخلاط في عقولنا الفاسدة . هذه الاتهامات تدحضها التجربة العملية دحضاً كافياً اكثر مما يدحضها التفسير النظري . فكل من مارس بنفسه التحليل النفسي ، قد امكنه ان يقنع نفسه مرات لا حصر لعددتها ، بانه من المستحيل ان توحى للمريض بهذه الطريقة . صحيح انه ليست هناك صعوبة في جملة تلميذا اخذا بنظره معينة ، وبذلك تجعل من الممكن له ان يشارك في اعتقاد خاطئ يعتقد طبيبه ، وهو في هذا يسلك كأي شخص آخر ، يسلك كتابه ، لكننا نكون قد اثروا على عقله فحسب ، وليس على مرضه . ان حل صراعاته والتغلب على مقاومته لا ينبع الا حين يجد صلة بين ما يطلب منه ان يبحث عنه في نفسه ، وبين ما هو موجود بالفعل في هذه النفس . وأي شيء يستنتجه الطبيب خطأ بتلاشي في مجرى عملية التحليل ، ويجب ان يستبعد وان يوضع مكانه شيء اصوب منه . ان احد اهداف عملية التحليل النفسي هي ان تصوب ، بطريقة فنية للقائه ، النجاح المؤقت الذي ينشأ عن طريق الايحاء . لكن اذا حدث وتحقق مثل هذا النجاح ، فلن ينسحب عنه أي ضرر ، لاننا لا نقنع بالنتيجة الاولى للتحليل . اننا لا نعد التحليل كاملا الا اذا فسرت كل الامور القاصصة (في الحالة التي نعالجها) ، فعلت التفورات في الذاكرة ، واكتشفت الظروف الاولى التي احاطت بهيمنة الكتب . فالتنتاج حين تظهر قبل اوانها ، بعدها الواحد منا موقوفات اكثر مما بعدها معينات تساعد على السير بعملية التحليل قدما (١) .

لكن هذه الاعتراضات التي ساغها « فرويد » ظلت باقية رغم دفاعه هذا ، وظلت موضوعية تفسير المحلل النفسي لحالة مريضه موضعاً لبحوث متواصلة . وكان آخر ما وصل اليه من هذه

(١) فرويد . سيجمنت . محاضرات سبديه في التحليل النفسي من الترجمة الانجليزية لجون رابنر ، لندن : جورج ألن سنة ١٩٤٧ . ص ٢٧٩ .

البحوث ، بحث مستفيض قامت به جماعة من المشتغلين بالعلوم النفسية والفلسفية من أعضاء الجمعية الأرستطالية بانجلترا في الصام النصرم . وكان موضوع هذا البحث هو « معايير صدق التفسير في عملية التحليل النفسي » (١) وقدموه في ندوة عقدت في جامعة (ليستر) في الرابع عشر من يوليو سنة ١٩٦٢ . وكان على رأس هذه الجماعة الباحثة : ب.أ. فارل . وقد انصبت دراسته في هذه الندوة على مناقشة معايير مختلفة مما يمكن أن يقاس به صدق تفسير المحلل النفسي لدوافع مريضه .

ونعرض فيما يلي ما جاء في بحث « فارل » ، وما ناقشه من معايير ، وما انتهى اليه من رأى في هذه المعايير وفي وظيفة التفسير في عملية التحليل النفسي .

ولنعرض ، أول كل شيء ، لتفسير ساقه « فارل » وكان قد أخذ هذا التفسير من تحليل حالة سجلت جلساتها على آلة تسجيل ، وأذيعت في الندوة التي تم فيها مرض هذا البحث . وهي حالة طالب مرافق في السابعة عشرة من عمره ، مازال يتمتع في المدرسة الثانوية ، وإن كان يقاس قدرته العقلية قد أثبت أنه يتمتع بقدرة عقلية تؤهله للنجاح في الجامعة بدراسة الآتيار . وفي جلسات تحليله أبدى فيما أبداه من مشاهد خوفا من قيادة السيارة ، وعزونا عن تعلم قيادتها من أبيه . وكان تفسير المصالح النفسي لهذه المخاوف هو : « أحسب أن علة ذلك أنك دائما تشعر بالفرح من أن تؤدي أداء مباشرا أى شيء مما يؤديه والدك . لأن ذلك يقترب بك من رغبتك في أن تكون مثل أبيك ، وفي الوقت نفسه أنت تهيب من أن تكون كذلك . وأحسب أنك تشعر بخوف شديد من أن تكون الأب » وهنا أجاب الطالب : « نعم » .

يتخذ فارل هذا التفسير ، ومواقفة الطالب مثالا يجري بحثه عليه . فيتساءل : ما هي المعايير التي تجعل المحلل النفسي هنا ، وتجتلسا معه ، نتأكد من أن هذا التفسير تفسير صادق ؟ ويجب على هذا السؤال ، بوضع المعايير التالية ومناقشتها :

(١) منشورات الجمعية الأرستطالية - طلع المجلد رقم ٢٦ سنة ١٩٦٢ .

المعيار الأول : موافقة المريض على التفسير فبتطبيقنا لهذا المعيار على المثال الذي سقناه ، نجد أن الطالب أجاب على تفسير المحلل بقوله : « نعم » . فهل هذا يعنى موافقته على التفسير ، وبالتالي يعنى أن هذا التفسير صادق ؟ كلا ، مازال هناك شيء آخر لا بد أن نتأكد منه قبل إصدار هذا الحكم . هذا الشيء هو : هل كلمة نعم هنا تعنى الموافقة ؟ الحكم إذن يتوقف على تفسيرنا لكلمة « نعم » التي قالها الطالب بعد تفسير المحلل . فهل هذه النعم نعم قاطعة ، نعم تدل على الموافقة ، أم هي نعم تتضمن استفسارا ؟ أو نعم تقول : من الممكن ؟ أو تقول : سأفكر في هذا ، لكن دعني أعرف أكثر من ذلك أولا ؟ إن هذه الأسئلة تواجه الشخص منا حينما يقارن بين الطرق المختلفة والنغمات المختلفة التي تقال بها كلمة نعم . ويتحتم علينا حينئذ ألا نقول أن المريض قد وافق على هذا التفسير إلا إذا كانت نعم التي يقولها هي نعم القاطعة التي تدل على الموافقة ولا شيء غير ذلك . وبناء على هذا فإنا عندما أفسر « نعم » هذه على أنها تدل على الموافقة ، أصدر حكما على طريقة نطق المريض بنعم التي قالها . وهذا الحكم يشبه الحكم الذي أصدره على شكل غامض أو حيرة في اختبار اسقاطي وبعبارة أخرى أننا نحسب أننا لطريقة نطق المعامل بكلمة نعم ، وتكون استجابتي من نفس نوع استجابتي لاختبار اسقاطي ، ويكون حكمي على ما لعنيه كلمة نعم حكما اسقاطيا ، مشعبا بالتأثير اللغوي . فإذا اعتمد المحلل على نطق المريض لكلمة نعم الدالة على الموافقة فإنه يكون كمن يصدر حكما اسقاطيا عليها . وهنا نقول أننا نستخدم معيار الموافقة فقط في حالة الاستمارة بحكم اسقاطي ، أو ما يشبه هذا الحكم . وهذا يعنى أننا لا نستعمل المعيار هنا كاختبار موضوعي يقىس أو يحدد لنا هل هذا التفسير صادق أو كاذب ، وإنما ندخل في استعمالنا للمعيار عوامل ذاتية .

المحلل النفسي إذن لا يكتفى بكلمة نعم وحدها لكي يصل إلى نتيجة أن المعامل قد وافق على تفسيره ورأى أنه صادق . فما هي الأشياء الأخرى التي يطلبها فوق كلمة نعم ؟ وهل هذه الأشياء مما يجده متوفرا في سجل المريض ؟ هذه الأسئلة قد يكون وقد لا يكون من حقنا أن نسألها للمحلل النفسي ، لكنها تدلنا على أننا لم نعد بعد نواجه

اكلينيكي . وفوق ذلك فان هذا المعيار يكون عرضة للتغيير ؟ واذا حاولنا ان نحكمه بطريقة تكفي لان تعطينا جوابا مقنعا عليه في كل حالة ، فاننا بذلك نجعله عديم الفائدة من الناحية الاكلينيكية ، لانه اذا كان ليكتسب قيمة اكلينيكية فيجب ان يبقى مرنا الى حد معقول .

هذا كله من شأنه ان ينتهي بنسأ الى هذه الحقيقة وهي ان المحلل النفسي حين يقيس تفسيريا ما بالرجوع الى مدى تنشيطه لما يتصل به من استجابات عند المريض ، انما يفصل بذلك شيئا مختلفا كل الاختلاف عما يفعله العالم عادة حين يقوم باختيار الفرض العلمي الذي افترضه .

المعيار الثاني : معيار المماثلة analogy

وتطبق معيار المماثلة معناه ان نقول مثلا : بناء على نوع شخصية هذا المريض ، ونسأ على مادة حديثة معنا في المقابلة الراهنة وما سبقها من مقابلات ، فاننا نستطيع ان نقول ان هذه الحادثة المعينة او ان هذا الانفعال ، او ان هذا الاتجاه ، تفسره كذا وكذا وذلك لان الخبرة التحليلية بحالات مشابهة قد أثبتت ان هذا التفسير صادق .

هذا الحكم فيه بعد من الحقيقة . لان المحللين النفسيين لا يستطيعون هذا المعيار استعمالا جديا واحدا . فلهذا لا يجدون انه من الطبيعي او من السهل ان يكشفوا لنا عن الخبرة الماضية التي اعتدوا عليها بأن يعرضوا أمامنا مجموعة من الحالات التي مرت عليهم والتي تشبه الحالة المعروضة أمامنا في الناحية التي نناقشها . بل هم - الى حد ما - يمتنعون أنفسهم من الاتجاه الى هذه الحالات الماضية لانهم ينظرون الى كل حالة على انها حالة فردية تختلف اختلافا أساسيا عن الحالات الأخرى .

فاذا سلمنا بمعيار المماثلة ، ووافقنا المحلل النفسي على ان تفسيره لانفعال ما تفسير صادق لانه كان هو نفس التفسير الذي فسر به مثل هذا الانفعال في حالات متشابهة ، اذا سلمنا للمحلل النفسي بذلك ، فاننا تعود فنسأل : وما الذي يدعونا لان نعتقد انه في الحالات المتشابهة التي ظهر فيها انفعال مشابه لهذه الحالة ، كان هذا الانفعال يفسر بما فسر المحلل النفسي به ؟ اذا لجأنا في اجابتنا على هذا السؤال الى الاستناد لامثلة من طرق المعالجة التحليلية من نفس نوع

مماثلة موافقة او عدم موافقة فحسب ، وانما نحن نواجه سؤالا اكثر تعقيدا سؤالا لا يستطيع المحلل النفسي ان يجيب عليه الا اذا استعان بحكم اكلينيكي ، أي حكم مستند الى المعلومات التي توصل اليها في معالجته الاكلينيكية لحالة المريض ، ومثل هذا الحكم لا يضمن لنفسه بنفسه صدقا موضوعيا بل على العكس من ذلك ، نستطيع ان نقول انه حكم إسقاطي في جانب منه ، وانه بالتالي يشوبه عدم اليقين . فاذا كان الامر كذلك ، فان مسألة تحديد ما اذا كان أي تفسير مقبولا أم غير مقبول ، ليست مسألة قاطعة ولا موضوعية .

من ذلك نرى انه من الصعب ان نجد أي شيء موضوعي يدلنا على ان المريض قد تقبل التفسير ، وان كل ما نستطيع ان نجده هو معلومات توحى بأنه قد قبله - وأقول توحى فحسب - أو وجهة نظر تدل على ذلك أو تنضمه .

والخلاصة هي ، ان صعوبات كثيرة تواجهنا اذا استخدمنا موافقة المريض معيارا للحكم على صدق التفسير ، واننا اذا استخدمنا هذا المعيار فانه يكون من الصعب علينا ان نتأكد من اننا قد استخدمناه استخداما سليما .

هذه المناقشة لمعيار موافقة المريض تثير أسئلة وتركمها بغير اجابة . فعلا ، يمكن ان يقال ان ما يظهر صدق أو كذب التفسير ، ليس هو قول نعم أولا ، فان مثل هذه الاجابات قد لا تعني شيئا نظرا لمقاومة المريض وما عسى ان يلجأ اليه من حيل دفاعية . أما ما يعنى حقا ويهم فهو : هل التفسير يثر عند المريض استجابات ذات صلة بالتفسير ، وبالتالي استجابات تكون نتيجة لهذا التفسير ؟ فاذا كان للتفسير هذا التأثير على المريض ، أي اذا كان التفسير « منشطا » فان ذلك يعطينا أساسا نستطيع ان نعتد عليه لنفرض ان التفسير صادق أو قريب من الصدق .

لكن ، من جهة أخرى ، كون التفسير منشطا أو غير منشط ليس سببا كافيا لتخلي المحلل النفسي عنه . وعلى ذلك فمراحل التنشيط ليس شرطا ضروريا للصدق . ثم اننا قد نحكم بأن التفسير منشط مستندين في هذا الحكم الى بعض العبارات المؤيدة لذلك الواردة في سجل الحالة . وهنا يكون المعيار غامضا لاننا اذا حكمنا بأن التفسير منشط بناء على دلالة العبارات التي بين أيدينا فان هذا الحكم بنا يكون ذا طابع

ذلك التي اسعملناها في هذه الحالة التي اماننا ،
لم تكن قد فعلنا بذلك شيئا ، لان هذا يفترض
ان طريقة التحليل النفسي طريقة صحيحة ، واننا
بواسطتها نستطيع ان نصل الى اكتشاف طبائع
الناس وانفعالاتهم وما تدل عليه . ولما كان اعطاء
التفسيرات والاستفادة منها جانبيا ضروريا من
جوانب طريقة التحليل النفسي ، فان بحثنا عن
معايير صدق التفسير في عملية التحليل النفسي
معناه البحث في صحة طريقة التحليل النفسي .
معناه ان نسأل كيف نظم اننا باستخدامنا هذه
الطريقة نصل للحقيقة عن المريض . ان التجاونا
للمعيار المماثلة اذن معناه التسليم بصحة او صدق
عين الطريقة التي نبحت في صدقها .

والخلاصة ، انه قد يكون من الضروري ان نلجا
الى تطبيق معيار المماثلة على التفسير حتى نتأكد
ان هذا التفسير تفسير صادق . لكننا مع ذلك
نقرر ان هذا المعيار اضعف من ان يمسدنا باليقين
المطلوب .

المعيار الثالث : معيار الفهم intelligibility
أي ان التفسير يكون صادقا اذا جعل اتجاهها
من اتجاهات المريض مفهوما ، اذا أعطى هذا الاتجاه
معنى ، اذا اثنانا ماذا تعني حادثة من الحوادث
بالنسبة للمريض . اذا دلنا على ما يجري في نفس
المريض وفسر لنا لماذا هو غير كائن شيء ، لما في هذه
الوقت بالذات لكنني لا استطيع ان اطبق هذا
المعيار على حادثة منعزلة قائمة بذاتها . وانما على ان
انظر الى هذه الحادثة حينئذ في علاقاتها بما لدى من
معلومات ككل ، وعلى ان اكون فكرة معقولة متكاملة
من كل الشخصية . وهنا لا يكون الفرض الذي
افترضته مستقلا قائما بذاته ، وانما يكون جزءا من
تفسير شامل ، او ثوبا روائيا يمكن ان اضيفه على
الشخصية ككل بما فيها الاتجاه الذي فسره .

لكن هذا المعيار ينطوي على الكثير من القصور
والإبهام وتعرضنا في تطبيقه صعوبات كثيرة ، نذكر
منها الصعوبتين التاليتين

الصعوبة الاولى : اذا سلمنا بان تفسيرنا معينا
يتفق مع هذا المعيار (معيار الفهم) وانه يحصل
اتجاها من اتجاهات المريض ذا معنى ويحصله
مفهوما ، فان هذه الحقيقة لا تثبت ، الا ان هذا
التفسير صادق في حالة ما اذا كان هو التفسير
الوحيد الذي يمكن ان نعطيه فيتفق مع هذا المعيار .
فنحن لا نستطيع اذن ان نتأكد من ان هذا التفسير

صادق الا اذا تأكدنا من انه ليس هنالك تفسير
آخر مساو له أو قريب منه في جعل اتجاهات
العمل مفهوم .

هذه الصعوبة صعبة باقية ما بقيت نظرية
علم النفس المرضي ونظرية الشخصية على ما هي
عليه . ولذلك نشك كثيرا في اننا نستطيع ان
نستخدم معيار الفهم ونحن على درجة كبيرة من
الثقة فيه .

الصعوبة الثانية : اذا افترضنا ان المحلل النفسي
يعمل بطريقة فرويد - كلين (طريقة اقصرها في
التحليل النفسي كل من فرويد و « ميلاني كلين »
ويلجا فيها المحلل الى وضع المعلومات التي يدل
بها المريض عن نفسه في قالب روائي من مجموعة
قوالب روائية أساسية اتفق عليها هذان المحللان ،
وذلك لكي تصبح هذه المعلومات رواية متكاملة
ذات معنى يسهل فهمه) فهو - أي المحلل النفسي -
حينئذ يحاول ان يجعل المعلومات التي عنده عن
المريض مفهومه بان يضعها في أحد هذه القوالب
الروائية الخاصة بطريقة فرويد - كلين وهو يقيم
بذلك هادة لار هذا النوع من الرواية هو النوع
الذي يمكنه من ان يضيئ على المعلومات التي تظهر
في التحليل معنى مفهوما . فهو حينئذ يعطي
تفسيرا في هذه الحالة لا يفعل ذلك بطريقة تجريبية
صححة بل على العكس ، هو يعطي هذا التفسير
وهو يحاول ان يوفق بين نوع الرواية التي
يستخدمها وبين المعلومات التي عنده وهكذا يمثل
هذا التفسير محاولة توفيق يحاولها . ومجرد
حقيقة ان المحلل النفسي يوفق بين تفسير ما وبين
رواية مفهومة ، سواء من النوع الذي اقراه فرويد
وكلين ، او من أي نوع آخر ، مجرد هذه الحقيقة لا
تعطينا تأكيدا كافيا بان التفسير صادق . وهكذا في
مثل هذا النوع من التحليل النفسي يفشل معيار
الفهم في ان يعطينا الضمان الكافي الذي نحتاجه .

وبختتم « فارل » بحثه بالارة هاتين المسألتين
الجديرتين بالتفكير من كل من يتناول موضوع
صدق التفسير في عملية التحليل النفسي ، وهما :

المسألة الاولى : ان العلاقة الخاصة بين المحلل
النفسي والمريض تترك الباب مفتوحا للإيهام من
حانب المحلل ولتقبل هذا الإيهام من جانب
المريض . فنحن اذا فرضنا ان الانتقادات
التي سقناها ضد المعيار المقترح ليست قائمة ، او
انها يمكن ان تدحض بسهولة . واذا فرضنا ان

المعايير التي ناقشناها كلها معايير صالحة وضرورية. وإذا فرضنا فوق ذلك ، أن هذه المعايير تنطبق على بعض التفسيرات وأنها تنطبق بطريقة متعقبة إلى أقصى حد . إذا فرضنا هذا كله وسلمنا به ، فهل من شأن هذا التسليم أن يؤكد لنا تأكيداً قاطعاً أن التفسير صادق ؟ هناك شك في ذلك ، وجدود هذا الشك تكمن في العلاقة بين المحلل والمرضى فإن هذه العلاقة علاقة فريدة خاصة إلى أقصى حد ، علاقة تختلف اختلافاً بيناً عن العلاقة العادية بين شخصين يتجادبان الحديث في الحياة العادية . فقد اتضح أن هذه العلاقة الخاصة من شأنها أن تجعل المريض معرضاً للإيحاء من المحلل النفسي ، وأكثر من ذلك تجعله إلى حد كبير مستعداً لتقبل هذا الإيحاء . وبناءً على ذلك . فإن المحلل النفسي حين يطبق نوعاً من القوالب الروائية على المريض فإن هذا الأخير يكون معرضاً لأن يقبل التفسيرات التي يدلي بها المحلل النفسي نتيجة لهذا التطبيق ، يتقبلها على أنها صادقة على نفسه . ومن هنا يكون اتفاق تفسير ما من هذا النوع مع المصايير التي ناقشناها ليس كافياً ليثبت لنا أن هذا التفسير صادق على المريض في الواقع . وغاية ما نستطيع هذه الحقيقة أن تدلنا عليه ، هو أن المحلل النفسي كان ناجحاً كل النجاح في تحويل المريض إلى شخص ينطبق عليه هذا النوع من الرواية . وبالتالي تحويل المريض إلى شخص يبدو هذه التفسيرات صادقة عليه ، يبدو صادقة سواء للمريض نفسه ، أو للمحلل .

المسألة الثانية : أن التفسير ليس حكماً اخبارياً ، ولا يفيد في فرض فرض عن المريض وبالتالي هو غير قابل للصدق أو للكذب ، وهذه صعوبة من أقوى الصعوبات التي تجعل البحث في معايير لصدق التفسير في التحليل النفسي بحثاً وعراً لا ينتهي بنهاية مرضية . فنحن عندما بداننا البحث عن معايير الصدق للتفسير أخذنا بالفكرة العامة التي تقول أن المحلل النفسي عندما يعطي تفسيراً ما ، فإنه بذلك يصدر حكماً ذا طابع اخباري في أساسه ، وأن هذا الحكم بالتالي يفيد أساساً في فرض فرض عن المريض . وإذا كانت هذه هي الفكرة من التفسير ، فإنه يكون من المتعشى معها ومن الطبيعي أن نبحث عن معايير للصدق ، وأن نتوقع في هذه الحالة أن يكون اكتشاف هذه المعايير أمراً يسيراً إلى حد ما . لكن مما يشكك

فيه أن تكون هذه الفكرة صحيحة . وفي هذه الحالة تكون الوظيفة الأساسية للتفسير الذي يعطيه المحلل النفسي للمريض ليست وظيفية اخبارية أو وظيفية فرض فرض بالمرة وإنما يكون التفسير في هذه الحالة أداة ، لأن المحلل يكون في الأصل هادفاً من وراء أدلته بهذا التفسير إلى أمرين : **أولهما** أن يقطع حديث المريض ويدفعه لاستنباط اتجاهاته وتبسيها والتحدث عنها في ذلك الوقت بالذات . **وثانيهما** أن يحول المريض من شخص منسحب مقلق إلى شخص مستريح منسبط . ويمكن القول حينئذ أن العبارة المقصورة التي يقولها المحلل النفسي في هذه الحالة عبارة مغيرة أو محولة ، وأنها من هذه الناحية ذات طابع خاص مميز يميزها عن العبارات المقصورة الأخرى التي يستعملها الناس من غير المحللين النفسيين . نستخلص من هذا أنه مما لا يحق لنا ، ومن غير المعقول ، أن نفترض أن عبارة تفسيرية يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة . وبالتالي أن التفسير في عملية التحليل النفسي ليس له معايير صدق ، ومن هنا كانت صعوبة البحث عن مثل هذه المعايير التي لا وجود لها .

وهكذا ينتهي « فارل » إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها كل من حاول أن يبحث عن معايير تضمن اليقين الموضوعي للتحليل النفسي . وينتهي في النهاية إلى ما انتهى إليه « فرويد » في رده على الاعتراضات التي وجهت إليه في هذا الصدد . ذلك الرد الذي سقناه في أول هذا المقال والذي يؤكد أن هذه الاعتراضات تدحضها التجربة العملية أكثر مما يدحضها التفكير النظري . والتجربة تثبت أن للتفسير في عملية التحليل النفسي وظيفية مشتعلة ووظيفة محولة وظائف أخرى كسائر وظائف أدوات التحليل النفسي . وأنها جميعاً تعمل على نجاح عملية التحليل النفسي . ولذلك لا معيار لنجاح هذا التفسير في نجاح عملية التحليل النفسي . ثم نجاح هذه العملية في النهاية . وأن ذلك هو المعيار عند البرجماتيين .

فهل سيبقى هذا الموضوع معتمداً للبحث والتعليق ؟ أرى أنه سيبقى كذلك ما بقيت نيتنا فلسفة علوم يهتمون بسلامة الفكرة من الوجهة النظرية ، وما لم يتحول هؤلاء الفلاسفة إلى محللين نفسيين يقتنعهم مثل هذه المعايير الرحمانية دون سواها من المعايير .

مفاتيح فلسفة الدين

بقلم :

فؤاد كامل

المقام يشهد أعلامه وأرسطو من المصادر الوثيقة . ونحن نطلق تسمية الفلاسفة السابقين على سقراط presocratiques على فلاسفة مدرسة ميليزيا أو الفلاسفة الإغريق ، لكي نبين أن سقراط كان الحد الفاصل بين عهديين ، وأنه يلم بأطراف الماضي في قبضة ، ويشير إلى المستقبل بقبضة أخرى . غير أن هذا التحديد لا يخرج عن كونه اختيارا ذاتيا لا يصور الواقع التاريخي تصويرا دقيقا ملزما .

والواقع أن تاريخ الفلسفة لا يسير على هذا النحو من البساطة والتبسيط . فتاريخ الفلسفة الإغريقية ليس هو تاريخ الفلسفة بوجه عام ، والحقبة التي انقضت من طالع إلى جان بول سارتر تقل عن ثلاثة آلاف عام ، أي أنها قصيرة إذا قيست بتاريخ الإنسانية الذي يمتد مئات الآلاف من السنين . ومن الحق أنه لا شأن لطول الزمن أو قصره بهذه المسألة ، ولم يكن الكيف تابعا لكم بأي حال من الأحوال ، بيد أنه من الحق أيضا أن الشعب الإغريقي ، ليس هو « الشعب الفلسفي المختار » . ويتحيز مؤرخو الفلسفة الغربيون أحد التحيز للفلسفة الغربية حين

الدين أسبق من الفلسفة . . هذه حقيقة لا يمارى فيها أحد ، إذ تشبها دراسة الحضارات القديمة ، ودراسة الشعوب البدائية . أما إذا قلنا أن فلسفة الدين أسبق من الفلسفة ، فهذا مالا يتفق عليه الكثيرون .

وإذا كان البحث عن المنابع والأصول ينطوي على شيء غير قليل من التعسف ، فإننا نستطيع أن نقول مع ذلك أن الفلسفة قد بدأت - على وجه التقريب - في القرن السادس قبل الميلاد ، على أيدي الإيونيين في آسيا الصغرى . وليس معنى ذلك أن انشغال الإنسان بمصيره لم يبدأ إلا حين أخذ يتسائل مم خرج الكون : من الماء أو من الهواء ، أو من التراب أو من النار ؟ فإن قلق الإنسان على مصيره أقدم من ذلك كثيرا ، وأسبق على صياغة ذلك القلق والتعبير عنه . وإذا كان تاريخ الفلسفة يبدأ بالإيونيين الذين عاشوا في القرن السادس قبل الميلاد فماذا ذلك إلا لأن اليونانيين الذين عاشوا في القرن الخامس قبل مولد المسيح قد أنفذوا أفكار هؤلاء الإيونيين أوجزها ضئلا منها على أقل تقدير - من الضماع - وفي هذا

يزعمون أن الغرب هو وحده الذى خلق ، وأنشأ وطور التفكير الفلسفى ، إذ يحق لدارسى الحضارات الصينية والهندية المتصممين أن يحتجوا على هذه الطائفة فى تاريخ الفكر الفلسفى . والواقع أن الشرق لم ينشأ أنظارا « حكيمة » وتأملات فلسفية فحسب ، ولكنه سبق الغرب أيضا فى مجال التفكير الفلسفى ، كما أنه لم ينجح فى العمل على ازدهار تلك الانظار والتأملات بين صفوف مختارة فحسب كما هو الحال عند الاغريق ، بل نجح فى العمل على ازدهارها بين جماعات بأكملها . وقد وصل الشرق الى ذلك ، لاعتن طريق المدارس الفلسفية والوسائل الشكلية . ولكنه وصل الى ذلك بوسائل أكثر من ذلك مباشرة ، واشد عينية . فضلا عن ذلك فإن التعارض المتطرف الذى يقيمه كثير من المؤرخين بين الفكر الشرقى والفكر الغربى متعسف غير علمى ، إذ أثبتت الدراسات التاريخية الحديثة أن الحضارتين الشرقية والغربية قد تفاعلتا منذ أقدم العصور . ونحن ، وإن كنا نستطيع أن نميز الواحدة عن الأخرى - إلا أن احدهما لا يمكن أن تستبعد الأخرى ، نتيجة لاتصالهما الوثيق فى أكثر من مرحلة من مراحل التاريخ . وهكذا يمكن أن يعد أرجح تكوين الأفكار الفلسفية الى الاغريق وحدهم تحيزا أو جهلا . والواقع أن ما يمكن أن نؤزوه الى اليونانيين هو أنهم أول من ابتكر نزعة صورية معينة ، أعنى منهجا فى التفكير يمكن أن تنتظم بمقتضاء المعارف المشتتة وتصل الأفعال المتباينة . وهذا المنهج ، أو المنطق - إن شئنا الدقة - لا يشمل كل شروب المنطق ، ولكنه يتسم بقوة وفاعلية لا سبيل الى انكارهما . أضف الى ذلك أننا مدينون الى سقراط بالتفاته الى الذات، أو الى ماهو كلى universal فى الذات ، وتفضيله لمعرفة الذات على معرفة العالم ، وبهذا المعنى كان مؤسسا - بحق - للفلسفة كما يفهمها أصحاب النزعة الانسانية الغربية . ومع ذلك فإنا نخطئه أشنع الخطأ حين نعتبر هذا الكشف السقراطى بداية مطلقة ، وأنه لم يستند على شيء سابق ، والحقيقة أنه نقطة بلوغ لا نقطة بداية . فإذا كنا لانستطيع أن نتوغل الى أبعاد من مدرسة ميليزيا فى تاريخ الفلسفة ، فإننا نعلم أن مفكرى هذه المدرسة قد آمنوا النظر فى الأساطير الكونية - التى تتناول نشأة الكون cosmogoniques - والتى تتضمنها

التقاليد الدينية . ومن نكد الطالع أن أرسطو وتلاميذه لم يلتفتوا الا الى طاليس وأنكسمانسفر وأنكسيميس . والواقع أن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة يمثلون مرحلة الطفولة فى العلم كما يمثلون هذه المرحلة نفسها فى الفلسفة ، غير أنهم يمثلون هاتين المرحلتين من الطفولة ابتداء من نظريات نشأة الكون الدينية التى وصلت اليهم من مصر ومن بلاد ما بين النهرين . ومن هنا يمكن أن نعد الدين أصل كل تفكير فلسفى ، بما فى ذلك الفكر الاغريقى ، فهو يزود العلم بمجموعة من الصور يختار من بينها تمثلا أوليا للكون ، وهو يزود الفلسفة بمعنى اللامتناهى والعدل والظلم والفانى والخالد ، وهذه كلها معان تتجاوز مستوى الملاحظة الوشعية البسيطة .

ويمكن أن تنطبق هذه الملاحظات نفسها على المفكرين الذين تلووا ذلك ، فثيغافوراس ومدرسته يمزجون باستمرار بين الدين والفلسفة ، ومدرسة أقريطونة ، أو ايطاليا القديمة ، حوالى عام ٥٣٠ ق م « عبارة عن رابطة دينية ، أنشأت على غرار الحلقات الأورفية . الا انها تختلف عنها فى أنها تضيف الى مناهج تطهير النفس ، نوعا من الرياضيات الرمزية التى تتحقق منحى يختلف عن الأسطورة والشعائر الدينية . فهى تنطوى على لون من ألوان الانسجام الكلى ، أما المدرسة الفثاغورية فإنها تعد السابقة التى منعت الفلسفة الاغريقية من أن تتخلص كلية من الطابع الدينى . وليس خاليا على مؤرخى الفلسفة أن هذه المدرسة تضرب بجذورها فى الديانات الشرقية بعامة والديانة المصرية بوجه خاص .

ويأتى بعد ذلك هرقليطس الذى عاش فى مدينة افسوس فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد فيتخذ من المعتدلات الشعبية موقف الاحتقار ، ويرفض الأسرار الاورفية جملة وتفصيلا ، ويستنكر الطقوس الديونيزوسية ، ومع هذا كله فإن نظريته فى منشأ الكون لا تقل أسطورية عن نظرية فلاسفة ميليزيا . ولكنه يعطى تفضيله لما يراه بعينه على ما يقال له ، ويحاول أن يجعل العيان intuition سائدا على التقاليد . وهو يحاول أيضا الكشف عن صيغة كل شيء أو عن « اللوغوس » Logos والكلمة أو القانون ، ومع ذلك فإنه يظل حلقة فى سلسلة

التفسيرات السابقة للكون . وفكرة الاضداد التي تعد نموذجا للدialektik الذي يحرك الصراع الداخلى فكرة قديمة قدم الافكار الماثوية التي يرجع اصلها الى عصور مسحية في التاريخ (تقدر فى بعض الاحيان بشيانية عشر قرنا قبل ميلاد المسيح) اما فكرة وحدة الاشياء الكامنة وراء ما يعترها من تغيرات وتحولات ، فيمكن ان تعد اقل قدما من فكرة الاضداد وان لم يكن ذلك بدرجة عالية من اليقين . وعلى أية حال يمكن ان نعد الثنائية ووحدة الوجود تصورين مكملين احدهما للآخر ، اذ نجدهما متمزجين فى اساطير الحضارات الموقلة فى القدم . وهرقليطس يمثل من هذه الناحية تقدما على الاساطير التلقائية فهو يؤكد فكرة القانون والمعيار ، ولكن فكره لا يتحسك دون الاسس الاسطورية التى يدعى تجاوزها

اما بارمنيدس (الذى عاش فى ايليه فى القرنين ٥-٦ قبل الميلاد) فانه يعد تلميذا للفيثاغوريين . ومن ثم فانه يشائر بالنظريات الاويفية ، كما انه يعارض هرقليطس فيضج الثبات والدوام وهويه الوجود فى مقابل الحركة والتغير . ولكنه يوفق بين بحثه عن الحقيقة عن طريق الرياضة ، وبين فهمه لما هو حسي متوسلا بالاسطورة . ويبدو ان هذا الاتحاد بين الفكرة والاسطورة ، وهذا التعاون العظيم بين التصور والصورة هو الغذاء الطبيعي لحياة الروح ، بل انه الشرط الحقيقى لكل فلسفة .

ومن الميث ان نستعرض هاهنا السمات المميزة للفلاسفة السابقين على سقراط جميعا مثل زينون واميلوقليس ، وانكساغوراس ، وليوقيبوس ، وديموقريطس الخ ، غير اننى تستطيع انؤكد امرين بالنسبة اليهما جميعا ، اولا : انهم قد استغلوا جميعا الاسس التى وضعها المفكرون الايونيون ، وثانيا : ان الاساطير الاصلية توجد لديهم جميعا بنسب متفاوتة ، والسوفسطائيون هم وحدهم الذين ينظرون الى الماضى نظرة ارتياب وشك ، ولكنها نظرة يشوبها الكثير من الادعاء والتظاهر ، ذلك انهم قد اخذوا على عاتقهم رسالة انقاذ الفن والثقافة وهذا معناه انهم لايرفضون « فبليا » a priori أى تراث . واذا كانوا قد اهتموا الدين بحجة انه من القموض بحيث لا تنقى حياة الانسان القصيرة لفهمه ، فانهم لم يهتموا الاخلاق اهتماما تاما .

ويستمد سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق م) شعاره المعروف « اعرف نفسك » من حكمة منقوشة على معبد دلف . فضلا عن ذلك فان « الجنى » الذى تحدث عنه يستمد الهامه من منابع دينية ، لائن منابىس دنيوية ، ويبدو من الواضح انه يختلف عن السوفسطائيين فى احترامه للعادات الدينية السائدة فى عصره وفى احترامه لقوانين المدنية . وفى استخدامه للحجاج والمناقشة ، يفكر ويجادل ويحاول الوصول الى تعريفات للمفاهيم والتصورات من اجل الفعل . وحين ننتهى من التفكير والجدل والتعريف ، يصبح توافق الذات مع نفسها اممية مطلوبة على مستوى الافعال ، وفى السلوك العملى .

وقد سار افلاطون (٤٢٧ - ٣٤٨ ق م) على طريق استاذاه ، وحاول اثراف فلسفته اثراف ملحوظا . وبهنا ان نبين الى اى حد ارتبطت فلسفة افلاطون بالدين . فهى من ناحية الشكل لا ترفض التعبير الاسطورى ، ومن ناحية المضمون يستمد افلاطون وحيه من الدين ، ويعتقد ان العلوم ينبغى ان تنزع الى تأمل الخير المطلق ، وفعل التأمل هذا ينبغي ان تحشد له كل قوى النفس . والواقع ان العلم والتصور يتفاعلا عند افلاطون بحيث يصبح مصير النفس وخلودها شرطا لامكانية العلم . والاسطورة عند افلاطون ليست برحانا على شيء ، وانما تاتى بعد البرهان ، وهى وان تكن اسقاطا فى الزمان لشيء لا ينتسب الى الزمان - كما يقول افلاطون - فانها الصورة الوحيدة للفكر التى يمكن ان تنفذ الى الوعى فى مستويات معينة يصل اليها . فهى ليست نسخة مشوشة من الفكر او وسيلة لمساعدة هؤلاء الذين لا يفهمون عن طريق الدليل التصورى ، ولكنها حديث فيلسوف الى فلاسفه ، وما يضعف هذه الاساطير ، هو ان افلاطون يضمها واعيا ، فهو يملك مفتاحها قبل ان يشكلها ، او ان شئتوا الدقة قبل ان يعيد تشكيلها ، لان هذه الاساطير قديمة قدم الحضارة الاغريقية ، ومن النادر ان يخلفها افلاطون جملة وتفصيلا . وخلاصة القول : ان افلاطون يعلمنا ان الفلسفة ينبغى الا تهيب الاساطير بل انها تستطيع ان تستغلها وان تستغنى بها .

ونذكر ارسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق م) عابزين ، لان مؤلفاته التى بقيت لنا لاتصل بموضوعنا اتصالا وثيقا ، ذلك ان روحه الوجودية لم تترك فى نفسه

مكانا فسيحاً للالهام الصوفي ، غير أن نظريته في المحرك اللامتحرك ، وفي الفعل المطلق ، الذي هو نفسه « فكر الفكر » قد كانت أساساً شيد عليه فلاسفة العصر الوسيط ، وبخاصة القديس توما الأكويني مذاهبهم اللاهوتية .

ويعد « أفلوطين » (٢٠٥-٢٧٠ م) أبرز فلاسفة العهد القديم من حيث الطابع الديني الذي تتخذته فلسفته . وقد فطن الفلاسفة المسيحيون إلى هذا الطابع الديني في فلسفة أفلوطين ابتداء من دنيس الأروباي حتى متصوفة العصر الحديث من المسيحيين ومن الحق أن أفلوطين يسمى إلى الخلاص ، ولكنه « وصل إلى ذلك بالعقل ، ويعترف في الوقت نفسه من العقل تابع ، وأنه وسيلة للانتقال إلى الواحد وإلى انشعالي ، ولهذا فإن انشعوا الأخيرة تفترض نوعاً من الفضل الإلهي » وهذه هي التجربة الدينية التي تتجاوز العقل عند أفلوطين ، أو هي اتحاد العقل بالمطلق . ومن ثم يمكن أن نقول إن فلسفة أفلوطين نزعة عقلية صوفية إن صح هذا التعبير ، ويقوم اسبينوزا في الباب الخامس من كتابه « الأخلاق » بمثل هذه المحاولة وإن لم يميز بوضوح بين الجهد العقلي والدخول في اللاتين الأسرار .

وحين نتجساوز العصر الهيلينستي نخطو إلى عالم مسيحي ، وتضع الحضارة الجديدة مشكلة العلاقة بين الفلسفة والدين في صورة جديدة هي مشكلة العقل والإيمان ، أو مشكلة الفلسفة واللاهوت وهذه النظرة تسود العصر الوسيط كله ، وتمتد إلى العصر الحديث .

ولقد كانت مؤلفات القديس اغسطين ، وأوريجين ، وبونا فنثورا من العوامل التي ساعدت على انفصال اللاهوت عن الفلسفة ، وهي نتيجة لم يكن يهدف إليها هؤلاء المفكرون الثلاثة . نتيجة واجهها القديس توما الأكويني في شجاعة مذهلة ، ففصل في جسارة بين حقائق العقل وحقائق الإيمان ، وجعل الأولى من نصيب الفلسفة ، والثانية من نصيب اللاهوت ، وكان في تمييزه هذا يود مخلصاً أن يعمل على التوفيق بينهما ، ولكنه بتحديد هذا لمجال كل منهما : الحقائق الطبيعية للفلسفة في مقابل الحقائق الغائفة على الطبيعة للاهوت . . قد حدد مصير الفلسفة الحديثة التي لم تمد تجد ما يدعوها إلى مثل ذلك

التوفيق الذي أراداه القديس توما ، والحق أنه كان يملك كفاءة مزدوجة في مجال اللاهوت والفلسفة على السواء . فهو من هذه الناحية لا يعد مسؤولاً وكذلك لا يعد ديكرات مسؤولاً ، لأنه لم يكن يقصد أن تنتهي ثنائيته إلى القطيعة التامة بين اللاهوت والفلسفة . ومهما يكن من أمر فقد حافظت انزعجة التوماوية على استقلال الفيلسوف من ناحية ولكنها أتاحت لبعض المفكرين أن يتخذوا لقب الفيلسوف دون أن تكون لهم أية علاقة من قريب أو بعيد بالمشكلات الدينية ، من ناحية أخرى ، وقد تكون هذه النتيجة الثانية أمراً ضاراً بالفلسفة ، لأن الحوار مع الدين لم ينقطع عن أن يكون منبهاً للفيلسوف على مر العصور ، وقد شعر إبعاد الفلاسفة عن الالتزام بتعاليم الدين مثل اسبينوزا وكانت وهيجل وكونت ورينوفيه وبرونشفيج وآل الخ . . . الخ بحاجتهم إلى مواصلة هذا الحوار ، ولو كان ذلك بطريقة سلبية ، أعني نقدية .

والإلى هذه الطريقة النقدية للدين لجأ اسبينوزا ، إذ كتب نقداً للمديانتين اليهودية والمسيحية حاول أن يحدد فيه مفاهيم الوحي والنبوة والتاريخ الديني وأفلوطين . . . الخ ، وانتهى من هذه المحاولة إلى الحكم على هذه المفاهيم بأنها غير خليقة باتخاذ وضع فلسفي ، أو أنها باعتبارها تعبيراً تاريخياً وتحديداً عقائدياً غير قابلة لأن يتمثلها الفكر الفلسفي ، ولم تبق غير خطوة واحدة للقول بأنها لا تنسق إلا بالنسبة لرجل الدين .

وهكذا نشأت أزمة الثقة بين اللاهوتي والفيلسوف : اللاهوتي يستخدم عقله في فهم إيمانه ، ولكنه يبدأ بالإيمان ، بينما يبدأ الفيلسوف بالعقل ومن ثم فإنه يقف من معطيات الإيمان موقف الناقد ، وهو يحلل هذه المعطيات ولكنه لا يفهمها لأنه يقتصر إلى إيمان رجل الدين . و « كانت » لم يفهم معنى التصوف نتيجة لنزعته الأخلاقية ، كما أنه لم يسلم بالرابطة القائمة بين الإيمان والتركيبات التاريخية . وقد قدم شلنج تفسيراً دسماً للأسطورة والوحي ، ولكنه أعلن أن ماهو وضعي ، يأتي في المرحلة الثانوية من الدين ، وأن الصورة الدينية الأولى طبيعية في جوهرها ، وأسطورية في تعبيرها .

أما هيجل فإنه يعد أول فيلسوف للوضعية المسيحية ، إذ يعتقد أن هذه الوضعية لحظة ضرورية

من لحظات الديالكتيك - وكل تجربة روحية أو تقدم انساني يحتاج لكي يكون متسقاً وكاملاً الى التعبير والى التحقق العيني ، والاتصال المتبادل . وهذا الخارج - أن صبح هذا التعبير - لا يعد نهاية للعملية ، بل ينبغي السير من الخارج الى الداخل ، كما انتقلنا من الداخل الى الخارج . فاذا وضع الدين التاريخي داخل هذا السياق ، لم يعد واقعة غير قابلة للتمثل بالنسبة للفيلسوف ، بل يصبح - وفقاً لقانون التعبير - شكلاً حقيقياً من أشكال المطلق . ولا يعود الدين شيئاً عرضياً ، بل ضرورة لازمة .

وكان على الفلسفة الحديثة أن تنتظر « هيرل » لكي تجد في الفينومينولوجيا فهماً فلسفياً للدين يرمي الى غاية أخرى غير ادانة الدين أو تجاوزه ، والحق أن هيرل لم يطبق هو نفسه منهجه على الدين ، بل قام عنه بهذه المهمة تلاميذه ونذكر منهم ماكس شيلروج ، فان در ليفوف G. van der Leeuw وهذا المنهج يتألف من وصف الدين الوضعي كما يظهر أمامنا وفي المعنى الذي يدعيه بغض النظر عن قيم الحياة التي يكتشفها المؤمن بهذا الدين ، قبيلاً بفحص التركيبات الدينية كالعقائد والطقوس

..... الخ واحداً واحداً ، ثم يحلها دون أية غاية اللهم الا المحافظة على معنى كل جزء في إطار الكل ، مع تأجيل الحكم ، والابتعاد عن كل تقويم . ولهذا فنحن نعتبر هذا المنهج ناقصاً ، لأن وظيفة الفيلسوف هي الحكم ، ولا بد لكي يصبح « علم الظواهر الديني » فلسفة للدين أن تضيف الى الوصف الحكم على ما نصفه . ولكن يجب أن نعلم أن فلسفة الدين ليست هي الدين نفسه ، فالنظرية لا يمكن أن تكون هي العمل والمعرفة ليست هي السلوك العمل ، والتجربة الحية لا يمكن تحصيلها بالمعرفة وإنما بالمعاناة والمكابدة . والحق أن المناخ الطبيعي لازدهار الفلسفة لا يوجد في حجرة المكتب المغلقة ، ولكنه يوجد في الهواء الطلق وسط الحياة والأحياء . ومهمة الفيلسوف هي ان يدرس النشاط الانساني في ظواهره ونظمه المختلفة في اللغة في الاساطير الشعبية ، في الفنون ، في العلوم والاديان ، وعليه ألا يفسر المفاهيم بحسب ، بل عليه أن يفرض ويحلل ويحكم على النظم والمؤسسات أيضاً . والدين مؤسسة بين غيره من المؤسسات ، ولهذا كانت دراسته واجبة على الفيلسوف الذي ينبغي ألا يمنعته شيء عن دراسة أي شيء .



الاصفار تدور في حلقة مفرغة

يقام: مالك حداد
ترجمة: إدوار الخراط

ARCHIVE

الفرنسية وإن كان وجدانه كله يتعلق أكبر التعلق بعصرانه العربية ولغتها .

عسى أن تنتبه إلى وصل الوشائج وتوليق الروابط بيننا وبين الكتاب الجزائريين ، وقد أسهموا في فنون الرواية والمسرحية والشعر بنصيب له خطره ووزنه ، والتفت العالم الغربي كله بالتقدير والاعجاب إلى ما قاموا به في هذه الفنون ، خلال فترة وجيزة .

وحسب أن نرد إلى هذه الفنون العربية الأصيلة لغتها السليبية كما يقول مالك حداد ، وإن نعيدها من المثلى إلى روطها الحق ، اللغة العربية .

الترجم

إن البحر الأبيض المتوسط لا يفرق بيني ووطنى بقدر ما تفرقني عنه اللغة الفرنسية . ومع ذلك فلو كنت أكتب بالعربية لقسم حاجز بيني وقرأى : هو الأمية .

إن أبناء عمومتي في الجبال المجيدة المعرة لن يكون يوسهم أن يقرأوا عمك الجليل « نجمة » أي كاتب ياسين . وشيوخ « دار السبentar » لن يكون لهم أن يتعرفوا على أنفسهم في روايتك « البيت الكبير » أي

مالك حداد من اعلام الكتاب الجزائريين الشبان . ولد في مستنقعة ، ودرس القانون في باريس أين إروانسي في جنسوب فرنسا ، ثم عاد إلى الجزائر فصدر فيها مجلة « التقدم » . وفي ١٩٥٥ رجع إلى فرنسا وصدر له في ١٩٥٦ ديوان شعر هو « الشقاء في خطر » ثم صدرت له على التوالي روايات « الانطباع الأخير » و « سوف أميك غزالة » و « التكميسة والدرس » و « صيف الأزهار لم يعد يجيب » . وفي ١٩٦١ أصدر مالك حداد ديوان شعر « استمعي وأنا أتأديك » التي تنصهده هذه المقالة : « الاصفار تدور في حلقة مفرغة » .

وفي أسلوب مالك حداد تلحق صنعة الشاعر الفنية وقدرته على الجمع بين الصورة الموحية والمباراة الفلسفية . وهو في أعماله يعالج التناقض بين الجيل القديم والجيل الحديث في الجزائر ، بين القيم الحضارية العربية والتدنية القروية الحديثة ، بين التقاليد الدينية والعربية من ناحية والتربية الفرنسية ومآله من آثار لا نذكر في تكوين الجزائريين المعاصرين ، من ناحية أخرى .

وفي هذه المقالة يتناول مالك حداد مشكلة من أخطر المشاكل التي تواجه الثقافة في الجزائر ، وفي العالم العربي من لغة ، هي مشكلة لغاتية لغة الثقافة والحضارة في الجزائر المعاصرة ، ونفى اللغة العربية فيها عن أرضها ، وموقف الكتاب الجزائري الذي يحضره مأساة الاستعمار الفرنسي في وقته إلى الكتابة باللغة

عزى محمد ديب ، أنت الذى تنسج اعمالك من الأحداث اليومية المألوفة الملونة . من ذا الذى قرأ « الزرال » بعد أن كتبها كريا ، فى أزقة « بليدة » التى لا تزدهر فيها الورود ؟ ومع ذلك فإن الموسيقى قد وجدت الاوركسترا التى تليق بها . اى مارسيل موسى ، مالك اوارى ، فرعون ، سيناك ، مصرى ، جول روى ، عمروش ، صديقى ووجيه كوريل ، روبليس (هـ) : يوسعى أن التقط كلمة قالها أحد الناطقين بلسان فرنسا الحرة ، وأن أقول لكم ، مع كل احترامى وكل محبتي : ان الجزائر ترفع السلاح تحية لوحدتكم .

اننى احبكم ، انتم « اليتامى المحرومون من القراء الحقيقيين » ، انتم « المثلون » النبلاء ، انتم « المستوحدون » الذين نزلت بهم المأساة . كان لكم ان تحملوني على فهم عبارة « اليشارة فى الصحراء » . ولكننى ، بعد أن اتجاوز حدود المرارة ، أعرف أن رسالة الصحارى هي أن تنبثق منها التاملات الواسعة الشاملة ، والغزلان .

سوف نضع الحرب اوزارها الآن . سوف تصمت البنادق واننى لاعتقد ان البارود لن ينطلق منذ الآن الا فى صواريخ الاحتفالات . سوف تصمت البنادق ، وسوف تستحيل الكلمات المجنونة الى هتافات فى المساء وامازيج تشدو بها لابليل الحبل فى الليل . سوف تصمت البنادق ولكن الأقلام لن تصمت . وها هي ذى نبوءة سانت اكسبيري تتحقق « برج ينبنى تشييده » . ان الجبر سوف يتقن الراية من الدم .

سوف نغادر المنفى . وسوف يعود النبت المتزعزع من أرضه ، الى روضته . وسوف يجد كل منا مكانه ، فى تواضع وفهم . وسوف يكون لكل منا جدواه وفائدته فى البيوت التى سوف يتحتم بناؤها او إعادة بنائها . وسوف تعود فنرى الربوع المفقودة ، والجحيم والجنات التى حرمتها منها ، تلك المغاني التى تعز بها اللكريات أو يجيش لها القلب ، وتبرد حنيننا الى الوطن واشواقنا الى العودة .

حب الجزائر طوح بنا فى متاهات التشنت الغريبة . لم نفر من المأساة إذ أننا نعلمها معنا فى اخيلتنا ، ونقلها معنا ، ورواياتنا وقصائلنا تسهم بدورها فى أن تعرف الناس بالمأساة ، والشهادات

(هـ) كلهم كتاب جزائريون ، من اصول عربية او فرنسية ، يكتبون باللغة الفرنسية . (الترجم)

الحارة تؤكد لى ان هذه الروايات والقصائد تغدى بالامل ، أولئك الذين لا يفتقدون الى الامل ولكنهم يجدون فى اللابل التى تصدح لهم مزيدا من أسباب الايمان بالربيع . وأقصده هنا تلك الخطابات التى تأتينا من السجون ، وتلك الرسائل التى ترد من الجزائر ، ومن فرنسا ، ومن أوروبا ، هذه الخطابات والرسائل التى نرى فيها ، نحن التلاميذ ، علامات تقدير . فلذا كنا دروسا فانها شهادة نجاح . هذه الرسائل والخطابات التى رأينا فيها نصالح كما رأينا فيها دعوة متطلبة ملحة .

سوف نغادر المنفى ، لا لكى نقوم بحج ، ولا لكى نعود الى منابنا ومصادرنا - ذلك أننا لم نفرق قط عن منابنا ومصادرنا - وانما لأننا كالثعلب والجديد فى وقت واحد ، لكننا مع ذلك نخضع للشروط والظروف التى تعامها طينسا اوضاعنا . ذلك ان الشجرة بحاجة الى جذورها ، والجذور بحاجة الى التربة التى تصرف فيها . ذلك ان الوطن ، فى مرحلته الاولى الدقيقة المجيدة من مراحل حقيقته ، انما هو ظاهرة تكاد أن تكون ظاهرة عضوية . قلت منذ قليل « اليتامى المحرومون من قرائهم » . وأرجو أن يفهم عنى ، ويفغر لى ، كل أولئك الذين تتبعوا اصمالي الادبية من جرم خلق او من فضول .

لنا قراءنا ، بل لنا الكثيرون من القراء ، فى الجزائر وفى فرنسا ، وندها كان لنا قراء فى كل مكان . نحن نعرف ان هذا الاهتمام الذى نشيره عند الناس ، وهذا الانتباه الذى يتفق لنا ان نجذب به ، ليس براء من التعاطف السياسى ، وانه يتجاوز حدود شخصية الشاعر او الروائى . التحية انما نرجى ، من طريقنا ، الى الجزائر التى تعانى وتناضل . اننا المنتفعون الاشياء من اوضاع مضطربة مؤلمة .

لنا قراءنا ، بل لنا الكثيرون من القراء . والناشرون الذين يقومون بنشر اعمالنا وهم دائما اصدقاء ، لم يكونوا مضطربين من حقيقة الحال . وقد استطاعوا ان يؤلفوا بين ضرورة الاختيار الدقيق الذى تتطلبه مهمتهم ، والتجاذب الذى يتاح لما ينشرونه لنا ، وهو نجاح يرجع الى اسباب سياسية . واننى لاستاذن هنا فى أن احبب أولئك الناشرين منهم الذين لم يترددوا فى أن يغامروا بمخاطرات مادية جسيمة تتعلق بحياتهم وحريرتهم ، وفاء منهم للقيم الانسانية التقليدية وتلبية لواجب يروونه فرضا عليهم باعتبارهم طلائع الصوف .

نعم . لنا قرأونا ، بل لنا الكثيرون من القراء . ولكن احدا لم ينعنى من أن أكرر أننا ، بقوة الأشياء وضرورتها ، يتامى محرومون من قرائنا الحقيقيين . ذلك أن من كتب لهم في المكتبة الأولى ، لا يقرأون لنا . وهم على الأرجح لن يقرأوا لنا شيئا أبدا . لا ٩٥٪ منهم يجهلون وجودنا نفسه . هؤلاء القراء الذين أضافوا إلى اسمهم مقطعا واحدا فأصبحوا حفاري القبور المباركين الذين يحفرون قبور كل أنواع الاستعمار ، وهم الذين استبدلوا بمقبض المحراث كعب البندقية ، وأدهشوا العالم كله ، وأرغموا الجنرال ديغول نفسه على احترامهم . هؤلاء القراء الذين يعيشون التاريخ ، ولا يكتبونه . فليس من المستطاع أن يكون للمرء من قلبين في جوفه . هؤلاء القراء الذين لا يقرأون لنا ، وليس في مقدورهم أن يقرأوا لنا ، هم مع ذلك سبب وجودنا ، والسبب الذي نكتب له ، هم سبب الثورة الجزائرية وهدفها : الفلاحون .

تخبرني حكايان ، صورتان من مفايا . كنت ذات يوم في بلدة «كليسون فيران» وكان الجو باردا ، فقد كنا في الشتاء . كانت الأشجار والحيطان سوداء . وكان تمثال أولي التوار الفرنسيين يشق السحب الواطئة . وددت خلف مبنى الشرطة ، وتجاوزت ساحة سوق هي أقرب إلى أسواق البروتانس منها إلى أسواق سيلين ، ودخلت مكتبة لا تبعد كثيرا عن كنيسة ترتفع واجهتها المساء الصليبة في كبرياء ، لكي أشتري صحيفة لا أذكر اسمها الآن . وفي تلك اللحظة نفسها ، ويحكم صدفة مباشرة كان ثم رجل في نحو الأربعين يطلب كتابا من كتبي ، وإن كان ينطق باسمي على نحو شائه مسلوخ . فأعطاه صاحب المكتبة الكتاب . لم يكن ما يهزني عندئذ احساس صيباني ، وإن كان مشروعا ، بالزهو . بل كان انفعالي يتجاوز هوس القروء الذي يصيب أهل مهنتنا ، نحن الكتاب ، كأنما هو من قبيل أصابات العمل . ومضى الرجل بكتابي ، وكان جليا من مظهره أنه مزارع . وألقى بالكتاب على المقعد الخلفي من عربته ذات الحصانين ، وانطلقت المصبرة تتقلقل وتنارجح على أحجار الشسوارع التي توحى ببعض أجيال العصور الوسطى ، ورحلت أحلم . . واتفق لي أن مرت بي صدفة معاملة في مكتبة ببلدة «سان تروبير» . وفي كل مرة كنت أفكر في ذلك القاري.

المثالي ، ذلك الفلاح الذي تشغله اليوم مهمة أخرى ، ذلك الفلاح الذي لا يقرأ لي ، والذي أكتب له ، ذلك الفلاح الذي يجيش قلبه بالحب ، وتثور نفسه بالفضب ، ويندفع في طريق لا يعرف فيه الاعتدال ، ذلك الفلاح الذي أنزل به ليل الاستعمار أقسى ضروب المعنى ، على الأمية .

وصورة أخرى : كان ذلك في باريس ، في سوق علنية لبيع الكتب ، في الساحة الشتوية القديمة لسباق الدراجات البخارية ، وكنت في تلك السنة الكاتب الجزائري الوحيد من بين الكتاب الذين يوقصون على كتبهم عند بيعها . وكنت أحس احساسا حادا بوحدي ، وبأن مكاني ، كمثل للكتاب الجزائريين ، مكانة ثقاة لا استقرار لها .

وعندئذ جاء إلى المنصة التي كنت أقف اليها جزائري ربعة ، دافئ السمرة ، يرتدى ملابس بانافة ساذجة وسلامة هندام لا تشوبها شائبة ، تهز القلب وتنم عن أن صاحبها عامل قد انتزع من تربته، وعلمته العادات التي فرمتها فيه تقاليد التفرقة العنصرية أن الله إنما يقاس بظهوره ، وسألت بالعربية :

— أي كتاب تريد مني أن أحمل معي ؟

فما الأجابة التي يمكن أن أرد بها على سؤال كهذا ، دون أن أجيب من إسلامة والصدق ، يدفعني إلى ذلك الحيود ما أؤثر من كتبي . هي دخيلة نفسي ، أو بدقمتي إليه قروء شخصي خليف بأن يشير السخربة فقلت :

— الكتاب الذي تريد .

فمر بسبابته اليمنى على الكتب ، كما يفعل الأعمى إذ يتردد قبل أن يضغط الزر الكهربائي في المصعد . وقال :

— أنا لا أعرف القراءة .

فلم يسعني أن أمنع نفسي من سؤاله :

— ولماذا تشتري كتابا ؟

ولم يتردد في الإجابة :

— لأنه قيل لي أنك من بلادنا ، وقومنا ، وأنت تتكلم معنا .

وما لبثنا أن كنا نتشارك الذكريات . لي دائما ذكرياتي المشتركة مع الجزائريين الذين التقى بهم ، ولم أترهم من قبل قط ولعلني لن أراهم بعد أبدا . أما قارئ الذي لم يكن يعرف القراءة فقد مضى ، واختفى في غمار الجموع المحتشدة ، وكتابي تحت ذراعه .

لن أنسى أبدا .

وهنا أسمع اعتراضا له وجهته ، لو لم تكن الحجة التي يقوم عليها تسطع منها رائحة فجة خبيثة من سوء النية :

هذا الجزائري الذي اشترى كتابك ومضى به يتأبطه تحت ذراعه ، أليكون حظه من القراءة لك أكثر ، لو كنت تكتب بالعربية ؟

واجابتي على هذا الاعتراض الذي لا يخلو من وجهة ، وعلى هذه الحجة التي تسطع منها رائحة خبيثة من سوء النية :

— بالطبع لا .

وهو ما لا يفسر شيئا . لا ينفي ولا يثبت شيئا . ومع ذلك فالتفسير سهل وبسيط بل هو واضح الى حد الابتذال .

ان الاستعمار قد سلب المستعمرين تراثهم الثقافي كما اغتصب منهم اراضيهم . صادر ثرواتهم سواء كانت عقارية أم ثقافية . وإذا لم يستطع الاستعمار ان يقتل روحهم — فان الروح لا تموت — فلم يدخر وسعا في ان يخفض نورها حتى تسمى ذبالة فضيلة لكي يطفئها في النهاية .

ان تطور عملية الاستعمار يسير إلى مقطعي منقط صارم ، هي عملية فرس جديد . وإذا كان المنظر يطوى راية الخلوب لكي يرفع رايته في محلها ، فانه على نفس النحو يهدم ، ويقاوم ، ويحظر كل ما كان في الماضي — وكل ما يمكن ان يكون — دليلا على فكره الاصيل وعلى مجموع مقوماته القومية ، أو أداة لهما . ولكن الاسلام بقي سساهرا في ليل النظام الاستعماري الحالي .

هناك ظاهرة لم يدرك الكثيرون أهميتها في تفسير اليقظة القومية وكفاح التحرر السياسي : « الظاهرة الدينية » من الوقائع المسلم بها أن الثورة الجزائرية انراهة ثورة دينوية ، وليست بالثورة الدينية . ولكن ليس مما يزعج بهذه الثورة من مصيرها في شيء ان نقر للاسلام بدوره الكبير في الحفاظ على القيم التقليدية وفي الدفاع عما كان من الممكن انقاده .

كان دين القرآن ، وهو الوصي على اللغة والحارس القائم عليها ، قد وقع تحت تحكم الدولة المحتلة بل تحت حكمها وادارتها فعلا . واضطهد علماء الدين وشيوخه . ولولا فسحة من اجل لأوشك الشيخ بن

بلديس ، هذا الرجل الذي وقف موقفا عظيما من الدفاع عن الاسلام ، ان يموت في غيابات السجون ، وان كان قد بارح السجن منذ قليل . على ان أحمد مردييه ، وخلفه في المعهد الذي يحمل اسمه في قسنطينة ، أحمد رضا حوجو ، قد قتل غيلة في مباح مارس ١٩٥٦ في مدينة قسنطينة بالذات .

ومما له دلالة أن كنوزا معمارية مثل مساجد الجزائر ومساجد العاصمة القديمة في نميدى قد اقتضبت وأمتنت مقدساتها حرفيا ، وأحيل بها من فرضها الاصيل لتصبح كالدرايات أو معابد اليهود .

وإذا كان الاستعمار يهاجم الاسلام فلم يكن ذلك من تعصب للدين بقدر ما كان من فطنة للوالب البعيدة ، وعن حيلة في تدبير الاستراتيجية السياسية . هنا تلتقي أحلام السكردينال دي لافيجري والمارشال بيجو : المدفع والمحراث تطلب العمون من السيف والصليب .

في ذلك مثال اولي على سعي الاستعمار الى محو الصبغة القومية والقضاء على الاصول التاريخية .

ومهما افننا في القول فلن نفى حق الدور العظيم الذي قام به الاسلام والقائمون على خدمته ، في الجزائر . بطول امة وأربعة وعشرين عاما من الضغوط الاستعماري ، في خلال هذه الحقبة التي تقع وسط تاريخ الجزائر كالبقعة المظلمة ، هذه النكسة من الاختناق الثقافي والسياسي التي تمتد بين ٥ يوليو ١٨٣٠ وفاتح نوفمبر ١٩٥٤ ، لن نفى حق هذا الدور العظيم في الحفاظ على آخر ما بقي لوطني السليب من خصائص ، وفي الدفاع عن أصالته النهائية ، وفي صيانة ما تمتاز به حياته اليومية من سمات لا يشاركه فيها غيره ، وفي اللود من أصول الثقافية الحق ، وفي الإبقاء أخيرا على ما بقي له من وحدته العضوية ، وانصبايه في قالب متحد في التعبير عن نفسه تعبيرا ناعما من جبلته وبنيته : في لفته .

ذلك ان المرء لا يرضع لسان اللغة من الام وحدها ، ولا يتعلمها فقط في داخل تلك الغلبة المعرة الضيقة النطاق التي تتكون من مائة هي بدورها غارقة في غمار سياق عام اصابه الاملاق الدهني وشاعت طبيعته الأسيلة وناله اضطراب الاصول واختلاط الأنساب ، المرء يتعلم القصة أيضا في المدرسة الابتدائية ، وفي المدرسة الثانوية ، وفي الجامعة . وهل ينسا من حاجة الى ان نذكر عدد الأطفال

الجزائريين الذين لم يتلقوا العلم في المدارس ، أو أن نذكر العدد العديد - وهو أدى إلى الروع والغزع - من أولئك الصبيان الذين وصلوا إلى مستوى التعليم العالي . أن هناك ما هو أهم من ذلك وأخطر ، وأبعد أثقالا في القباء ، وأتاما مضمون التعليم نفسه ومنهجته هي موضوع الاهتمام .

كان التعليم يجري بالفرنسية ، منذ المدرسة الابتدائية ، مع حظر الاستعانة بالعربية ولو كان ذلك من قبيل التيسير على الطلاب من الناحية التربوية البحتة ، وفي السنة الثانية من المرحلة المتوسطة تمس موضوعات جغرافيا الجزائر وتاريخها مما هينا ، وفي المدرسة الثانوية تدرس اللغة العربية ، ويتلقونها الطلبة ، باعتبارها لغة أجنبية . أما الموضوعات الأخرى كالعلوم والرياضيات .. الخ ، فتدرس بالفرنسية .

كانت لغة أمهاتنا متغية في بلادها نفسها . أما الصحافة ، والإذاعة ، والمحاضرات ، والأفلام ، والمسرح ، والإعلانات على الجدران ، والأوراق الرسمية ابتداء من الحوالة البريدية إلى البطاقة الشخصية ، كل ما هو مكتوب ، ابتداء من « ممنوع لصق الإعلانات » حتى لافتات الشوارع ، كل شيء ، كل شيء على وجه الإطلاق ، كان بكل شيء يختصا وحكما باللغة الفرنسية وحدها .

ومنذ آمد غير بعيد كان ينبغي للمرء أن يشهد المدرسين الوافدين من بلدة ما في « بواتو » أو « نورماندي » يصمون بالبلادة والقباء أطفالا جائعين إلى العلم والعرفان بقدر جوعهم إلى الغذاء من ثمار الأرض . ولست هنا ، بطبيعة الحال ، بصدد أن أتنبأ باللائمة على طائفة المعلمين ، ولست بصدد إطلاق الأحكام إطلاقا عاما على نحو مثير . ولكن طائفة المعلمين هذه ، سواء عن إرادة أو عن غير عمد ، وأيا كانت رسائلها التي تختص أصلا بالتزام الحرية واحترام القيم التي يدين بها الآخرون ، هذه الطائفة كانت في الواقع جزءا من الجهاز الاستعماري وأن كانت تحد من مساوئه ، ومن ثم فقد كانت تسهم ، في تكافل عضوي مع وكالات الاستعمار الأخرى ، في تحقيق المساعي المؤلفة التي تهدف إلى محو الصبغة القومية ، والقضاء على الأصول الحضارية - وهو علة هذه الظاهرة الاستعمارية وسبب وجودها .

هذا الميت الميكانيكي كان يستحيل سخفا مطلقا ، ويصبح منامضا للمناهج التربوية - لم يكن يكفيهم أن

يعلمونا أن آباءنا من أبناء الفال ، أو أن السنين كان أجمل أنهار بلادنا ، بل كانوا يلتقون الأطفال ذلك بلغة كانوا يتكفون عن اتخاذها بمجرد أن يتروكا المدرسة . ولذلك اضطروا ، في برامج التعليم الابتدائي ، إلى ادخال « دروس اللغة » ، بجانب دروس مفردات اللغة ، يلتقونها للأطفال المسلمين الصغار ، وكان في ذلك الاعتراف الرسمي الضمني بفرقة اللغة الفرنسية في الجزائر . وما كانت المفارقة لتكون أعظم ، لو أن الأطفال الصغار في « التورين » تعلموا في المدارس ، بلغة محمد ، أن الأمير عبد القادر هو بطل استقلال فرنسا ، بينما ظلوا على جهلهم بجان دارك ، وكانت نتيجة هذه السفاهات المضحكة الغريبة أن تولدت رطانة تعرف باسم « السابير » وهي الرطانة التي يتفكك بها أبناء الأجناس الراقية عندما يتحرقون شوقا إلى ما هو شرقي بأذن الطعم حريف النكهة . وآخر الأسطوانات التي ذاعت شهرتها ، أغنية « يا مصطفى » مثال لهذا الاسفاف اللغوي المشين .

وبين ثم فالأصغار تبدأ الدوران في حلقة مفرغة ، منذ أن تخطو خطواتها في المدرسة الابتدائية ، منذ أن تقيم أولى صلاتها بنفحة الحياة الثقافية ، منذ بعومة أطفالها ، في بكرة نشأتها ، تدور في حلقة خبيثة هي الجمل المأط: التسمية والاعتصاب التي عرفها المتألق الاستعمار .

بعض هؤلاء التلاميذ أصبحوا كتابا . وإنما أريد أن أتكلّم عنهم ، بوجه أخص ، لا لكي أفرق بينهم وبين غيرهم من ضحايا نزوات الاستعمار ومكائده ، بل لأن المشكلات التي يلاقونها في عملهم ، في أدائهم لمهنتهم ، هي المشكلات التي ألقيناها ، لأن التاريخ قد وضعنا أمام نفس المآسى بعينها ، ونفس المسؤوليات ، ولكنني أولا ، أحب أن أجول كل ليس - فليس في نيتي بأي حال أن أنصب ميزان المحاكمة للغة الفرنسية ، من بعيد أو من قريب ، على نحو مباشر أو غير مباشر .

ذلك أنني أتكلّم بالرغم من كل شيء ، ويجب أن أتكلّم . لو كنت أعرف اللغة الصينية لاستخدمت اللغة الصينية . المفارقة تنفجر في ذروتها : لغة المستعمر أصبحت وسيلة فعالة للتحرر من أيدي المستعمر . وتعاليت صيحات حقوق الجميل ونكران يد النعمة . فلندع الصيحات ترتفع . أجمل تكريم سنعنا أن نزجيه إلى اللغة الفرنسية هو احترام ضيافتها ، بالقدر الكافي ، حتى لو كانت ضيافة

مفروضة ، وذلك سعيا منا الى اللحاق بمستوى من قاموا بخدمة هذه اللغة ، وهم في الغالب قد قاموا ويقومون بخدمة المثل الانسانية الكبرى — او على الاقل سعيا منا الى ان تكون جديري بهم . كان من الممكن ان يصبح « برناتوس » او « بيجي » من اصدقائي ، لو كانا على قيد الحياة ، فقد كان من شأنهما ان يدورا في حلقة مغرقة ، لو ان استمعنا — عريبا على سبيل المثال ! — اضطرهما الى التعبير عن نفسيهما بلغة اجنبية غير اللغة التي رعاها لسانها .

في كل يا نصيب عام ارقام تقترب من الريح . ونحن الكتاب الجزائريين ، نحن اصحاب هذه الأرقام . واكرر هنا ان جدي لم يقرأ لي شيئا قط ، ولم يقرأ شيئا لمحمد ديب ، ولا لكاتب ياسين ، ولا لهنري كزيا ولا لغيرهم من أولئك الصداحين بنسرة صافية ، أولئك الصداحين ببلد قلوبهم ، أولئك الذين لا جدال في موهبتهم ، أولئك الذين يحملني صدق طويتهم وجراتهم على ان اصطلى بدفء نار كبيرة هي نار الرضا عن النفس .

انني احب فصاحة كل هؤلاء المخرسين ، احب اولئك الذين اختلطت انسابهم ، أولئك الامراء أبناء السفاح .. احب ما ينهضون به **لهم صبح المم** انني عاجز ان اقول بالعربية ما احبته بالعربية .

هؤلاء هم الشواذ .. ، ولما كان الاستعمار من امراض التاريخ ، فليس من الغريب في شيء ان نتألمه ، سواء كانت سلبية ام متفائلة ، تندرج في نظمنا ق مرضي . انني على يقين ان الكتاب الجزائريين سوف يشهدون افانهم بلقتهم ، اللغة العربية ، فيزيدون لغة الآخرين نراء . الوحدة في السيمفونية الجزائرية لن تتاني عن كلمات هذه السيمفونية بل عن الموسيقى الاجماعية فيها . وفي مثل هذا الكورس لن يكون ابدا ثم حشو من اصوات تفضل عن الحاجة مهما زاد عددها . اما أولئك الذين يستثمرون القلق فاقول لهم : الجزائر لا تنوي قط ان تستعمر فرنسا ، ومن ثم فلست اري لماذا ، وكيف ، يمكن ان تهدد اللغة العربية اللغة الفرنسية في شيء ، او تهدد الطاقات الثقافية الفرنسية بصفة عامة . ومن ناحية اخرى فان الاموم المانة والأربعة والعشرين التي تعابشت اللغتان طولهما قد خلقت روابط لا تنك ، هذا الى ان وجود اقلية اوربية لها وزنها سيكون من شأنه ضرورة حل مسائل ثنائية اللغة . الا ان ذلك سيتخذ شكل ايجاد الوسائل العملية ولن يكون بحال من

الأحوال مشكلة من شأنها ان تثير المخاوف عند الكتلتين العنصريتين .

ذلك انه من الجلي ان الجزائر الجديدة لن تضم مجتمعين متباينين ، بل مجتمعا واحدا ، هو المجتمع الجزائري الواحد الذي لا يقبل الانقسام سواء كانت عناصره تتكلم العربية او تتكلم الفرنسية .

وفي هذا الصدد تتصف التجارب المسرحية التي يقوم بها مصطفى كاتب بجراة عظيمة الثراء في مقدرتها على ان تعلمنا الكثير . هذا الفنان العظيم الذي يقول : « لقد قاومنا ويجو لكننا لم نقساوم موليير » ثم يستطرد : « موليير يلقي — في الجزائر اعظم التقدير . في هذا تناقض رائع مع العصر ... ذلك ان الرجل الذي دعم اولى خطوات المسرح الفرنسي وقاده الى النضوج ، قد استعاد شبابه في مجتمع لا يختلف اطلاقا عن ذلك المجتمع الذي اكر على موليير تكريما نافعا في جوهره بان اكر عليه تشييع جنازته في موكب رسمي . ليس موليير بالاجنبي عند الشعب الجزائري ، ولا صلة بين موليير وبين الدولة

المستعمرة ، بل هو ينقل اليها ، على العكس ، خبرته الاليمة بما لقي من اضطهاد وبعلينا ان العدو الاول هو العدو الداخلي : هم السادة والاقطاعيون الذين عرفوا موليير كيف يحيط اللثام عنهم في فرنسا ، وهم الذين فتحوا اذرعهم للفرقة في الجزائر .. »

وتم فكرة اخرى لمصطفى كاتب : « لا يمكن ادماج شعب باسره في شعب آخر ، ولكن الشعب الجزائري قد ادمج موليير في ذاته »

ثم تند عنه بعد ذلك هذه الصرخة التي تهز القلب : « ان البلاد سوف تصرف يوما مدى الدين الذي يطوق عنقها لحفنة من الذين طوحت بهم العاصفة الى اليم ، ففتشوا بحطام التعليم التقليدي القديم ، وبمدرسة القرآن ، أولئك الذين لم يقبلوا الياس فمضوا يواصلون تدريس لغتهم الام في جامعتي « القرويين » و « الزيتونة » العتيقتين ، وأولئك الذين مضوا في جراة ابعد مدى حتى القاهرة . »

ان الشعب الجزائري اذ يخوض عملية التخلص من الاستعمار ، وهي عملية لا ردة فيها ولا تكوص عنها ، يكافح عن حقه في الحرية ، والحرية اذ نهبط بها من بين سحبها الميتافيزيقية ، تعنى عند الشعب الجزائري حقه في وجوده الذاتي ، واللغة العربية احد المظاهر التي يتبدى فيها هذا الوجود الاصيل .

ومن طريقته في الإيمان بالله، وما أخطئ لنفسه من طرائق بازاء القضايا الكبرى الخالدة .

وان الاستعمار ليصبح هو الراجح ، لو حدث لسوء الحظ - وأكرر لسوء الحظ - أن تم الشبه بين المغلوب والمتصر « ونيل المغلوب جوهر شخصيته التاريخية والجغرافية . الطليعة عندي هي العودة الى الماضي . وأطلب من الحساسين الفاشلين أن يوفروا على دعوام الفاسدة ، فلا يأتني احد بالحديث عن حجاب المرأة العربية - بغض النظر عن اني ارى جمالا رائعا في هذه الزينة - او بالحديث عن سفاسف اخرى خليقة بأن تنتهي الى الخلط بين التحرر من ناحية واتباع طرائق الغرب من ناحية اخرى ، بالتزام معيار واحد لهذه الطرائق هو التمسك بالقيم الغربية المخالفة عن قيمنا التقليدية . وليس مدار الامر هنا « كما هو واضح اقامة التعارض بين حضارتين بل هو بكل بساطة ، احترام شخصية كل من الحضارتين .

التي منى في اللغة الفرنسية ، ولكن بعض المنفى قد لا يخلو من فائدة . وانا اشكر لهذه اللغة ، خالص الشكر ، ان اتاح لي ان اخدم ، او احاول ان اخدم بلدى الحبيب .

وعندما يستقر السلام والحرية في وطني ، سوف اقول يومها ، بمثل مالا اكف عن قوله اليوم ، ان حبي لجبال الاوراس في الجزائر لا يتناقض مع العاطفة التي اكتها لجبال فيركور في فرنسا . ليس ثم شقة كبيرة بين جان دارك والكاهنة ، بين الكولونيل فايان والكولونيل عمروش ، بين جان مولان وبين مهيدي ، بين بول المولود وكاتب ياسين .

لكن كل الظروف مهيأة لنا « نحن المكتتاب الجزائريين ، لكي نمرر عن فلسفة انسانية حقبة ، باللغة العربية « وعلى الرغم من هذا المي في اللغة ، او من جرائه ، هذا المي الذي ندين به للاستعمار ، فاننا نضع هذا السؤال : من هم « المكتتاب الجزائريون » ؟

في تحقيق قام به اندريه مارييل في صحيفة « نوفيل ليرير » وهو تحقيق لم ينشر منه الا جزء واحد في هذه الصحيفة التي كانت « لاشك ، تخشى الحقائق الخشنة القاسية ، اجاب على السؤال كتاب جزائريون يتتبعون الى اصول متباينة والى

وسواء اريد ذلك بالجزائر ام لم يرد ، وسواء سلم بذلك للجزائر ام لم يسلم به ، فان الجزائر ، في اغليبتها المظلي ، تتكلم العربية . والاعتراف باللغة العربية لغة قومية لن يهدد اللغة الفرنسية بخطر ما ، ولن يعرضها لصعوبة ما ، فان الفرنسية ، سواء اردنا ذلك ام لم نرد ، وسواء سلمنا بذلك ام لم نسلم به ، قد أصبحت جزءا من ممتلكاتنا القومية .

في ذات يوم روى لي جابريل اوديسيو احدي عباراته التي تفصح عن رايه : « ان اللغة الفرنسية هي وطني » . وأذكر اني اجبته .

- اللغة الفرنسية هي منفاي ..

انا احترم وافهم هذا التعريف الذي يضحيه جابريل اوديسيو . وذلك على الاخص لأن كاتبنا من جيله ، وقد فاجاه التاريخ وزلله ، يستطيع ان يلوذ بهذا الوطن الذي يتعدى القوميات « طلبسا لتجنب التمزق والعداب ، هذا الوطن الذي قد تكون حدوده الجغرافية ومضمونه التاريخي هي حدود شواطئ البحر الابيض المتوسط . اما انا شخصيا ، فان شوقا واحدا يهيب بقلبي وقلبي ، هو الشوق الى اللغة التي يتكلمها الناس في ذلك المكان الذي اسمه ، بصاد حزين : « شارع العرب » .

ان وطني هو الجزائر ، جزائر الفند ، حينما يقول المرء انه جزائري « فلا يقع تحت طائلة القانون بحجة الاخلال بالأمن . امن دولة احترامها ، واتمنى ان تكن لي الود ، واصغو اليها من جانبي بالود . ولكنها دولة لا اعترف بانها دولتي او ان لها على حقوقا .. ان وطني هو الجزائر . والصب الذي اكنه لوطني ، لا يتهدد ريف الموزيل او سماء الوار بخطر ما ، وانما اقصد الجزائر في الفند ، واقصد قبسل كل شيء الجزائر اليوم ، سامقة في غضبتها وفي تضحياتها ، الجزائر اليوم ، تلك التي امدت من جديد كتابنة كلمة « الانسان » . ولكن الامر ، في المحل الاول ، يتعلق بالجزائر الاسى ، الجزائر قبل ان يحط الغزاة بارضها في « سيدى قروج » هذه الجزائر التي لم تكن تعرف بعد ان آباءنا كانوا من بلاد الفال ..

وانني لاشرف بان اكون محافظا . ولا احلم ببلد قد تحرر لكي يصبح نسخة طبق الاصل من البلد التي كانت تحبسه في ظلها وتقضي عليه بان يحيى على هامش الحياة محروما من بنيانه ، ومن تقاليده

آفاق سياسية متغايرة - ومما يؤسف له أن الإجابات لم تنتشر كاملة ، وأن أمرا قد صدر باقتطاع أجزاء واضحة للعيان ، من هذه الإجابات .

كان السؤال الأول ، وهو ادعى الأسئلة الى الاهتمام ، على الأقل فيما يختص بموضوع هذه التاملات « هو السؤال التالي :

— عندما يتعلق الأمر بمسألة الكتاب الجزائريين يشار في العادة الى الكتاب الذين ولدوا في الجزائر وينتمون الى اصل أوروبي ، وإلى الكتاب المسلمين العرب أو القبايليين . فهل ترى أن هذا التعبير « الكتاب الجزائريين » لا يتطوّر على تيس ؟

وأجمع كل الكتاب الذين وجه اليهم السؤال ، تقريبا ، في إجاباتهم التي نشرت أو فيما ظهر منها ، على الإقرار بأنهم ينتمون الى فئة أدبية متميزة . . . كأنما ينتمون الى عائلة لا تجسر على تسمية نفسها باسمها كاملا . ويبدو أنهم عمسوا الى السواذ بالتعميمات . فإذا نقب المرء تحت الكلمات « وراح يخلص عنها ، استطاع أن يجد ما يمت بالشبه الى التحوط والحرص .

« اللبس في عبارة (الكتاب الجزائري) إنما هو أمر قريب العهد . وقد ظهر بناء الأخطار والأحقاد التي نمر بها . ولكن عندما كان السلام مستقرا ، وكان السلام أمرا طيبا لأخبار عليه ، فلم يكن هناك لبس »

يبدو من لم أن الثورة الجزائرية — وهي التي يطلق عليها ، على استحياء « اسم « الأحداث » — هي التي جاءت في رأي ربيته كل ، تعتقد كل شيء وتثير مشاكل لم يكن لها وجود قبل ١٩٥٤ . أما أنا فقلت أذكر شيئا عن سلام « طيب لأخبار عليه » ويبدو أن كاتب « سواد الكرامة » قد نسي أنه عندما كان السلام « مستقرا » كان يوجد بالفعل كتاب جزائريون يدينون البلايا التي حطت بالبلساد . . ويتقاسمون مع شعب بأسره آلامه وأمانه . هنا أيضا تغدو الحقائق السياسية أمرا يخيف البعض ويغزوهم « فيمرون بها ويدورون حولها ، دون تحليل عميق .

أما جول روي فيفصح من ذات نفسه : « ان ما يطمح اليه كاتب جزائري ليس هو مطمح كاتب من يرى أو سيفين ، وإنما هو ينزع الى العالمية وتباين الأصول دليل على الثراء الروحي للجزائر ، تلك العائلة الكبيرة التي ينتمي اليها أعضاء عديدون ،

وتضرب شجرة أسابها طبقات من الأرض ، ومن الثقافات ، تتباين أشد التباين ، ولكن أغصانها وفروعها ترتفع نحو نور واحد بعينه ، وحسب واحدة ، وحسب واحد للعائلة والحرية .

قلنا في غير هذا المجال أن كتاب « حرب الجزائر » هو أكثر من شهادة كاتب مخلص وموهوب « أنها صرخة إنسان مرموق ، كأنما يهتف : أنا المذهب الأم . ويلوح أن جول روي يعتذر عن نفسه ، ضلال الصفحات الطوال ، أمام ضميره « وأمام الجزائريين وأمام قرائه الفرنسيين الذين كتب لهم هذا الكتاب . . يعتذر لأنه قضى تلك الفترة من الزمن كلها في سبيل أن يفهم ، وأن يرى ، وأن يتكلم . ولكننا نأسف إذ نجد في تعريفه للكتاب الجزائري شيئا من التميع « ونحن نعتقد أننا نمثل ، على الأصح ، روح وطن يعاني ويتالم ويكافح ، لا « عائلة ينتمي اليها أعضاء عديدون » . أعرف ماذا يمكن أن تحتوي عليه الكلمات مما يخيف ويغزو ، وأعرف كم من السهل أن نزل بمشكلة ما ، بكل تعقيدها ، الى مجرد خطوط عامة لا يندرج تحتها إلا هذا العنصر أو ذلك . ولكن الانضمام الى جماعة ما ، يقاس في الساعات الفاصلة في التاريخ ، بالانضباط دون تحفظ ودون إسف ، في الكفاح السياسي ، والعسكري الذي تخلفه هذه الجماعة .

أما جان بيلجيري فإنه يقف من المسألة على البعد الذي ينفذ منها المؤرخ لا الروائي :

« . . مما يستدعي الاهتمام في الواقع أن نرى كل أولئك الكتاب — حتى أنوفهم اتصالا بأوروبا — يقولون عن الجزائر « بلاد » دون أن ينتبهوا لذلك في أغلب الأحيان ، يقولونها كما يقول المرء « وطني » — وطن لا قرين له في الأوطان ، إذ يتكون من شعوب عدة يقرب بينها التاريخ ويفرق بينها في الوقت نفسه ولكنه يتلمس الوحدة من خلال محنة طويلة المدى .

يتضح من هذه السمكيات أن صاحب رواية « ثيوتات العدالة » يدعشه أن يقول الكاتب عن بلاده « وطني » . وفي حالات كثيرة لا يقتصر المرء الى الوطن بقدر ما يقتصر الى الاحساس الوطني . . ولست أرى لماذا تكون الجزائر ، أكثر من غيرها ، وطنا « لا قرين له » ذلك أن كل عمليات التكوين القومي لا تكاد تختلف في شيء عن بعضها البعض . — « الجزائر غدا أسود وأبيض » يقتل ويحيى ، أنها البلاد الشيطانية والعذرية « وكل السليدين

يعتمدون عليها يحسون بالتواطؤ بينهم فلا يسهم
الا احساس بانهم قد بلغوا هذه الاخوة السودية
الحزينة التي تتفاسم الائم ، هذه الاخوة التي تربط
بين عشاق اذكياهم يهيمن حبايمشقة واحدة،خارقة
الجمال وبالغة الغباء ، هم جميعا قد نذلوا بها ،
ومهما فعلوا فان هذا الحب يربط لمة خطاب ودها
جميعا بعربة واحدة يعينها .

أرى في ذلك ، يا عزيزي روجيه كوريل ، طاقتك
الهائلة في الحاجة الى الحياة ، ولكك ستاذن لي -
وفي هذا من النقد أقل مما فيه من عادة الفتها في
التائر وفي الحياة - ستاذن لي ان يكون لي رأيي
ان الجزائري ، جزائري ، جزائري ، جزائري ، ليست
عشيقتنا المشتركة .. فليس في المائلة عشق
بالمحارم ، ولكنها امنا جميعا .

اذكر ذلك المساء ، عندما قلت لي ونحن نصعد
من جديد ، شارع الشانزليزيه :

- عندما يستتب السلام ، ساطب ان اكسون
مواطننا جزائريا. اما حلمي ، فان اعيش في «رليزان» .

ومع ذلك فقد كنت تنظر الى سماء باريس كما
ينظر العشاق ، والى الكونكورد الباذخ ، والى اجمل
جادة في العالم . وكان لكلماتك بين الحب . في
تكن تذكرني في شيء بأولئك الاطعالي السابقين المشرق
آباؤهم بالطلاق اذ يختارون ، عند بلوغ سن الادراك
بين الحياة مع احد آبويهم او مع الآخر .

ولكن هنري كريا لم يكن يتحرى كلماته ، بل
قالها صريحة مباشرة :

- « ان تعبير «الكاتب الجزائري» في رأيي وراي
كتاب جيل ١٩٥٤ يعني في المطلق ان المرء قد اختار
الجزائر وطنا ، ايا كان اصله من حيث العرق
والسلالة ، ايا كان ولاؤه الديني او الفلسفي » .
هذه الصيغة تضع المشكلة في ابعادها الصحيحة
وتحدد الحل على نحو يثير الإعجاب .

من الواضح ان عبارة «الكاتب الجزائري» كانت
تقتضي هذه الدقة في التحديد ، حتى تظهر من كل
شواذب اللبس والغموض .

ان الواقع الجزائري يبلغ من الغنى والاصالة
مبلفا بظطرنا الى التردد امام الكلمات ، والى اكار
الثقة على صيغ او عبارات قد تكون جذابة مفرية ،

وان كان ذلك لا يقلل من خطورتها . ولسكننا ، من
ناحية اخرى ، تعرف جميعا ما في التصنيف والتفريع
من اعتساف للأموار . ويولوج لي هنا ان البحث من
معيار تقيس به الأوضاع أمر اذق في التعبير اكثر
منه استقصاء عليه . فليست المسألة ان ترتب
الأوضاع مراتب بعضها يمسو البعض ، وان تقيم
الفواصل والامتيازات بين أبناء وطن واحد هم في
الغد ، وفي الغد القريب ، مواطنون في دولة واحدة .

عندما يقول شاعر مثل سينك : « انني احس
نفسى جزائريا مثل بن بيللا تماما » فلست أرى في
ذلك سعي الى عقد المقارنات السياسية ، او تقييم
الجدارة السياسية - بل ليس كل الناس بقادريين
على ان يكونوا بن بيللا - بل اسمع فيه ، على العكس
صرخة صادرة من الاحشاء ، وارى فيه اختصارا
لرجل غير ممزق الولاء ، هو جزائري من اصله
أوربي قد اجتاز ، في رحلته ، رأس التردد والحيرة .
ليس التوفيق بالامر المستحيل ، وليس ثم من
دراما مثل درامات كورني .

ولنتحدث عن كامي ..

كامي هو نموذج يمثل المثقف الجزائري السلي
يتشكك في ذاته ، حتى يتغادى ما يظنه انفساما ، فلا
يختار ان يفضي تحت علامة الاستفهام بل هو
لا يختار هزاة روحيا ، ولكنه يختار التسويف وتطبيق
الأموار الى اجل غير محدود ، لم تكن الميثافيزيقا ،
ولا الاخلاق ، تحظران عليه ان يؤكد ذاته ، فلم يكن
لم صراع بين الحب والعقل ، ذلك انه ليس ممسا
يندرج تحت خيانة فرنسا ، ولا هجران فرنسا ، ان
يكون للمرء اختيار ذاته في غير ما ليس ولا ايهام .
لا تروغنا الكلمات : لكي يختار المرء ، عليه ان يعرف
ذاته ، ان يعرف انه شيء ما . واذا كنت اذكر أنني
قد كتبت : « الإنسان هو وطني » ، فأنني ارفض على
نفسى ان اصنع هذا «الإنسان» المجرد موضع النظر
الجاد ، هذا «الانسان» التصوري ، هذا «الإنسان»
الذي يرتاح المرء اليه اكثر مما ينفع له ان يرتاح ،
طلما كنا نرفض ان نأخذ على عاتقنا تلك المشكلة
الفاجمة التي تعالج تعريف ذاته ، والسياق الذي
يدور في مصيره . واعرف عددا من الكتاب
الجزائريين الذين يقولون عن انفسهم انهم جزائريون
لكنهم قد اصطنعوا لانفسهم ، بكل بساطة ، فكرة
ما عن الجزائر . لسنا هنا بصدد الحديث عن شعاء
شعب ، وانما يجب أولا ان يوحد المرء بين ذاته وبين

آمال هذا الشعب ، وأن يعادى أعداءه . وذلك يعود بنا إلى القول بأنه يجب أولا أن يعرف المرء شعبه في المحل الأول ، وأن يشارك في حياته كلها .

وقد أحس مالك أوارى بذلك كل الاحساس ، ولا اعتقد أن في كلامه مایسوغ الرأي القائل بأن فيه تفرقة عنصرية :

— « كان من الصعب جدا ، دائما ، أن نجد الحد الدقيق لتعريف سكان الجزائر غير الأوربيين . . . أن هناك في رأي مايدو لاقامة تفرقة فاصلة بين الكتاب الأوربيين ، وغيرهم . والكتاب الأوربيون في الواقع لا يعرفون شيئا من البيئات غير الأوربية ، فليس في مقدورهم قط أن يترجموا من الهوم والأماني التي تجيش بها ، أما الكتاب غير الأوربيين ، فهم على العكس قد عاشوا ويعيشون في هذه البيئة ، بل هم يعرفون مشاكلها حق المعرفة ، ولو لم يكن ذلك إلا من خلال أنفسهم . ومن ثم ففي مقدورهم أن يجعلوا من أنفسهم شراحا لاجتماعهم و مترجمين عنه » .

انني أشاطر مالك أوارى رأيه ، بكل حدا فيره ، إلا فيما يتعلق بلفظ يستخدمه : « الأمانى » فإذا كان من الحق أن الكتاب ، سواء كان جزائريا أم غير جزائري ، لا يستطيع الكلام إلا عما يعرف ، فإنه من الحق أيضا أن الكتاب الجزائريين غير الأوربيين يستطيعون المشاركة في مثل السيلالي الأعلى الذي تجيش به بلادهم . وإنه لمن جدارة كتاب مثل جاك سيالك ، وهنري كزيا ، أنهم منذ بداية حـرب التحرير قد سلكوا سلوك الكتاب الجزائريين الوطنيين . . . وإنما نحن نأسف لأن عددهم لم يكن أكبر مما كان بالفعل .

وعلى العكس من ذلك ، سكنت أصوات لها شرفها . . . أصوات لها قيمتها « أصوات مسموعة ، سكنت عن اختيار وإرادة : كامي ، روبليس ، أوديسيو . . . وحتى عهد قريب جـول روي . لمست أنصب من نفسي قاضيا ، وليس من مؤهلاني أن أنصـبـي القضاء ، ولكنني أعرف بالخبرة الشخصية أن القراء الجزائريين يتطلبون الكثير جدا ، وأنهم في اللحظة الفاصلة من تاريخ بلادهم يرون أن كل كاتب يعتبر نفسه جزائريا مجندا في خدمة وطنه .

سكنت أصوات كبيرة . وانني لأشهد ذلك بحزن كبير « وإذا كنت أحس من ذلك بمرارة ، فهي مرارة خالصة خلو من كل حقد وكل حق . أن التاريخ يعلمنا التواضع ، ومن شأنه في الوقت نفسه أن

يعلمنا الحكمة والحيلة ، وأن تكون أرهف تقديرا والطف حسا في أحكامنا واقضيتنا بالادانة ، ذلك إذا لم يعلمنا التسامح . وعندما يلتزم المرء جادة الأمانة الحققة فإنه يستطيع أن يقول مع فيركور ، في «صمت البحر» : « سعداء أولئك الذين يعرفون صوت وأجبههم في يقين واضح بسيط » .

ذلك عندما يلتزم المرء جادة الأمانة ، ويتجاوز ، إلى بعيد ، حدود ذلك « الحرص التمس » الذي يتكلم عنه جان بول سارتر العظيم . .

سكنت أصوات . .

أصبحت الجزائر ، عند هؤلاء الكتاب ، مصدرا للإلهام لا سياسي ولا إنساني في نهاية الأمر ، أصبحت الجزائر عندهم مجرد ديكور محبب « ديكور مختار ، لكنها ليست تلك « الأرض الجسدية » التي يتكلم عنها يـجـيى والتي تهز الجبال وتكسب الملحمة معنى .

أصبحت الجزائر عند هؤلاء الكتاب مجرد ظاهرة أدبية ، ووطنا ذهنيا .

ان الكتاب الأخير الذي كتبه جـول روي ، وهو كتابه نبيل ومخلص ، له عندنا نحن الجزائريين قيمة الاعتراف أكثر مما له من قيمة الشهادة ، ولكن كتابه تال بنفسه أنه يخاطب به الفرنسي المتوسط العادي . على أن نجأحه الهائل في السوق خليق بأن يثبت « على العكس ، إلى أي مدى يبلغ افتقار هذا الفرنسي المتوسط إلى المعلومات الصحيحة ، وإلى أي مدى يبلغ زيف معلوماته عن الصدق ، وإلى أي مدى تصل رغبته في تقويم معلوماته على شرط أن يزوده بالمعلومات الصحيحة كاتب لا يندرج تحت البطاقات السياسية المعيزة . أن كتاب « حـرب الجزائر » في رأي اعتراف بالذنب من شاعر طاهر شجاع . وللمرء أن يتساءل ، بحزن كبير ، لماذا أضر رجال على هذا القدر من الذكاء والخير « كل هذا الوقت ، في الكلام . والاجابة بسيطة : لم يكونوا يؤمنون بالجزائرية ، أعتمدناهم تخضعهم لواجبات لا يملك الكتاب أن يتفادها دون أن يعزل نفسه عن هذا الكل . لم يكن كامي مخدوما في ذلك عندما كتب « قد حان الوقت لأن ننضم كل امرئ إلى الجماعة التي ينتمى إليها » . والتاريخ ، في الحق « قد سبقهم ، وأزاحهم عما استقروا عليه من عادات . . لقد كانوا ، من وعى أو غير معرفة ، منفعين بالنظام الاستعماري ، وأصبحوا ، من وعى أو عن غير معرفة

وعلى درجات متفاوتة بلا شك، متشيعين للاستعمار ان لم يكونوا استعماريين بالفعل . وهو مايخلصنا الى القول بان الجزائريين من أصل عربي - بربري، في عاليبتهم الساحقة ، هم وحدهم الذين عاشوا حياة وطنهم وقد سقطت تحت السيطرة الاستعمارية . . اما الآخرون فهم اما ان يكونوا فرنسيين « ولا يحق للمرء ان يلومهم على ذلك في شيء على شرط الا يلعبوا على حبلين ، وان ينضموا نهائيا الى الجماعة التي ينتمون اليها ، او ان يكونوا متفرنسين ، او قد زالت عنهم الخصائص الجزائرية . واكرر انني ارى فاجعة في ان تمر اعوام ستة من الحرب ويسقط مئات الآلاف من القتلى ، قبل ان يستقر عزم كاتب مثل جول روى على ان يرى وان يتكلم ، بعد ان ياخذ في حوار من وراء القبر اذ يكمل الطريق الذي توقف فيه كامي .

انني من أولئك الذين يعتقدون انه لا توجد في الجزائر مشاكل الاقليات ، مشاكل فاجيسة او مستعصية على الحل . ففي الجزائر جزائريون ، او على الأصح فيها الجزائريون ، وغيرهم « وعلى عكس مايقول المثل القديم عندنا : ليس من يذهب هو خير الناس . ان الجزائر الوطن الأم ليست زوجة أب ، والجزائر تحس أكبر الاحساس بذلك الشؤرا قبل الذي كان يسود العشيرة السبعة ، فلا يمكن ان تعد من ابنائها فريقين : أبناء الأصل وأبناء السفاح ، بل تعدهم جميعا من أبناء العشيرة الواحدة ، على قدر سواء .

ومباراة « الكاتب الجزائري » في نهاية الأمر لا تنطوي على لبس الا في حدود المدى الذي لا ينقصد فيه الاتفاق على فهم مضمون كلمة « الجزائري » نفسها ، وعلى تكيف خصائص الجزائريين .

والكاتب نتاج للتاريخ أكثر منه نتاجا للاعتبارات الجغرافية . فالجغرافيا امر عرضي اما التاريخ فليس عرضيا . واعتقد ان كل هذا الغموض ، وهذا القلق ، في البحث عن تعريف للكاتب الجزائري ، انما ينبع من مأساة : اللغة . وهي المأساة التي تتساقط عن تعبيرنا عن انفسنا ، في كتابتنا ، باللغة الفرنسية .

ومن ثم ، ولأنني احترم هؤلاء الكتاب ، فانني اقول ان ثم بعدا شاسعا بين جابرييل أوديسيو وعمروش . . بين روبليس ومحمد ديب . . بين جول روى ومحمد ديب . . وبين روجيه كوريل وآبة جعفر . . على رغم انهم جميعا يكتبون الفرنسية .

ليس كل من يريد ان يكون جزائريا يبلغ ان يكونه تماما . ونحن الكتاب الذين ننتمى الى أصل عربي- بربري قد انتهى بنا الأمر الى ان نفتن بلغة راتعة ، لكنها ليست لغتنا الأم من الناحية التاريخية . ان الذي يفرق بين الكتاب العرب البربر والكتاب الجزائريين الآخرين ليس اهتماماتهم السياسية - وهي أقدم وأشد احتداما - بقدر حنينهم الى لغة أم قطعنا عنها واصبحتنا اليتمى منها ، لا عزاء لنا عنها .

ولا يوجد بيننا وبين الكتاب الجزائريين من أصل أوروبي الذين اختاروا الجزائر وطنا الا المستقبل المشترك ، وليس ذلك بالقليل .

ان سمة الاسلام التي لا تمنح تميزا ، لكنها لا ينبغي ان تفصلنا عن بعضنا البعض ، نحن نخفص بفولكلورنا ، بطرائقنا في التفكير والاحساس ، وفي العمل . ونحن ، حتى عندما نعب عن انفسنا بالفرنسية ، ننقل الحلم ، والغضب ، والشكاة النابية عن احقاب واحقاب من تاريخنا القومي . . ولا يقول أحد ، على الاخص ، ان الجزائر لم تكن امة قط ، او ماضيا أسوأ ، انها لم تكن حتى السنوات القليلة الأخيرة ، وفقا للعبارة القوية التي تقدم بها أحد الماركسيين هو موريس توريز : « الا امة في طريق التكوين » .

ان الغرب قد نصب نفسه نموذجا ومثالا ، ومركزه مركزه حول ذاته وانجاهه الى ان يضيف خصائص الإنسانية في شمولها وعمومها على مايقوم به وحده وحفرته شهوته المريضة الى اسقاط رغباته على الواقع ، ودفعته نزعته الى فرض رعايته الأبوية الكهله فرضا بقوة الانتصار ، فلم يسلم قط بانه يمكن ان توجد اشكال أخرى للدولة وسمات قومية أخرى تدل على وجودها الا تلك التي يعرفها الغرب . بل احتكر الغرب لنفسه الفلسفة الإنسانية .

والواقع ان الجزائر بعد ان غلبت على أمرها بقوة السلاح وراحت تتصل ، على نحو ما ارتضاه لها الفالبيون الذين استبدلوا مقاومتها ورايتها ولفتها القومية بغيرها .

وهناك من الوثائق الأصلية الرسمية ماضو خليف بان يؤكد وجود دولة جزائرية قبل ١٨٣٠ على الصعيد الداخلي والصعيد الدولي سواء . وعلى

فقهائنا القانونيين ان يبرهنوا على ذلك بالأدلة الدقيقة القاطعة وان يثبتوا الواقع اثباتا نهائيا فاصلا .

على ان الامر الجدير بالتسجيل ، قبل كل شيء ؛ هو ان الكتاب الجزائريين المنتهين الى اصل عربي-بربري ، حتى وان كانوا يعبرون عن انفسهم بالفرنسية ، يترجمون افكارا جزائريا في خصائصه الاصلية ، وهذا الفكر من طبيعته ان يتخذ اكمل تعبير لو كانت اداته هي اللغة العربية والكتابة العربية .

استطيع ان اقيم خمسين علامة اقليم البروفانس هذا الذي احبه وافهمه ، البروفانس الذي استوحيت منه الكثير من كتيبي ، ولكنني لا اصبح بذلك شاعرا بروفانسيا . والحب الذي تسكنه ايزابيل ابرهات ، مثلا ، للجزائر لا يكفي ان يجعل منها جزائرية . واهرف صفحات رائعة من جي دي موباسان استلهمها من قسنطينة ، صفحات يمكن ان تتخذ مكانها في مجموعة من النصوص عن الجزائر . لكنها لا يمكن ان تكون جزءا من مجموعة يكتبها كتاب جزائريون .

ليست الجنسية الادبية مسألة إجراءات قانونية ولا صلة لها بالشرع ، وانما هي تلحج الى التاريخ . والتجنس بجنسية ما يكتب صاحبه وقتها قانونيا مدنيا ، لكنه لا يؤثر على جوهر الشخصية ، والتاقلم ليس الا شيئا سطحيا ظاهريا . قد يظن بنا اننا راضون ، نأخذ الامور الهوينى في غير توتر . وليست الحقيقة من ذلك في شيء .

بعدت لي في اغلب الاحيان ، أثناء مناقشاتي مع كتاب من فرنسا ، سواء كانوا اصدقاء أو خصوما ، ان احس احساسا واضحا حادا بان هذه المناقشات تجري بالفرنسية ، واننا مع ذلك لانتكلم لغة واحدة . فنحن نحمل الكلمات مضمونا ونعطيها معنى لانتخرج منهما العبارة الفرنسية ثم ترجمة .

نحن نبين عن انفسنا . . ولكن الكلمات ، وهي مادتنا اليومية الخام ، لاترتي الى مستوى افكارنا ، وهي اقل بكثير من مستوى عواطفنا .

وليس هنالك الا تساوق تقريبي بين « تفكيرنا كعرب » وبين « العاطفة الفرنسية » .

ذلك هو السبب الرئيسي في تلك اللعبة المحزنة التي تدور فيها الأصفار ، في حلقة مفرغة .

وليست الادلة في حاجة الى بيان ، ذلك ان الكلمات اكثر بكثير من مجرد علامات ، أو من مجرد اصطلاحات . ولو كانت كذلك لاصبحت القواميس من اصحاب الواهب ، ولاصبح المترجمون من اصحاب العبقريات .

ومن ثم فنحن ننتهي الى استخدام كلمات بعينها ، وافكار سياسية بعينها ، لتبين عن عواطف أو افكار بعيدة كل البعد عن ان تكون هي بعينها في العالم كله . « فالتناس لا يعيون ولا يكرهون في الاسكا والصين ، في شيلي واليونان ، في فرنسا والجزائر ، بنفس الطريقة . وخصائص الانسان بعيدة كل البعد عن ان تكون قاسما مشتركا بين الناس جميعا ، ووجه الشبه والتماثل لا تحول دون وجود سلسلة لانهاية من الفروق الدقيقة والظلال المتباينة . والسكلمة تفقد أو تكسب حداثها ، تصبح لها نكهة وطعم أو تفقد نكهة مسيخة ، تتلون أو ينصل عنها اللون ، تبعا لخطوط العرض والطول الجغرافية . ان اقامة الفروق بين الحضارات لا يعني وضعها في مراتب بعضها اسمى من بعض ، أو التسليم بالعنصرية البغيضة الخطرة المناهية لكل نظام اخلاقي ارضي أو الهوى . ولكن المزارع الذي يحرق الارض في « اللوار ايه كير » يختلف في عقليته عن الفلاح في « السمسم » . « الزاوي منة الكلمة : » وعقليته » . واذ كانت اومن بوجود جهاز نفسي وعمليات سيكولوجية متطابقة . . فاني لاومن بوجود هذا « الانسان » الذي يشار اليه بصفته المطلقة فاذا هو وحدة كلية ميتافيزيقية مجردة ، واعترف انه لايدخل في حدود معصرتي وحبي .

هذه العقليات المختلفة تستدعي وتنضج تعبيرات لغوية مختلفة . ولا يغفري الى ما أقول نوع من البهلوانية اللغوية : نحن نكتب بالفرنسية ولكننا لا نكتب كفرنسيين .

هذا الحنين الى لغتي الام يتضح عندي ، شخصيا فيما اوتر في حياتي اليومية : انا احب « ايكس اين بروفانس » ولكنني لست من أهلها ، وانما ابحت في شوارعها المتنوعة الهادئة الرصينة عن شوارع قسنطينة المتنوعة الهادئة الرصينة . وبعبارة أخرى فاني اشيء ، الى حد ما ، ذلك العاشق الذي يقول لامرأة : « انا احبك » ، بينما يفكر في امرأة أخرى ان ينساها أبدا ، ومهما فعلت فاني مضطر الى ان أجرد فكري عن طبيعته .

اننى على يقين من أن الكتاب الجزائريين الذين سوف يتلقون الرأية منا أو الذين تلقوها بالفعل ، لن يكون عليهم أن يجابهوا مثل هذه المشاكل .

ذلك ان تعليم اللغة العربية ، تعليمها رسميا لغة قومية ، بعد هذا المدى الطويل ، سيكون من شأنه ان تتغلغل الى كل ميادين النشاط العقلى وأن تفزوها .. وسوف يتعلم الجزائريون المنتهون الى أصل أوربي أنفسهم هذه اللغة التي سوف توثق التحامهم بسائر مواطنهم . انهم لن ينسوا ولن ينكروا اللغة الفرنسية التي سوف تأخذ مكانها المفضل في المدرسة وفي البلد على السواء . وليس من فضلة القول ان تكرر ان اللغة الفرنسية في الجزائر جزء لا يتفصل منذ الآن فصاعدا ، من ثروتنا القومية .

وباستثناء بعض المستعمرين الذين كانوا بحاجة الى اللغة العربية لتصرف أعمالهم ، وبعض الموظفين الإداريين أو العسكريين ، لنفس السبب ، وباستثناء بعض المستشرقين - وهم في اللغة أكثر فقها منهم كفاية - ونعالية - باستثناء أولئك ، يرومنا أن نرى ذلك العدد الضئيل من الجزائريين المنتهين الى أصل أوربي الذين يتكلمون العربية ، وأقل منهم بكثير يكتبونها . ومع ذلك فالحاجات الأعظم منهم قد ضُربوا بجذوعهم في أرض الجزائر منذ عدة أجيال . وقد كانوا يوما بقدريوم كايرون الجزائريين المسلمين جنباً الى جنب . ذلك يوضح الى أي مدى أضاف الاستعمار الى العنصرية إبعاداً هائلة ، وإلى أي مدى كانت الهوة واسعة عميقة ، تزداد سعة وعمقا ، بين الجزائريين المنتهين الى أصل عسري - بربري ، والآخرين . ويعود بنا ذلك الى القول بأن النظام الاستعماري ، من حيث المبدأ ومن حيث الواقع ، لا ينشئ روابط أو صلات ، بل يقيم مجرد علاقات هي علاقات التهمية .

ان المصير الذي ينتظر جيلنا من الجزائريين ، سواء كنا كتابا أم غير كتاب ، هو مصير جيل الانتقال .

وبانتهاء النظام الاستعماري ، وبانتهاء عقابيله ونتائجه البعيدة ، سوف نخفى ، ونحن هنا لغو وسخف ومفارقة ، عندئذ سيكون للجزائر كتابها الاصلاء الذين يمثلونها حتى التمثيل . وسوف يتكلم كل كاتب منهم عن مشاكل يعرفها ، باللغة التي يعرفها ، ويعرفها قراؤه . لقد مرت مائة وعشرون

قد يقال لي أن من الخير ألا نخطب الرأس بحائط المكي ، وأن نسجل وضعنا لانتملك إلا أن نلاحظ وجوده . فهل كان البير ميمى قد سلم بهذا الوضع عندما قال لي : « فات الوقت علينا ، ولا يستطيع المرء ، عندما يبلغ من السن ما بلغنا ، أن يبدأ كل شيء من جديد » .

فات الوقت علينا ، بالتأكيد ، وما قد مرت ثلاثون سنة أو تزيد ، منذ أن كنا نخطب أولى محاولتنا في الكتابة على لوح الاردواز ، ونسلمها الى معلمتنا في المدرسة الابتدائية لتصحيحها ، الى أن كنا نسلم مخطوطاتنا الى الناشرين لطبعها ، ونحن نكتب بالفرنسية ، وندرس الفرنسية ، ونذيع أفكارنا عن طريق اللغة الفرنسية .

وكلما اضلّو دأبنا لثباتنا لثباتنا الطرائق الفنية مهنتنا ، غاصت أقدامنا الى أعماق جديدة في هذه اللغة ، وسيلتنا الرئيسية في الاتصال بالعالم الخارجي - هذه المهنة التي وضعناها في خدمة قاريء لا يقرأ لنا للأسباب التي نعرفها .

ثم ماذا ؟

طالما ان هناك مشكلة فلا بد ان يكون ثم مخرج منها . ولكن لانتطق بالآوهام . ~~هذه هي المشكلات~~ الجزائريين من هذا الجيل اذ ~~ان كنا نفسيرا~~ لثباتنا المشكلة ، فانت لنا الحل لها .

لا جدال في فائدتنا وجدوانا . وسنبقى درسنا وعبرة . واعتقد أننا ، ومنظر ، أمثلة نموذجية على مدى الضر والانحراف الاستعماري ، وقد كان من الممكن ان تكون مبررا يستند اليه دعاء سياسة الاندماج ، أولئك الذين ينظرون من خلال عدسة خاصة فيرون فرنسا تمتد من ذكرنا الى تامانراست لولا ان مؤلفاتنا قد أكدت ارادتنا أن تكون جزائريين ، عن عمد وتدبر . ذلك ان دعاء الاندماج هو لاء لم يتكروا الخصائص الإقليمية قط ، وهم يعتبرون الجزائر اقليما فرنسيا من بين أقاليم فرنسية كثيرة . ان مارسيل بانيول من أهل بروفانس يكتب كفرنسي ، وكاتب ياسين من أهل قسنطينة يكتب بالفرنسية ، وهنري بورو من أهل سافوا يكتب كفرنسي ومحمد ديب من أهل تلمسان يكتب بالفرنسية ، وستاندال من أهل دوغان يكتب كفرنسي وفروغون من أهل القبائل يكتب بالفرنسية .. الى آخره .

عاما حلت فيها التقاليد الشفاهية محل الموضوع المكتوب ، كما قال محمد ديب في عبارته الرائعة : — « أصبحت ذاكرة الشعب هي المكتبة الوطنية للجزائر » .

ان المشكلة الاولى التي تقوم اليوم هي مشكلة تعليم اللغة العربية وتنظيم علاقاتها باللغة الفرنسية ومن المقدر أنه سوف يسوى كل شيء على خطوات مطردة ، على جرعات متناسقة ، وفي نظام لتوزيع الاسبقيات ، وتلبية للمقتضيات ، ومع احترام كل القيم المستقرة .

سوف يتساقط تحرر الفرد مع التحرر الوطني ونتيجة مباشرة له . وسوف يمضي الكاتب الجزائري قدما الى الامام ، وقد تحرر من تقسل الارتعاش الاستعماري الذي يزيغ كل المشاكل ويشسوه طبيعة كل القيم او يحط منها ، وفندل بصبح قادرا على التعبير عن نفسه باللغة التي تتساقط على خير وجه والى اقصى حد مع اشكال حساسيته الموروثة ، هذا الكاتب الذي ننتظره جميعا ، الكاتب الذي لن يعرف هذا الحاجز الضخم من السيف والفلوالذي نضرب في احواله على غير هدى مبهمة يدهش اصالة شخصيته في حمى لغته اللدني وعلى نور تاريخه . وسوف يتمتع من ماضيه القومي مناجع طاقته الخلاقة ، وسوف يرى في تجاربنا الفريسة الشاذة علامات تحذير لا نخلو من جدوى . ان خير خدمة تؤديها للادب الجزائري القومي الاصيل : ان نعلن على الملأ حزننا واسانا ، ان لم نعلن ياسنا .

سنظل ابدا ، عند الاجيال المقبلة ، آثارا غريبة ، نعم ، غرائب حق ، في متحف الاستعمار . . والمؤرخ ، وهو الذي لا يدهش في العادة ، سوف تدله كل هذه المتناقضات ، وكل هذا الاثر والسفخ والمقارقات

وسواء كنا اصغارا او لم تكن ، فنحن نشاوك في شيء كلي ، وتحفزنا حركة تكفي بذاتها للتدليل على اننا احياء . واذا كانت الحيطان كثيفة غليظة — هذا القفص من الكلمات الذي يتكلم منه اراجسون في « الرواية الناقصة » — فان الواجهة الزجاجية صافية شفافة . الافاق مشرقة وضيفة ، واضحة المعالم ، يقينية . كان الاستعمار ، هذا المصائب التاريخي ، مباءة للقلق والمضض . ان كل حجر وكل

طوبة تمثل عند البناء مشكلة ، لكنها مشكلة يتحكم فيها ويصرفها اذ ان البيت الذي يبنيه هو الحل . ونحن لم نستخدم موادا اصلية في بناء الادب الجزائري بمجموعه . ولكن من سوء الذوق وخطل السياسة ان نفعل هذه المواد المستوردة او ان نذررها .

يحدث لي غالبا في امسيات المنفى — والوقت دائما مساء في المنفى — ان اقف امام الواجبات في محل لبيع الكتب ، او امام الرفوف في مكتبة ادخل اليها فاجد فيها نفع الود ، او اجد لها غريبة تثير العجب ، او مختلطة متنافرة ، ثم انامل كتب زملائي الكتاب الجزائريين . ويحدث كثيرا ان اتكلم عنهم ، او يحدثني الآخرون عنهم . وانا احس دائما ، بازاء هذه الاسماء التي اعرفها والعناوين المألوفة عندي ، ذلك الاحساس المروع الذي خامرني ذات يوم ، قرب نهاية بعد الظهر ، في الشتاء ، عندما وصلت الى « بارسلونيت » ، وقد هبطت درجة البرد الى عشرين تحت الصفر . هناك ، في واجهة مكتبة من مكتبات الريف المتواضعة ، بين صنوبرات عيد الميلاد وكتاب من تأليف يوجين فريزون روش ، رأيت كتاب محمد ديب « صيف افريقي » . شد ماكان وجوده هناك غريبا . هذا اللثغ على قمم الجبال ، عجالات السيارات تحيط بها السلاسل ، هذه اللوحات على الطريق تحذر المسافرين من أن ممصر « أوست » مفلق ، هذه القرية الجبلية الأسطورية كانها تقع في قلب كتدا الأسطورية . . و « صيف افريقي » .

ومن باب الغريب ايضا هذا الخطاب الذي جازني من الكسبيك ، كتبه لي طبيب جزائري يسول انه اشترى رواية لي هناك . . ما ألقاه هذا المسكين .

كل منا قد تصور امتدادا لنفسه . والواقع ان الكاتب يدهش دائما انه مقروء . ذلك ان الامر عنده بعد ان يخط على مسودات كتابه « يطبع » ، هو الفخامة الكبرى . والكتاب اما ان تتآكل اطرافه صفحاته من القراءة وإعادة القراءة والاعماراة والاستعارة ، واما ان يصفر غلافه وما زال مقلقا مخثوما على رفوف المكتبات ، في اركان الكتب التي لا يبع لها ولا شراء . .

وعلى هنا ان اعترف اعترافا خطيرا ، قد يدهش له البعض أو يتحجرون ، لكن الاقضاء به يزيح نقلا

عن صدرى ، وقد ينير المشكلة التى نهما ، فيما اعتقد .

عندما ابلغت فى صيف ١٩٥٨ بمحضر انذار موقع من الجنرال ماسو يخاطر فيه الناصر الذى نشر روايتى « الانطباع الأخير » ووكلاءه فى الجزائر ، بان الكتاب قد صودر وحظر توزيعه باعتباره « يحتوى على كتابات من شأنها ان تخل بالأمن والنظام فى اقليم الجزائر » لم احس دهشة ولا بغضب على الاطلاق . كانت حربا مشروعة . اما اننى كنت قد تلقيت خطابا من الجنرال ديجول ، قبل ذلك بقليل ، يثنى بالاهتمام الذى يقرأ به كتابى ، فان ذلك لم يحيرنى فى شيء ، كان الجنرال ديجول فى ذلك الوقت رئيسا للوزراء . وعندما اصبح بعد ذلك رئيسا للجمهورية كتب لى خطابا آخر يثنى فيه ويشكرنى على اننى ارسلت اليه كتابى « سوف اهلك غزالة » ويقول لى فى خطاب موقع بخط يده « ان لى موهبة الرواية وهر المشاعر » لكن هذا الخطاب لم يمتنع ، فى ابريل ١٩٥٩ ، ان يحظر على القراءة فى التليفزيون ، بأمر من وزير ما للداخلية ، فى برنامج « غزوات الجميع » بعد ان كنت قد وصلت بالفعل الى استوديوهات التليفزيون فى شارع كونيكا جاكى . وأعترف اننى دهشت هذه المرة ، لان كتابى « سوف اهلك غزالة » كما يقول قرائى ، اقل اتجاها الى الهدف مباشرة . واقل « التزاما » بكثير من كتاب « الانطباع الأخير » الذى يصف تطورا يؤدى بأحد المتقنين الجزائريين من استنارة الوعي السياسى حتى القتل مع الثوار . ومن ناحية أخرى ، وتبريرا لدهشتى - ان شئت الصدق فلم تكن الا نصف دهشة - لم يكن كتاب « سوف اهلك غزالة » محظورا ، بل كان يدخل الجزائر نفسها .

لست أبوى هذه الوقائع استثارة لمتعة فيها شيء مامهم من تمجيد الذات ، متعة الذكريات الشخصية . . فالكاتب الذى يعالج موضوعات تهم مجتمعا بأسره ليست له ، الا فى النادر ، ذكريات شخصية فى رواية ما يعرض له من مغامرات اثناء اداءه لمهنته . (ومعللة) فلمست أقول ذلك من قبل الزميسو والفلة ، وانما انا أقدر مهنتى تقديرا كبيرا) .

وبذلك ينتهى هذا الاستطارد .

ومن ثم فعندما علمت ان « الانطباع الأخير » قد صودر فى الجزائر أحسست لذلك بارتياح حقيقى ، أرجو أن يفهمنى صديقى الناشر رينيه جويار . واذن ، وبفضل هذه المصادرة ، لن يقرأنى مواطنى فى الجزائر ، لا لانهم اميون فحسب ، بل نتيجة لآمر صادر مباشرة عن الجهاز الاستعمارى . ان الامية هى احدى نتائج الاستعمار ، بل هى هدف من اهدافه فى نهاية الامر ، على أنه ما من نص صريح كان يقضى رسميا بهذه الامية ، وفى كل مرة يصدر فيها كتاب أو صحيفة فى الجزائر ، فليس ذلك الا نصريحا وتوضيحا محل ايهام وغموض ، وانفاذا رسميا لاجراء ما من ضرورة اليه بالرة لى نصل الى نفس النتيجة ، فالناس على اى حال لا يقرأون . وانما السلطة القضائية هنا تستكمل مبادئه السلطة السياسية ، بكل بساطة . ان كل الكتب ، قبل هذه الحرب وفى اثنائها على السواء ، كل الكتب ، وكل الصحف ، محظورة بالضرورة وفى واقع الامر ، فى بلد لا يعرف الاغلبية من سكانه القراءة ولا الكتابة .

ولنعمد الى المشكلة التى تشغلنا ، مشكلة اللغة العربية ورسالتها المحيطة ، ولنذكر ما قاله محمد خيرى فى العدد الخاص الذى أصدرته مجلة « انترميان » من الجزائر :

« ان المستعمرين ، منذ بداية الاحتلال ، قد انتزعوا من الثقافة القومية الجزائرية كل ادواتها ، اذ استولوا اولاً على مصادر دخلها ، ثم استبعدوها من الميزانية التى يمدنها الجزائريون أساسا بالموارد . ولكن هذه الاجراءات التى تهدف الى خنق الثقافة لم يكن من المستطاع ان تؤتى اثرها الا اذا اختفت اداة التعبير ، اللغة العربية ، وفى ١٨ اكتوبر ١٨٩٢ صدر قانون يضع تعليم اللغة العربية تحت اشراف الادارة الفرنسية . وفى ٨ مارس ١٩٢٨ صدر مرسوم من الوزير شوتان يعلن اللغة العربية « لغة اجنبية من البلاد » - فى البلاد التى وحدتها اللغة العربية واعطتها روحها . . »

ولكى تصور تلك الوصاية المفروضة من خلد النظام الاستعمارى ، وطرقتهم الميكيا فيلية ، لن نرجع الى ما قد يقول جنرال يبحث عن غار المجد يزين به خوذته فى غير عناء ، ولا الى ما قد يقول مستوطن كبير أو صغير - ان حجم الميكروب لاصلة له بضرارته - ولا الى ما قد يقوله متعصب يرتكز الى

ليس لي تعليق .

سوف تضع الحرب أوزارها الآن ، والأفاق الرائعة تفتتح وتزداد اشراقا يوما بعد يوم . ان هذا التحرير الذي طالما دعونا باسمه ، وطالما تضفينا به ، قد أصبح في متناول أيدينا ، أصبحت أكثر رغائبا صحة من مخلفات التاريخ التي لا تتساقط مع اللحظة الراهنة . ودخلت فكرة الوطن الجزائري الى صميم التقاليد الفرنسية والدولية على نفس النحو الذي كانت تنبض به قلوب الجزائريين طيلة مائة وأربعة وعشرين عاما .

والأصفار قد دارت في حلقة مفرغة ، وما زالت تدور في حلقة مفرغة ، لكن هذا الدوران في مكان واحد بعينه ، لن يكون في غير طائل ، بل سوف يثبت للأجيال المقبلة ، الى الأبد ، فداحة الشئ الذي يدفعه الشعب اذ يفقد استقلاله ويقع تحت رحمة عقائد ليست بمقائده ، ولا يمكن أن تكون عقائده . ان المصالح الاستعمارية قد أوقعت خطر الموت ببلاد أوقفت في أثناء سيرها ، وأريغ بها من الطسويق التقليدي لرسالتها التاريخية .

ان الكاتب الجزائري اذ ينظر في دخيلة نفسه ، دهر في وطنه أولا - في وطنه الجزائر ، وقد أصبح حرا ان يرصد نفسه لمنته ، يعيش على ترابه الوطني سوف يجد الكلمات التي لانفى ، هذه الكلمات التي تنضاف الى موسيقى السيمفونية العالمية فتسهم في تقدم كل ما تهض به الإنسانية .

الكاتب الجزائري ، وقد تساح بلغة أسلافه ، بعد ان سرت فيها روح جديدة من الشباب ، سوف تكون له شجاعة الشاعر الرقيقة : ان يكون صدى رنانا يدوي في مسامع الناس ، ولعله ان يكون «مكبر الصوت الرئيسي» الذي تكلم عنه ميكافونكي . . ولكنه سوف يكون جزائريا ، جزائريا في كل شيء ، وسوف يصفو بالانتياء ، في شغف مشبوب ، الى كل الاصداء والاصوات المترددة في جنبات العالم .

هذا الكاتب هو الذي ننتظره ونترقبه ، وليس لنا من مطمح ، ولا راحة لنا ، الا في أننا قد مهدنا له جانبنا من الطريق ، ونحن نحمل وزر اللعنة ، ويشفع لنا حسن النية ، لكي يكتب روايات تزدحم بالانتماءات ، وتزخر بالايام واليقتين ، هذه الروايات التي سوف يكتبها ليثأر لنا .

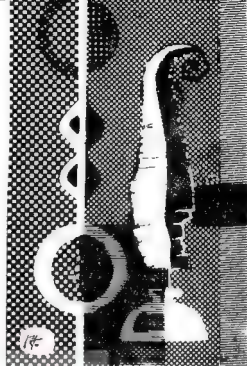
عقيدة « الرجل الأبيض الراشد المتحدين » ولا الى ما قد يقول سياسي حاذق خبيث الطوية ينطبع باسمه حدث قد فتش له صيت بفيض ، ولكننا نرجع الى مقالته السيد برنار مثلا . هذا السيد برنار « من اهل بلدنا » منا وعلينا « كما يقال للاهوى فاحش الخيث ولا بارع الظرف ، لا هو طائل الثراء ولا مدقع الفقر ، ليس بالجنرال ولا بالمستوطن ولا برجل سياسة . ولكن السيد برنار عضو من أعضاء جهاز التدريس الابتدائي . هذا التعليم الابتدائي الذي يتفرغر باسم جول فيري ، متجاهلا أو متناسيا مأساة غزو تونس والدور الذي لعبه فيها هذا النبي الزائف . هذا التعليم الذي يردد ، عن ايمان أو عن غير ايمان ، تلك العبارات الطنانة الخاوية التي ترددت في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، هذا التعليم الذي قلت عنه منذ قليل انه ينضوي تحت الجهاز الاستعماري . كان هذا السيد برنار ناظر مدرسة المعلمين ، وكان يعدد مهمة التعليم الفرنسي على النحو التالي :



« ان الجامعة لا ترغب في نشر التعليم في منطقة القبائل من قبيل الكرم ، وانما غنقلها مدوية صريحة في سبيل مصلحة فرنسا . هذه المصلحة هي وحدها المثالة في أذهاننا وهي التي تحدد خصائص نظامنا في التعليم ، وتهدى مدرسينا الى المناهج والطرائق التي ينتهجونها ، وتعطى برامجنا شكلها الراهن . . من المهم ان يتمثل الاهالي عن وطننا اسمى الأفكار واتقاه . وعلى ذلك فسوف نعطي تلاميذنا ، في دروس تتناسب مع عمرهم ودرجة ثقافتهم ، الأفكار الملائمة من عظمة فرنسا ، من قوتها العسكرية ، ومن ثروتها . سوف يتوطد مركزنا ويزداد رسوخا لو ان الاهالي اصبحوا يفكرون على النحو التالي : ان الفرنسيين اقوياء وكرماء ، انهم خير سادة لنا . . ان المدرسة التي يتعلم فيها الاهالي ، بشكلها الراهن ، وعملها الخير المزدوج ، ليست اداة للتجديد الخلقى فحسب ، بل هي فوق كل شيء اداة للسلطة ووسيلة لبطش النفوذ . وسوف تجعل من رعايانا امضاء لهم قائدتنا الكبيرة في المستعمرة وتابعين مخلصين لفرنسا » .

العلاقة بين العلم والأدب في العصر الحاضر

بقلم : مرسي سعد الدين



على الاختصاص في موضوع دقيق ناقشته هيئات عديدة في أوروبا وأمريكا . وصدرت عنه كتب مختلفة بعضها يأخذ صف العلوم وبعضها يؤيد الفنون والآداب وليس هناك من ينكر أن الأدب يدين للعلم بالكثير . فهو يدين له باختراع الطباعة . ويدين له بشيء أهم وهو توفير أوقات الفراغ . فلا شك في أن الاختراعات العلمية قد سهلت من حياة الإنسان ووفرت له الفراغ الذي يستطيع الفرد - إن أراد - أن يستعمله في سماع الموسيقى ، أو في مشاهدة مسرحية أو - طبعاً - في القراءة .

وقد مرت العلاقة بين العلوم والآداب والفنون بمراحل مختلفة . مراحل أخاء وتعاون ومراحل عداء مستحكم . لقد صفق الأدباء للعلوم . واستخدم بعض الشعراء من أمثال يوب مثلًا تشبيهات علمية حين قال :

إن النساجة الكاذبة كالزجاج في البؤرة .
يشر الكواكب صارخة فوق كل مقال
إن الطبيعة لم تعد تراهي كما هي
فقد صار شوقها صارخاً
ولكن التعبير الصادق كالشمس الثابتة

عالمنا عالم تسييره العلوم . عليها الطبيعة والبيولوجيا والزراعة والتكنولوجيا وكلنا نفتخر بفضل العلوم وأهميتها في مجتمعنا الحاضر . فهي ضرورية لتوفير الغذاء ولبناء المنازل . بن أيها ضرورية في نظام الحكومة نفسها فهو مقام على أسس علمية تراعى الظروف الاجتماعية والحاجيات البشرية . ولكن هناك فئة من الناس تعتقد أن العلم قد تخطى حدوده . وأن العلماء قد أخذوا على عاتقهم مهاماً لا تدخل ضمن اختصاصهم . وهذه الفئة هي الأدباء والفنانون الذين يرون أن العلماء لا يريدون أن يقصروا اختصاصهم على النواحي المسادية التي ترمى إلى تحسين مستوى المعيشة ، وتقدم المجتمع مادياً بل أنهم ينادون بأنفسهم حكماً على النواحي الخالقة الجمالية . وبدأوا يتدخلون تدخلًا سافراً في شئون الآداب والفنون . ويصدرون أحكاماً نقدية بدون وجه حق .

وهنا تظهر المشكلة .. فهل هذا التدخل بدون وجه حق ؟ أم أن من واجب العلماء وهم الآن يسيرون المجتمع أن يكون لهم تأثير مباشر في تأثير شعوري على نواحي الحياة الأخرى . أن هذا الاختلاف

الوعي الفني يأتي في الحسبان - انه تأثير مباشر لا يحتاج الى التفكير فيه . .

ومادما يصدد الحديث عن الفن أقصد الفنون التشكيلية . فيحسن بنا ان نحاول الوصول الى علاقتها بالعلوم . ومدى تأثيرها بطريقة البحث العلمي . ان وليام هودين وهو من كبار فناني الخزف . كتب يناقش هذه المشكلة في كتابه « العلم والفنون الخالقة » فقال :

« ان الفنون في اتصال مستمر بالعلوم . سواء العلوم البيولوجية او الرياضية او الطبيعية . فالفنان يدرس التشريح ودراسة البنية ويدرس الرياضة والنقود ويدرس نظريات الضوء . وهذا الاتصال المباشر يجعل الفنان عرسة لتأثير الطريقة العلمية ويجعله اول من يحس بضعفها . وهناك بعض النقاد الفنيين مثل ايريك نيوتن الذين يعتقدون بلياقة هذا الاتصال . وبان الفنون تقدمت بسبب العلوم . . ولا اريد ان ابدو متعجرا ضد العلوم . ولكن في الواقع ان للدراس الفنية العديدة ليست الا ثورة ضد هذا الفرع من المعرفة فمثلا العالم ينادي بأهمية الناحية الشكلية في الفنون . ولذلك ناول مارلوا ثرنا على الشكل . وهذه الثورة هي في الواقع احتجاج على العلوم .

ولكن اريك نيوتن يرى في هذه الثورة انعكاسا للطريقة العلمية . »

رأى ان هذه الثورة دليل على تطور الفنون . والعلوم تعترف في التطور وتعتقد ايضا في ولية الفنون . وبيكاسو مثلا حين رسم لوحاته كان يعكس هذا التطور وهذه الوظيفة . انسا انا درسنا مثلا اللوحات التي رسمها في فرنسا أثناء الاحتلال الالاني لوجدناها تعكس نسجور الرعب الشديد الذي بدوره يعكس التجربة الجسمية والروحية التي مرت بها فرنسا في تلك الفترة . ان الفنون التشكيلية في تطور مستمر . فنحن نذكر حقا انه رسكين من ان الفنان يجب ان يلجأ الى الطبيعة . ويقترب منها ويحاول التغلغل الى معناها الخفي . .

ولكن اريك فيوتن يرى في هذه الثورة انعكاسا مختلفة من تطوره انتهت بالسوريالية ، ولكن على الرغم من ان هذه الحركات الفنية متأثرة تأثرا مباشرا بالعلوم الا ان هناك فوارق عديدة بينهما . وهذه الفوارق ناتجة عن الاختلاف بين وسائل العلم الحديث ووسائل الفن الحديث . ومهما اختلف المكان الذي تجري فيه التجارب العلمية ومهما اختلفت جنسية العلماء المشتغلين على هذه التجارب . فاننا نجد ان وسائل قيامهم بها لا تختلف . انها وسائل ذات صبغة عالمية . ولذلك

التي تشرق وتطفي كل مائة مرة بتورها .
انها تطل الانبياء بلون الذهب . ولكنها لا تغيرها .

ولكن هذا لم يمنع نفس الشاعر من هجاء العلم حين قال متحدنا الى العالم :

ذهب ايها المخلوق العجيب اصعد حيثما يقدرك العلم
ذهب ولس الارض . . وذن الهواء واصب الله والجزر
واختبر للكواكب الاثارة التي تسير فيها
وعدل من الزمن القديم ونظم دورة الشمس
الذهب وعلم السماء كيف تحكم الارض
لم ادرج الى نفسك . فسترى انك لا تزال غيبا .

ولكن من أهم التأثيرات التي يدين بها الأدب والفنون للعلوم هي الطريقة العلمية . وقيل ان تتقدم خطوة أخرى يحسن بنا أن نعرف صفات هذه الطريقة ويقول الدكتور وادنجتون في هذا :

« ان العلم هو محاولة الانسان للتحقق لمعرفة الاسباب التي تتولد عنها الظواهر ، انه يتعامل بالتحليل الدقيق . وهو يعطينا أساسا ثابتا للحكم على القيم الموجودة . وهذا الأساس هو ان هذه القيم تؤخذ بمدى نجاحها في تفسير المشاكل العملية التي تواجه الإنسانية وفي إيجاد حلول لهذه المشاكل . والادب ايضا يجب ان يعلم هذه المشاكل . ولكنه ليس من القروض ان يجد لها حولا . »

ولكن هناك من العلماء من يفرق بين وجهات نظر العلوم المختلفة . فالعالم السيكلوجي مثلاً يتقبل نظريته عن عالم الطبيعة ويقول الدكتور ج . ريبه ، هودين وهو من النقاد الفنيين اذوي الثقافة العلمية .

« تكلف ان اعلننا صورة تشبه امرأة عارية . وتفرس ايضا ان معنا عالما لسانيا ومؤرخا فنيا وعالم طبيعة وفردا من يستيقظون الفن . . كيف سينظر كل من هؤلاء الى الصورة . ان العالم السيكلوجي سينظر اليها باعتبارها تساميا لفرقة الاستيلاء والمملكة المكتوبة في النفس الانسانية ، ومؤرخ الفنون سينظر اليها باعتبارها المرحلة الأخيرة من مراحل تطور تكتيك رسم الأجساد العارية في أوروبا .

اما علم الطبيعة فانه سيركز اهتمامه على التواحي العلمية ، سينظر الى الرسم باعتباره مكونا من ذوق والوان وصله بدورها تتكون من ذرات موجودة في حالة من التوازن المؤقت . وقد يفرج من هذا بعض تأثير هذه الذرات بعضها على البعض الآخر ، ولابد انه في النهاية سيدرس طريقة يقاس بها تأثير هذه الذرات . اما الشخص الذي يستيقظ الفن فانه لن ينظر الى هذه اللوحة على أساس أي علم من هذه العلوم التي ينظر اليها عالم السيكلوجي او المؤرخ الفني او عالم الطبيعة بل على انها هي ذاتها . انها مغسوق فني ، لمطوكة ولشكلة حياة خاصة بها وتكونت وحدة وكمال ، وانها ترفي في حد ذاتها . ان كاتب هذه اللوحة على مثل هذا الشخص ذي

• اعتقد أن لا بد من وجود فلسفة تحاول أن تشرح للشخص العادي مغزى العالم ومصدره بالنسبة إليه أننا مشر العلماء تقع في خطأ كبير حين تفريق من معنى العلوم • إن العلوم ليست مجرد قياس لحبة طبيعية بدقة • أو تتبع تغيرات بيولوجية • ، إنها أعم وأشمل ويجب أن تتوى العلوم الاجتماعية • مثل الاقتصاد والاجتماع وعلم الأجناس • ويحاول علماء الطبيعة وضع هذا النوع من العلوم في الكفأة الثانية • بينما الواقع أنها أسس للجمع الذي نعيش فيه • ولا شك في أن بعض العلماء أنفسهم أحسوا بنقص غيبة الأمل نحو العلوم الطبيعية فتجد أن أدامز مثلا يهاجم هذه العلوم • أو بمعنى أصح ينقدها حين يقول :

• أنها لم تسر بنا في طريق الوحدة التي كنا نعتقد أنها ستوصلنا اليه أن منهج العلوم هو التحليل والتفكيك إلى أجزاء • وهذا لا يساعد على الوصول إلى الوحدة المطلوبة •

• وأنا لا أوافق على ذلك أدامز بل اختلف عنه بعض الشيء • لأنني اعتقد أن علم الطبيعة يستطيع أن يوصلنا إلى هذه الوحدة المنشودة فهذا العلم له وجهان • فهو من ناحية يتصل بعالم الأشياء المادية • أنه منهج الوسائل التحليلية • وطريقة استعمال هذه الوسائل - ولكنه أيضا عمل اجتماعي إنساني • تتفاعل الإنسان مع المجتمع الذي يعيش فيه • ومع التغيرات السياسية والاقتصادية لهذا المجتمع •

ومعنى هذا إن الأستاذ برنال يريد الربط بين العلوم الطبيعية وبين العلوم الاجتماعية وهذا في الواقع هو الأساس العلمي الحديث فمن الممكن مثلا شرح نظرية داروين بطريقة سياسية • فقد استعملت هذه النظرية القائلة بأن البقاء للأصلح لإقامة مذهب التفردية العنصرية • بينما في الواقع أن داروين حين خرج بنظريته كان يقصد بها البقاء للأصلح في الطبيعة ولهذا السبب ينادي العلماء الآن بضرورة شرح العلوم للشعب وهذا ما ينادي به الأستاذ برنال حين يقول أن شعبية العلوم وتبسيطها من الأمور الأساسية في مجتمعنا الحديث فالنازية مثلا كانت تنادي بأستقرراطية العلوم • وأن الشعب لا دخل له فيها ونحن نعرف نتيجة هذه النظرية • وهناك الآن خطر في أننا نسير في نفس الاتجاه •• إن الشعب يجب أن يعرف الكثير عن العلوم • لقد وصل تطور العلوم الطبيعية إلى ذروته باكتشاف الذرة • أن أول قبيلة ذرية أقيمت في هيروشيميا أظهرت لنا تلك القوة الخارقة التي وضعها العلم في يد الإنسان لتسخير الطبيعة •• إن هذا الاكتشاف أخطر من اكتشاف النار والزراعة من قبل • ومهمة

فإن النتائج التي تظهر من هذه التجارب تكون ذات تأثير على الإنسانية عامة • أما في الفنون التشكيلية فالرغبة في التعبير الفني لها دوافع تختلف من فنان إلى آخر ومن بلد إلى آخر ونتيجة لذلك تأتي وسائل التعبير مختلفة بعضها عن بعض • ولهذا السبب نجد أن بعض الحركات الفنية وقف على أماكن معينة وحضارات معينة فترى أن حركة السورباليزم لم تنشر إلا في أوروبا وأمريكا ولم تصل بعد إلى آسيا أو أفريقيا • بينما نجد أن النظريات العلمية تجد طريقها بسرعة قريبة من مكان إلى آخر ونستطيع أن نقول أن الموسيقى تشبه العلوم إلى حد كبير • أقصد في سرعة الانتشار • فنحن جميعا يلد لنا سماع الموسيقى مهما كان مصدرها أي أنها تنتقل من مكان إلى آخر بحرية والسبب هو أن الموسيقى من أقرب الفنون إلى العلوم • فهي مبنية على أسس رياضية وطبيعية • وقد بالغ بعض الموسيقيين في تطبيق العلم على الموسيقى فنرى مثلا موسيقيا مثل ارثولد شوينرج الألماني يخترع طريقة تعتمد اعتمادا كلياً على تكرار بعض النماذج الرياضية وإن كانت القطع الموسيقية الناتجة قد لا تروق الجميع • والموسيقى تنتقل بنا إلى التمتع ويشرح أيفور إيفانز السبب في معاداة بعض الشعراء للمسلم فيقول :

• أنه موقف عدائي • فقد اعتقد بعض الشعراء وخصوصاً أفراد المدرسة الرومانتيكية أن العلم يساعد على خلق نظرة ميكانيكية للعالم • فبدأت حركتهم ثورة ضد العلوم • ضد المجتمع التكنولوجي الذي أراد القضاء على الطبيعة وجمالها • كان الشعراء يعتقدون أن العالم بمصانه ودعائه سيعمر صفحة الطبيعة العفائية • بل أنه سيغير بالطبيعة نفسها •

وطبعاً لم يكن لهذا الخوف أساس • لقد أراد شعراء الرومانتيكية أن تبقى الطبيعة كما هي • والا يتدخل العلم في حياة الإنسان ليجعل منها حياة أسهل وأكثر راحة • وهناك مع الأسف بعض الأدباء المحسنين الذين ينفون مافعله العلم في المجتمع • ويرددون أن المصانع تعسكر جو الريف الجميل • وإن الطرق الحديثة تقضي على نواحي الجمال فيه • ولكن هناك نقداً أساسياً يوجه بعض العلماء أنفسهم للعلوم • وخصوصاً العلماء التقدميون • ويقول الأستاذ برنال :

الآداب والفنون في رأيي هي المساعدة على نشر هذه المعرفة العلمية .

وهذه نقطة مهمة جدا . وهي أن الادباء والفنانين يجب أن يتعاونوا مع العلماء ويستند الدكتور ايفور ايفانز أن مركب النقص الذي يحس به الفنانون والادباء يجعلهم يتقاعدون عن العلماء . فقد استطاع العلم في عالمنا الحديث أن يضاف من امكانياته ومن حيويته وذلك لانه مجموعة تجارب يضاف بعضها الى بعض لتكون وحدة . ولكن الفنان يجد أن مركزه في افول مستمر أولا لفرديته القاسية وثانيا لأن تجاربه من شأنها أن تافل أمام الحضارة العالمية . ان مكانة الفنان الخالق تحتاج الى تجديد . انه لن يستطيع أن يصلح العالم أو ينقذه . ولكن في استطاعته أن يشرح كل مأسو هام في التجربة الانسانية . وهذه الانسانية يجب أن تعرف أن العلم له مكانه والفن له مكانه والدين له مكانه والفلسفة لها مكانها . ويمكن للفنان أن يؤكد مكانه في وسط العلاقات الاجتماعية والروحية للانسان .

يجب ألا يستعمل الفنان فنه سلاحا ضد المجتمع أو خادما لنظام ما ، يجب أن يزيد من معرفته للعلم وأن يختلط بالعلماء ففي يدهم ألحج مفتاح مجتمعنا العاصر .

وهناك فعلا عدد من الكتاب اخبروا بهذه النصيحة . وحاولوا أن يشرحوا العلم ويبسطوه أو يستملوه في كتاباتهم . ومن هؤلاء ج . ويلز مثلاً الذي استعمل العلوم الطبيعية والبيولوجية وكتب قصصا بمثابة تنبؤات للمستقبل كتب ويلز « آلة الزمن » وفيها يستعمل الطبيعة والرياضة - وكتب « الرجل الخفي » وفيها استعمل الكيمياء والبيولوجيا ويعلق الأستاذ ايفانز على هذا فيقول :

« ان بعض هذه القصص كان ممتازا وفي نفس الوقت صلبا . فلهذا كنت من هذا ان التعليل العلمي لم يغم أو يؤخر من مكانة الفنان في المجتمع اليكانيكي العلمي . بل ان ويلز كان دائما يحسب ان يجب من نفسه صفة الفن ويخط مظهر العالم وشانه في هذا شأن جوده الشاعر الكلاسي ، الذي كان يمر بمعرفته العلمية الى درجة كبيرة ، وكانت له فعلا فلسفة يمكن القول بانها علمية . ولكنها كانت اسما انشائية في ذات الوقت . ولا ولنا نذكر ما قاله :

« ان أساس مجتمعنا علمي لا شك في ذلك . ولكنني احس بالهول والقلق من هذا التزايد المستمر في ميكانيكية الحياة . لقد أدت الى جهل الناس بانفسهم ، لقد صار هم المجتمع الآن

هو التودة والسرعة . وكل الاختراعات ترمى الآن الى تبسيط سرعة الانتقال . ان هذا هو مايرمي اليه العالم المتطور ليزيد من حضارته وبالتعبية من الالة .

على أن هناك ناحية هامة في الادب للعلوم فيها أثر كبير وهي ناحية الزمن . ان هذه المشكلة تعد أخطر مشكلة خلفها العالم في المجتمع الحديث . خلفها بنظريته النسبية والعلاقة بين الزمن والقضاء . ويقول شبنجلر الفيلسوف الألماني من هذا :



« لقد افننا نظرية فلسفية جديدة . نظرية عن الحياة فالعبرة لدينا لم تعد حالة الوقوف والتثبات في علتنا العاصي ، لقدت على شعور الدوام وصار الفرد مهددا بالانقيار . كان الانسان في الماضي يتعد في وجود اطار له « سيمتريه » يعيها بالعالم ويطنه في داخله كالسورة . كان هذا الاطار يعوي داخله الله والاسقف والحيون والتثبات . كان هناك احتسرام للسلطة وللحسبي الكنسوي باحترام الاب والاسرة والسولة ومملكة الله .

وهذا يكرره الفيلسوف وندام لويس حين يقول :

« ان السرعة التي يحدث بها التطور الاقتصادي والاجتماعي ليست هي شعور الافراد والتثبات في علتنا العاصي ، لقدت على شعور الدوام وصار الفرد مهددا بالانقيار . كان الانسان في الماضي يتعد في وجود اطار له « سيمتريه » يعيها بالعالم ويطنه في داخله كالسورة . كان هذا الاطار يعوي داخله الله والاسقف والحيون والتثبات . كان هناك احتسرام للسلطة وللحسبي الكنسوي باحترام الاب والاسرة والسولة ومملكة الله .

ولكن هذا الاحترام زال تدريجيا . فتأثرت الكنيسة على البابا . وزالت الوحدة بين الدين والعلم والفلسفة والفنون . وظهرت صفة التخصص الجاف . فحدث انفصال قوي بين النشاط الذهني والنشاط الفني . زال هذا وبدا الجميع يبحثون عن شيء يصل محلله فعاد البعض الى الدين حيث السؤال ممنوع وذهب البعض الى الفلسفة حيث السؤال يجاب بالنفي . كل هذا حدا بكتاب القصة الى البحث عن اطار زمني جديد .

فنجده أن فرجينيا وولف تقول ان الاطار القديم ثابت ولم يعد التثبات من صفات مجتمعنا المتفكك . ان القصة يجب أن تكون تمسجيلا للذرات بمجرد وقوعها على العقل ، ان مفتاح هذا العصر هو السرعة والسرعة هي العلاقة بين الزمن والقضاء . ان الزمن الآن هو معيار قياسنا للمنجاح .

لقد استطاع الزمن في هذا العصر أن يسيطر على القضاء . وقضى العلم على وحدة الزمن التي نادى بها ارسطو وكان لنظرية النسبية أثر كبير في الأدب . ويقول الأستاذ وادنجتون .

« ان النظرية النسبية تقول ان الزمن يتخذ مدى في نظم عديدة وانه يختلف من نظام الى نظام - ان الزمن لا يكون مشتركا بين شخصين » .

ففي القصة مثلا مجموعة من القيم الزمنية تحدد بثلاثة انواع من الزمن زمن الكاتب الذي قضاه في كتابة القصة وزمن القيساري الذي قضاه في قراءتها وهناك زمن بطل القصة . هذه القيم الزمنية . تكون بنينا متوازنا وقد ادت هذه النظرية الى القول . بان التقسيم الزمني الى ماضى وحاضر ومستقبل تقسيم غير طبيعي فالقصردين فينا يستطيع ان ينصت الى محاضرة في الحاضر ويعيش في داخله في أحداث الماضي ، ويفكر فيما سيحدث بعد المحاضرة . كل هذا في وقت واحد . ويضى الكتاب يخلطون بين هذه الأزمنة فترى القصة تخرج من واحدة الى الثانية الى الثالثة دون سابق انذار . وقد أثرت هذه النظرية حتى على اللغة فخلعت عنهنما التقسيمات الزمنية للكلمات والجمل . فترى كتابا مثل جيمس جويس يستعمل لفظة لا ترتبط بالقوانين المنطقية للقواعد .

نخرج من هذا بان المشكلة هي مشكلة تصان وثقة . ان هناك تضالا بين العلوم وبين ناطقة الادب والفنون من ناحية اخرى . ولكن هذا التضال مفيد لا يضر .

ان التضال بين شيئين لا يعنى كارثة . انه فرصة عظيمة والاختلافات التي تظهر في تطور المعرفة الحقيقية ليست الا الخطوة الاولى نحو التقدم . لا شك في ان الفكر العلمي قد اثر على الفن الحديث والأدب الحديث . والفنان يجب ان يعطى هذا العصر العلمي صورته الفنية . وهذا التعاون كيف يأتي ومن هو الملموم على عدم وجوده ؟ في رأى النقاد الفني « هودين » ان الخطأ يقع على مجموعة من الكتاب والفنانين الذين يعيشون في عالم مثالي . ان هؤلاء ساعدوا على ابعادنا عن الحياة وبذلك أضغفوا من ارادتنا للصل الى درجة تحطمت معها هذه الارادة حين واجهت عالم الواقع . عالم المعلوم . ان العلوم هي اساس الحياة - الحياة الجديدة . ولكن قبيل ان تزدهر هذه الحياة فان الأرض في حاجة الى حرث وإلى تشذيب والأدب الحقيقي والفن الحقيقي هو بمثابة هذا الحرث وذلك التشذيب .

وينحجب البعض الى أبعد من هذا فيجد ان الأستاذ ابقور أيفانز مثلا لا يجد فرقا كبيرا بين العالم والفنان حين يقول :

« ان الصل بين الفنان والعالم ليس بهذه القوة فلا شك في ان العالم الحديث يستعمل خياله الان كما يستعمل الفنان خياله . ولكن خيال العالم يخصص للتجارب أكثر من خيال الفنان . لكن هناك تواحي مشتركة بين كليهما فمثلا هو يشتغل بالتجربة تماما كالتمديد ، التمديد يرفى بالتجربة في حد ذاتها والفنان يحاول ان يشرح هذه التجربة بطريقته الخاصة والعالم يحاول ان يقرر اليها كنظام متصل . ان الفنان له حرية أكثر من العالم . فهو يستطيع ان يخلط استعاراته عن طريق الخيال . ولكن العالم يجب ان يبنى من الخيال علما واحدا متناسكا . علما يبرر من العلاقات بين التجارب . فمثلا نظريات نيوتن ولاراداي واينشتاين متصلة ببسطها وهي في ذات الوقت مغلوقة للخيال » .

ولكن هناك بطبيعة الحال بعض الاختلافات . وهي اختلافات في اساس العلوم واساس الفنون والأدب . فعلم العالم متجمع بينما الفنان يجب ان يبدأ من جديد . كلما اراد الخلق . ان العالم الشاب يستطيع ان يبدأ من حيث انتهى سلفه ولكن الفنان لا يجد من السهل ان يرث الماضي . لا شك انه يعتمد على الماضي ولا شك في ان كل فن مهما كان أصيلا فان عنصر التقليد فيه قوى . وكما يقول الكاتب الايرلندي ايرلارتي .

« ان تشد ما يؤمك الكاتب هو معرفته ان كل مايقدمه قد قيل من قبل » .

ان علنا على لا شك فيه وكلما أسرع الفنان في معرفة ذلك جاء الانقاذ السريع وعلى العالم من ناحيته مهمة أساسية وهي ان يشرح لنا الطبيعة ، يشرح لنا الخيال العلمي والاكتشافات والاحتمالات الوجودية امام طريقة البحث الجديدة ، ان عليه تقع مهمة رفع مستوى الحياة .

عليه ان يشرح نفسه للناس وبذلك يساعد هو وزملاؤه من العلماء على اقامته . ان الفنان سيجد في العالم مثلا يحتذى به . فالعالم أكثر نشاطا . انه يقضي اياما واليالي يراقب حركة لحيوان صغير في العمل . بطريقة قد يراها الفنان مهينة .

ولكنها أساسية وسيكسب العبالم اذا ما قويت العلاقة بين العالم والفنان ، علاقة مبنية على ثقتهما في الانسان وفي وظيفة الانسان .



وجه فتاة في مقبر العبر محفوظ في متحف كونهاجن

من روائع الفن المصري

لوحات الفيوم

بقلم
الدكتور عبد المنعم أبو بكر

من الواضح تمامًا أن المصري القديم اعتبر الجسم البشري بمثابة صندوق يغلف عناصر أخرى تعيش داخله خلال الحياة الأولى فوق الأرض ، ولكنها لا تلبث أن تنفصل عنه لتبقى وتعيش حياة أبدية . هذه العناصر التي يحويها الجسم هي :

أولاً : « ألبا » (عنصر الحياة) ونفهم مما قاله المصري عن هذا العنصر أنه يقرب مما تطلق عليه نحن « الروح »

ثانياً : « الكا » وهو ذلك الجسم الأثيري الذي يسكن الجسم المادي ويشبهه في كل شيء ، يخلقان سوياً ويقوم على خلقهما الإله خنوم (معبود جزيرة اليفانتين على هيئة الكبش) ، وترجم عادة هذا العنصر « بالقرين » واعتقد المصري أن « القرين » هذا سيحيا في المقبرة بعد الموت ولكنه لا يستطيع الاستفادة من هذه الحياة ويسعد بها إلا إذا توفرت لديه بعض الشروط وأحيط ببعض الضمانات ، ومن أهمها تحنيط الجثة حتى تحتفظ بصورتها الدنيوية لتتعرف عليها « الكا » ومن الضمانات أيضا أن تزود

لعمل الفرصة لم تواتر الكثيرين منا ليغفروا شيئا عن من مصري عاش وازدهر في هذا البلد العظيم في القرون الأولى من العصر الميلادي . فن أبدعته أيد مصرية حاولت أن تستعيد مجداً تليداً كان قد خبت شمسائه أو كادت ، أقصد بذلك تلك اللوحات الخشبية التي حملت صوراً مرسومة لوجوه الناس والتي كانت توضع فوق جثث الموتى بعد تحنيطها وإحكام لفها ، ومكان هذه اللوحات فوق الرأس لتدل على صاحب المومياء .

هذه ولا شك عادة مصرية قديمة اتبعها المصري منذ أول تاريخه أي منذ أن اعتقد في حياته الأبدية التي لا بد أن يبدأها بعد أن تنتهي فترة الحسبة الأولى على الأرض ، ومن أهم مقوماتها تحنيط الجثة وتزويدها أما يتمثال يحفظ تماماً ملامح الوجه أو بقناع للوجه يوضع فوق الجثة ، وهذان المقومان الرئيسيان تحتتهما العقيدة المصرية التي جعلت حياة الدنيا الثانية وفقاً على العنصر البشري الأثيري غير المادي أي على « الكا » (القرين) .



وجه سيدة مغرورة في متحف اللوفر



المقبرة بمثابة يسرى المثال جهد استطاعته أن يجعل ملامحه تطابق ملامح صاحبه تماما ، هذا غير تكديس ألوان من الأكل وأنواع من الشراب والأثاث في حجرة الدفن ، وليس من شك أن ماتركه المصري القديم من دواجن الفئ سواء النخائل أو النقوش كانت لخدمة « الكا » قبل كل شيء .

ثالثا : « الآخ » وهو عنصر الهى اعتقد المصري أنه يمثل شخصية صاحبه ، لا يبقى بعد الموت فوق الأرض ولا يسكن القبر ، بل يصعد توا الى السماء ويصبح نجما يزىن جسم الهة السماء « نوت » ويتلأأ فى الليل ، ومن هنا اصطلحنا على إطلاق اسم « الجسم النثير » على هذا العنصر .

رابعا : أما العنصر الرابع والأخير فقد كان القلب وأطلق المصري عليه كلمة « ايب » ، وعقيدته فيه جعلنا تشبيهه « بالضمير » لدينا ، فهو الذى يهذى الإنسان فى حياته الأولى الى الخير والشر ، وهو مركز الأساسيس البشرية لديه .

وإذا كان المصري قد زود « الكا » بمثابة يبقى على ملامح الوجه ويجعل من السهل عليها أن تتعرف على مسكنها (المقبرة) ، فنراه قد آمن فى اتخاذ الضمانات بأن وضع فوق رأس الجثة المحنطة قشاعا ، تارة من الذهب الخالص ، للبلوك وثرأة القشوم ونضرب لذلك مثلا قناع الملك (توت عنخ آمون) « تارة أخرى من لافاف السكتان تملوها طبقة رقيقة من الحمى ، ثم فى نهاية الأمر وفى المصنوع الأخيرة من الحضارة المصرية لوحات مرسومة وهى التى سمعناها فى هذا المقال .

تمكن أحد تجار العاديات النمساويين واسمه تيودور جراف من أن يوفز بفنمية أثرية كبرى فى عام ١٨٨٧ ، إذ اشترى ما يزيد على ٣٠٠ لوحة خشبية تحمل كل منها صورة لوجه ميت كانت تثبت أمام وجه المومياء . اشتراها كلها من منطقة الفيوم وحملها معه الى بلده فيينا ، واستطاع بسدد عامين أن يعرض منها ما يقرب من مائة لوحة ، عرضها فى الأكاديمية المسكية فى برلين ، وكان لمرضاها كمجموعة متكاملة ضجة كبرى فى الأوساط العلمية والفنية وعقدت الدهشة السينة الناس وتهاقنت الدول على طلب نقل المعرض اليها ، واستجاب تاجر العاديات وطاف مع معرضه فى أكثر من بلد سواء فى أوروبا أو فى أمريكا .

ومنذ عام ١٨٨٩ بدأ العالم يتحدث عن لوحات الوجوه المرسومة من الفيوم ، حقيقة أن بعض

مومياء كاملة وقد ظهر على الجسم مظاهر جنازة مصرية قديمة يمثل الآلهة أتوبيس يشرف على تحنيط الجثة والآلهة زوريس ممثلا على هيئة قائم يلو تاج الآلهة ويعسط به على اليمين « نحت » وعلى اليسار « أريس » ولقد لبثت اللوحة التى تحمل رسم الوجه فى اطل المومياء امام مكان الرأس ، وهذه المومياء محفوظة فى المتحف البريطانى

المتاحف كانت تملك منها عددا قليلا ، ولكنه لم يزد هذا العدد عن ١٠ لوحات ، ٦ منها فى متحف اللوفر واثنين فى المتحف البريطانى واثنين فى متحف درسدن بألمانيا ، وكانت جميعها فى حالة سيئة من الحفظ ، ولم تكن قد أثارت الاهتمام فى نفس أحد من العلماء أو الفنانين .

ومثل ذلك الوقت أصبحت منطقة الفيوم قبلة الباحثين وتجار العاديات ومن ثم علماء الآثار ، فلما يؤسف له حقا أن علم الآثار كان منذ أوائل القرن التاسع عشر وقفا على حفنة من الناس يمكن أن نطلق عليهم اسم ناهبى القبور ومخربى الآثار أمثال « جيوفانى مزونى » والقنصل الانجليزى « سولت » والقنصل الفرنسى « دروتى » ، بل أن كثيرا من السياح الذين كانوا يقصودون مصر للترعة والاستجمام لا يلبثون أن يدلوها بدلهم فى

البحث عن الآثار ويقوموا بالتنقيب عنها ويأخذوا معهم ما يصل الى أيديهم . لقد بقي الحال في مصر هكذا حتى أواخر القرن التاسع عشر وبعد أن قامت مصلحة الآثار والمتحف المصري بدورهما في القضاء على الفوضى الشائنة التي كانت تخيم على مصر في شئون البحث عن الآثار - أعود فأقول أن منطقة الفيوم أصبحت حقلاً مشعراً بالنسبة الى البحث عن الآثار ، وفي الواقع عثر فيها على كنز ثمين من أوراق البردي وصل في عدده الى ٢٠ ألف بردية كما عثر أيضا على كمية هائلة من اللخاف (أوستراكا) المكتوبة ، هذا غير المنسوجات الملونة والتي تزدان بأشغال الابر الرائعة ، ثم تماثيل التناجرا الملونة الفاخرة .

ولعل القارئ يتساءل عن الأسباب التي جعلت منطقة الفيوم تموج بكل هذه الكنوز الرائعة ، وما هي أهمية الفيوم كواحة تبعد عن وادي النيل الخصيب ، وموقعها لم يساعدها مطلقاً على أن تلعب دوراً سياسياً أو دينياً مهماً في تاريخ مصر القديمة .

من المعروف أن تاريخ منطقة الفيوم التي كانت تكون الاقليم الحسادى والشماليين من اقليم مصر العليا في العصور الفرعونية ، يبدأ منذ عصر الأسرة الثانية عشرة (أى منذ عام ١٨٥٠ ق.م) فزاعته هذه الأسرة ، كانوا أول من فطن الى أهمية هذه

لوحة تحمل صورة الوجه وقد ثبتت تحت اللغلاف التي لفت بها الكوميد وهي محفوظة في المتحف البريطاني



الواحة التي تنوسطها بحيرة واسعة شاسعة يمكن تقليل من الجهد أن تستخدم كخزان هائل للمياه يلقى النيل بكميات من الماء في أيام التحاريق تجعل الملاحة فيه صالحة على مدار السنة وتجعل الرى مستطاعاً أيضاً في هذه الفترة ، وبحدثنا التاريخ عن السد الطويل الذي شيده ملوك الأسرة الثانية عشرة فحجز المياه في البحيرة من ناحية ، كما حصرها عن رقعة كبيرة من أرض الفيوم أصبحت صالحة للزراعة بلغت في مساحتها ما يقرب من ٢٠ ألف فدان . ومنذ عصر هذه الأسرة أخذت الحياة تزدهر في اقليم الفيوم ، واستمرت العناية موجهة اليه طوال العصر الفرعوني ، ثم ازدادت في العصر البطلمي وذلك نتيجة للسياسة التي انتهجها ملوك هذه الأسرة واختيارهم للفيوم لتكون المنطقة التي تستقر فيها جموع الجند المراتزة الذين سرحوا من الخدمة العسكرية ، فأقطعتهم الدولة اراضى واسعة ، في الفيوم ليقوموا على زراعتها ، وهكذا تجمعت فيها أعداد كبيرة من اليونانيين لونوا الحياة في العاصمة الاقليم بلون افريقى ونقلوا الكثير من عناصر الحضارة اليونانية الى وطنهم الجديد وتفتحت سبل المدنية وازدهرت حتى أصبحت مدينة الفيوم اكبر منافس لمدينة الاسكندرية عاصمة البطالة . ولأدت أهمية مدينة الفيوم في عصر الملك بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ ق.م) الذي بلغت عنايته بها أن أطلق عليها اسم زوجته « ارسينوى » ثم نشأت الى الشمال الشرقى من عاصمة الاقليم التي أصبحت تعرف باسم « ارسينوى » مدينة أخرى تبعد عنها بما يقرب من ٢٠ كيلو مترا عرفت باسم « فيلادلفيا » .

وعندما دالت دولة البطالة في مصر وانتقل الحكم الى الرومانيين بقيت للفيوم أهميتها واستمرت عوامل الازدهار تهيم عليها واحتفظت عاصمتها الاقليم بمنافستها لمدينة الاسكندرية وتكاثرت أعداد الجاليات الأجنبية فيها وبخاصة الجالية الاغريقية ، ولو أن أهل المنطقة من المصريين كانوا يسبغون في حياتهم اليومية على النمط المصري محتفظين بتقاليدهم القديمة ، لا يأخذون من الحضارة الحديثة الا القدر اللازم لقائمة التوازن بينهم وبين النازحين من الجاليات الأجنبية . وهكذا احتفظت لنا أرض الفيوم بكنوز من الآثار القيمة التي تركتها لنا مجموعة مختلطة من الناس تمددت حضاراتهم واختلقت نظم

حياتهم ، ولو أن هذه الحضارات كانت في نهاية الأمر تنحصر في بوتقة الحضارة المصرية الغشائية وينتج عن هذا الانحصار لون من الحضارة لاشك أنه يصل بين طبائعه الكثير من عناصر الحضارة المصرية الأصلية .

نعود الآن إلى الحديث عن لوحات الفيوم لنقول بأن المجموعة الضخمة التي فاز بها تاجر المصاديات ، « تيودور جراف » عام ١٨٨٧ كانت كلها من منطقة الروبيات (فيلادلفيا) ، ونحن لانستطيع مطلقا التعرف على طريقة الدفن وطراز المقبرة في الجبانة التي عثر فيها على هذه اللوحات ، وسبب ذلك أن هذه المجموعة كان قد عثر عليها جماعة من المزارعين أثناء نقلهم لكميات كبيرة من السباد العضوي (المعروف بالسباد الكفري) من هذه المنطقة ، ولا شك أن تعبئة هذا السباد ونقله كانا يجريان بطريقة لا يمكن معها التعرف على أي ناحية من النواحي الأثرية ، إلا أن الأثرى الدال على الصيت « فليندرز بترى » سجل لنا معلومات دقيقة عن الجبانة التي عثر فيها على الموميات المؤودة بلوحات تصور وجوه أصحابها (أي بلوحات الفيوم) ، وذلك أثناء تنقيبه في منطقة حولها بالفيوم . ومن تقاريره التي نشرها ببسبب وأنها أن المقبرة التي دفنت فيها هذه الموميات ، أما أن تكون عبارة عن صالة منقورة في باطن الأرض يتفرع منها عدة ممرات نفرت في جدرانها مشكاوات تتسع كل منها لاحتواء مومياء ، أو توضع كل منها في منخفض في الأرض ينقر ليتسع لطول المومياء وعرضها ، وهذا النوع من المقابر كان قريبا من سطح الأرض لاتكسوه إلا طبقة من الرمال يبلغ سمكها نصف متر . ولا بد أن هاتين الطريقتين كانتا متبعين أيضا في منطقة الروبيان (فيلادلفيا) القديمة .

ولاشك أن عملية التحنيط التي كانت تقوم على حفظ الجثة بعد تهيئتها باختلاؤها من الأحشاء والملح ووضعمها لمدة ٤٠ يوما في ملح التطشرون لامتصاص كل المواد الدسئية منها ، كانت تتم بملء الجثة بكميات كبيرة من مادة الرانج والغار النباتي ثم تلف بعناية كبرى بعشرات الامتار من الأقمشة الكتانية ، هذه العملية كانت تصيب لوحات الوجوه بكثير من التلف وذلك عندما تطفوا كميات من مادة الرانج بتأثير الحرارة إلى السطح وتصل إلى اللوحة

الخشبية وتملأ مسامها وتكسو السطح المرسوم بطبقة رقيقة منه فتطمس معالم الصورة وتلفها . وكنتيجة لهذا تهشمت وضاعت معالم الكثير من لوحات الفيوم ولو أن البعض منها لم تصل عوامل التلف فيه إلى درجة كبيرة واستطاع « بترى » أن يرمم الكثير منها وبخاصة تلك التي استخدمت في رسمها ألوان يسيل في تركيبها شمع العسل . واستعمل الفنانون في تحضير الألوان المستخدمة في رسم هذه اللوحات طرقا ثلاثة :

- ١ - شمع العسل
- ٢ - ألوان تمبيرا
- ٣ - ألوان التمبيرا ممزوجة بشمع العسل .

أما الطريقة الأولى فكانت تتم على أساس تحضير كمية من شمع العسل الأبيض ولغليها على نار خافتة ثلاث إلى أربع مرات مع إضافة كمية صغيرة من الملح على شمع العسل بعد كل مرة من الغليان ، على أن يترك الشمع بعد كل مرة ليبرد ويعاد غليه بإضافة كمية الملح السائلة الذكر وعند الغلي تنزع من سطح السائل الشوائب المتجمعة - وعندما تنتهي هذه العملية يضاهف إلى الشمع المغلي كمية بسيطة إما في زيوت الزيتون أو من سائل الترابنتين *Mistadine Serebinthus* ، وهكذا تتكون مادة ليئة ذات لون يعيل إلى البياض وتمتاز بلزاجة معينة يسهل معها مزجها بالألوان المطلوب . وواضح أن هذه الطريقة لم تساعد الفنان للوصول إلا إلى الألوان الأصلية ، وإذا أراد استعمال الألوان التي تحتاج إلى مزج بين أكثر من لون من الألوان الأصلية فكان يصل إلى غرضه بأن يمزج كميات صغيرة من عجينة لونين أو أكثر ، وصنعها سويا صحنا متواصل حتى يتم الامتزاج ، ولكن لاشك أن هذه العملية كانت تنتج اللون المطلوب على أساس أن ذرات كل لون من الألوان الممزوجة تبقى منفصلة بعضها عن البعض الآخر ، ولو أنها في انفصالها لا تبدو واضحة للعين المجردة ، بل تراها العين البشرية في لونها الذي يطلعه الفنان .

أما الطريقة الثانية ، طريقة التمبيرا فكانت تتم على نفس الأسس المستعملة حتى وقتنا هذا ، أي باستعمال بياض وصغار البيض كمادة لزجة لتحضير الألوان ويزمج بعضها بالبعض الآخر .

كانت توضع الصورة في فتحة تترك خصيصا لها أثناء لب المومياة باللغات الكثيرة ، وتكون هذه الفتحة أمام مكان الوجه تماما ، ويبدو هكذا لو كانت تطل من نافذة .

لقد قلت في بداية هذا المقال ان صور وجوه الموميات ترجع في عصرها الى القرون الأولى من العصر الميلادي . وفي واقع الأمر هذه نقطة طال الجدل عليها وكثرت النظريات فيها ولم تصل فيها الى رأى حاسم أو الى نتيجة محددة . ولعل السبب في ذلك هو عدم العثور على أى تاريخ مسجل فوق إحدى هذه اللوحات ، ومن أجل ذلك حاول العلماء أن يؤرخوا ظهورها واختفائها معتمدين على قرائن لاتسمو مطلقا الى حد الدلائل ، بل بالعكس لتسل الكثير من هذه القرائن يتعارض أحداها مع الأخرى .

فمثلا يود البعض أن يجعل من عام ١٣٠ ميلادية بدء ظهور عادة تزويد الموميات بصور الوجوه ، اعتمادا على مجموعة الصور التي عثر عليها في جبانة شيخ عبادة (أنطونيوى القديمة) ، وهي المدينة التي شيدها الإمبراطور « هادريان » الرومانى وأمر أن يبعد فيها غلامه « أنطونيوس » الذى كان قد غرق في الليل أثناء زيارة الإمبراطور لمصر ، وهي الزيارة التي حدثت عام ١٣٠ م ، وأصحاب هذا الرأى يرون في المصيصور على مجموعة من صور وجوه الموميات في مقبرة حاكم طيبة الرومانى المدعو « يوليوس سوتر » والمعاصر للإمبراطور « هادريان » قرينة تساعد على الأخذ بنظريتهم التي تجعل من عام ١٣٠ م بداية ظهور هذا الفن في مصر ، سواء في الفيوم أو في طيبة أو في شيخ عبادة

وليس من شك في أن الاعتماد على هذه القرينة فيه مأخذ كثيرة ، وخاصة إذا علمنا أن جبانة « تونة الجبل » وهي في نفس منطقة شيخ عبادة ، واستمر الناس يستخدمونها طوال العصر الرومانى في مصر ، لم تعثر بعثة جامعة القاهرة فيها على صورة واحدة لوجه مومياة ، بل الطريق المتبعة فيها كانت وضع قناع من الكتان المقسوى تكسو طبقة من الحصى الأبيض ويلون الوجه الجسم بالوان مختلفة ، ولقد عثرت البعثة على مئات من هذه الأقنعة ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن تكون عادة رسم وجوه الموميات قد ظهرت أول ما ظهرت في منطقة الفيوم في مصر سابق لحصر « هادريان » (أى ١٣٠ م) ، ولابد



وجه لشاب من الحارثين في متحف برلين

أما الطريقة الثالثة ، فكانت تتم بإضافه كمية بسيطة من بياض البيض الى الالوان التي حضرت بواسطة شمع العسل ، وهذه الطريقة تساعد الفنان على أن يستعمل في رسمه الوانا سائلة فيسهل عليه الانتهاء بسرعة من عمله ولكن يتضح بآلة اللوحات التي استعملت في رسمها هذه الطريقة قد انتهت الوانها بل في كثير من الأحيان اختفت الكثير من معالمها .

وأكثر صور وجوه الموميات كانت ترسم على لوحات خشبية طولها يتراوح بين ٥٠ سم و ٣٠ سم وعرضها يتراوح بين ٣٠ سم و ٢٠ سم وسمكها بين ١٠ ملليمتر و ٢ ملليمتر ، وكان العنان يبدأ بصقل السطح صقلا طيبا ومن ثم يغطى هذا السطح بطبقة رقيقة من سائل يتكون من مزيج الفسراء الأبيض والجبس ، ولو أن بعض هذه اللوحات رسم عليها دون إعدادها بالطريقة السالفة الذكر . ومن الملاحظ أن الفنان كان يختار اللوح الخشبي بحيث تمتد تصاريح الخشب امتدادا أفقيا . وأنواع الخشب المستعملة كانت : خشب الجوز أو اللبخ أو الأرز ، وقليل منها من خشب الزيزفون .

وإذا كان معظم صور وجوه الموميات قد رسمت على لوحات خشبية كما سبق القول ، فهناك قلة منها رسمت على قماش سميك من الكتان ثم يلصق القماش بعد ذلك على لوحة خشبية . وفي كتلسا الحاليتين

أيضا أن يكون أصحاب هذه اللوحات التي عثر عليها سواء في شيخ عبادة أو من أسرة « يوليوس سوتر » في طيبة ، كانوا في الأصل من أبناء القيوم ولكن ظروف الحياة جعلتهم ينتقلون إلى مناطق أخرى وعند وفاتهم نفذوا التقليد السائد في بلدهم حيث ولدوا .

البعض الآخر يحددون أواخر القرن الأول قبل الميلاد وأوائل القرن الأول الميلادي كبداية لظهور عادة تصوير وجوه الموميات ، وهذا البعض يعتمدون في تاريخهم على طريقة تصنيف شعور السيدات ، فمنها ما يشبه « موضة » تصنيف الشعر في عصر أغسطس ، ومنها ما يشبه الموضة « الشائعة في عصر كلاوديوس »

أما العصر الذي انتهت فيه هذه الطريقة ، فليقد اتفقت الآراء على أن هذه اللوحات أخذت في الاختفاء ابتداء من منتصف القرن الرابع الميلادي .

أما وقد انتهت من الحديث عن هذه اللوحات من الناحية العلمية ، مؤرخا لها وموضحا العوامل التي دفعت إلى إظهارها في هذا الأسلوب ، فليأتنا الآن لي أتحدث عن فيها والأسلوب الذي أجبته الفنان على رسمها ، وهذا أمر تنو به ثقافتى تميز الفنية ، وعلى كل حال سأحاول في حديثي عن فن لوحات القيوم أن أعبر فقط عن انطباعاتي ومشاعري الشخصية التي لاقيتها بعض التجارب الفنية ، فأعترف أنى لم أمارس الفن في مرحلة من مراحل حياتي .

منك بعض النقاط أحب أن أبرزها قبل التحدث عن فن لوحات القيوم :

أولا : هذا الفن نشأ وازدهر في منطقة لم تلعب دورا سياسيا مرموقا ، كما أنها لم يكن لها تأثير قيادى في أى ناحية من نواحي الدين الرسمي للبلاد، ونحن نعلم أن الدين الرسمي السائد في هذا العصر الذى يبدأ بأسرة البطلة (٣٣٢ ق م) وينتهى بتدهور الحكم الرومانى وبداية استقرار الديانة المسيحية والاعتراف الرسمى بها أى حوالى نهاية القرن الرابع الميلادى ، كان هذا الدين مستمدا من ديانة الاغريق ثم من ديانة روما . بالنسبة للطبقات الحاكمة فى البلاد ، بينما بقى الدين المصرى القديم دينا للشعب المصرى الكادح العامل ، الذى وإن تأثر

بمظاهر الحضارة الجديدة فهو لم يسمح مطلقا لهذه المظاهر أن تؤثر على عقيدته الدينية والجنائزية .
ثانيا : لقد كانت التقاليد المصرية السائدة طوال العصور الفرعونية ، ولا بد أنها استمرت بعد ذلك أيضا فى العصرين البطلمى والرومانى ، كانت هذه التقاليد تحتم أن يكون الفن فى العاصمة الأولى وكذلك فى عواصم الأقاليم ، خاضعا للقيود والقوانين الفنية المتوارثة ودليلا على ذلك تلك المعابد التى شيدها ملوك البطلة وأباطرة الرومان فهى تعتبر صورة طبق الأصل فى طرازها المعمارى وأسلوبها الفنى ، مما اعتاد الفراعنة فى مصر تشييده من معابد ، فى حين أطلق الفنانون فى الأقاليم العنان لسجيته وأحاسيسهم الفنية ، غير مقيدين بقواعد وقوانين الفن السائد فى العاصمة ، حدث هذا فى أهم العصور الفرعونية وأكثرها زمتا ، حتى أننا نستطيع التمييز بين ماقى العاصمة وماقى الأقاليم فى عصر الدولة القديمة والوسطى والحديثة من التاريخ الفرعونى .

ثالثا : إذا كان الأمر كذلك ، فأولئك الفنانون الذين قاموا برسم هذه اللوحات قد نفذوها بعيدين وغير متأثرين بالتقاليد الفنية الرسمية السائدة فى مصر على العصر الرومانى ، كما أنهم قاموا بتنفيذها لمجموعة من الناس ، وإن اتصف بعضهم بالثراء ، فقد كانوا جميعا من لم يحفظوا بنفوذ سياسى أو إدارى ، وهناك دليل على ذلك وهو أن من بين مئات اللوحات التى عثر عليها فى القيوم ، عشرون مبهورة باسماء أصحابها ثلاثة منها : ديتريوس الترتزى وهيرميون المدرسة ، ثم هناك لوحة ثالثة : باسم هرود بن امرنيوس مدرس الفلسفة . وهذه المهن كلها تدل على أن أصحابها ليسوا من ذوى النفوذ السياسى أو الإدارى وبالتالي لاعلاقة لهم بالعاصمة الاسكندرية .

رابعا : والآن لابد لنا أن نتعرض لنقطة حامة : هل كان أصحاب هذه اللوحات من المصريين ، أم كان من بينهم بعض الاغريق والرومان الذين استوطنوا إقليم القيوم ؟ لقد سبق القول أن إقليم القيوم منذ بطليموس الثانى « فيلادلفوس » كان يوح بجاليات اغريقية وأخذت هذه الجاليات تتعدد وانضمت إليها جاليات رومانية فى العصر الرومانى . ومن المعروف أن الاغريق القدماء لم يعتنقوا فكرة الحياة الثانية وأيديتها بالطريقة التى اعتنقها المصرى القديم وبالتالي لم تحو تقاليدهم الجنائزية

حفظ الجثة بتحنيطها أو تزويدها بتمائيل جنازية أو باقنعة تغطي جثث الموتى تحفظ ملامحها . ومن المعروف أيضا محافظة الجاليات الاغريقية في كل بلد حطت فيه : على تقاليدها سواء الدينية أو الجنازية أو في حياتهم اليومية . هذا امر نلاحظه حتى يومنا هذا بين الجاليات اليونانية في مصر .

اما الرومان فقد اتبعوا مع موتاهم طريقة معقدة ، يبدأونها بحفظ الجثة لمدة معينة في صحن الدار ، وكانوا يقومون بصب قالب جصى أو من الشمع لرأس الميت ووجهه *Imagines maiorum* يثبتونه فسوق التابوت الذى تحفظ فيه الجثة ، وإذا ما حان وقت الدفن أو حرق الجثة ، يحتفظون بالقالب الجصى أو الشمعى في صحن الدار ، واضممين إياه في صندوق خشبى واجهته تصمم على هيئة واجهة المعبود وهكذا لم يتبع الرومان عادة حفظ الجثة بالتحنيط وتزويدها بالاقناع أو بالصورة المرسومة .

يبدو لي بعد التوضيحات السابقة أن ليس لنا الا ناخذ بالرأى الذى يقول بأن فسكرة اللوحات المرسومة لوجوه الموتى في الفيوم ، تمثل عادة مصرية لعلمها الحلقة الأخيرة من سلسلة تطوّر عقيدة الحياة بعد الموت . وهى العقيدة التى صممت على عقل السلف المصرى القديم منذ أول التاريخ (٣٢٠٠ ق م) وتطورت بتطور حضارته ولازمته حتى حين بدأ يعتنق الديانة المسيحية ، بل لازالت الكثير من هذه التقاليد الجنازية تلازمنا حتى الوقت الحاضر وبعد أن انقطعت الصلة الروحية وانعدمت أحاسيسنا بالنسبة الى ماضينا الغارق فى القدم ، أقصد بذلك عادات « الندابات » فى المآتم ، و « الطلعة » الى المدافن ، وتوزيع المآكل « رحمة ونور على روح الميت » وذكرى الأريسين باقامة سرادق يتوافد عليه الأصداقاء والأقارب بل أكاد اعتقد أن عادة اقامة قداس جنزى فى الكنائس على صورة زيتية أو فوتوغرافية الآن للميت ليست الا تكلمة لعادة مصرية قديمة ، ظهرت عند أهل الفيوم فى اللوحات المرسومة موضوع هذا المقال .

وإذا كانت هذه اللوحات قد رسمت لأصحابها من المصريين ، فهل الفنانون الذين رسموها كانوا من المصريين أم كانوا أجانب ؟

نعرف عن الأغريق أنهم رسموا صوراً لبعض الشخصيات متبعين فى ذلك طريقة مزج الألوان بواسطة شمع العسل ، حقيقة لم تصل إلينا صورة واحدة من هذا النوع ، الا أن الكثيرين من الكتاب نوعوا بهذه الصور فى كتاباتهم - هناك أغنية لاغريقى اسمه « أنا كريون » عاش فى القرن السادس قبل الميلاد : « ارسم لي عشيقتى ، ارسمها بصفائرها الداكنة ، وإذا استطاع الشمع أن يلين بين يديك فارسم أيضا رائحة الطيب الذى يفسوح منها » ، ونذكر هنا أيضا ما قاله أفلاطون :

« ولقد علقت أحداث هذه القصة فى نفسى ، كما لو كانت مرسومة بالشمع »

وإذا كانت هذه الصور المرسومة بالشمع قد اختلت تماما ولم يصل الى أيدينا نموذج واحد منها ، فقد تبقت لنا نماذج لأحضر لها من روائع فن النحت الاغريقى ، ومنها تعرف أن الفنان الاغريقى كان لا يهدف الى تسجيل ملامح الشخص بعينه بل كان يرقى الى تخليد بعض المعانى والتعابير المثالية فى هذه الملامح ، كانت تماثيله تنحت لمشاهير الناس من الشعراء وقواد الحسروب ورجالات الدولة من السياسيين والحكام ، ويحاول قدر استطاعته أن يبرز على ملامح الوجه العظيمة ، وعلو الحن والذكاء المتنازق ، إلى تسجيل هذا كله فوق إطار ما يجب أن يكون ولكن ليس كما هو فى الواقع الدنيوى . بل أكثر من هذا وصلت إلينا الكثير من التماثيل التى تركها لنا بعض الفنانين من الاسكندرية والتى تمثل بطريقة كاريكاتورية بعض الشخصيات التى عاشت فى هذه العاصمة فى العصر الهيلينستى مثل الشحاذين والمشوهين والأعاجب ، نجد أن الفنان هنا حاول تمثيل الفكرة دون تسجيل لشخصيات بعينها ، لقد سجل فى الواقع معانى كثيرة منها المرض والقيح وما يرتسم على ملامح ذوى الأعضاء المشوهة من معالم تبث على التحكم .

اما الرومان فقد عرفوا القوالب المجسمة من الجص أو الشمع للموتى كما سبق القول ، وهى وإن حفظت ملامح الشخص بكل دقة ، فقد حفظتها كملامح شخص مات ، ذهبت عنه حيوية الملامح الحية لإنسان بعينه .

يضح مما سبق أن ليس فى استطاعتنا أن ندعى بأن لوحات الفيوم قد رسمها فنانون اغريق أو

فنانون رومان ، بل لا بد أن قام يرسمها فنانون مصريون . وإن كانوا قد استعملوا في رسمها قواعد الرسم للمدرسة الفنية الجديدة التي كانت قد هيمنت على الفنون في الشرق الأدنى ألا وهي المدرسة الاغريقية .

نحن نعلم كيف اضطرت المصرية عندما دالت دولة الفرعنة وتلقت دولة البطالة علم القيادة في البلاد (٣٢٢ ق.م) ناشرة مظاهر الحضارة الاغريقية فيها ، كيف اضطرت المصري أن يفتح صدره لمظاهر هذه الحضارة الجديدة فتعلم اللغة اليونانية وتعبد الى الهة القدامى بعد أن اخذت أسماء اغريقية أمثال « هرمس = تحوت » و « سيراميس = أوزيريس » و « زيوس = آمون » و « حاتور = افرديت » الخ ، كما مارس الفنان نفسه في الرسم والتحت متخذاً قواعد الفن الاغريقي . وإذا كانت مظاهر الحياة المصرية قد تكونت بالحضارة اليونانية ، إلا أن ذلك لم يزد على حياة الناس وممارستهم لشئونهم في الاطار الحضارى الجديد ، أما اللب فقد بقي مصرياً قحاً سواء في العقيدة أو في التقليد .

وإذا كانت لوحات الفيوم قد خرجت عن الاطار الفرعوني القديم ، إلا أنه من الواضح جداً أن الفنان كان في قرارة نفسه ملتزماً ببعض القواعد الفنية الفرعونية ، فقد حاول أن يبرز ملامح الشخص وخصائص هذه الملامح دون أن يهتم كثيراً على تفاصيل اناطومية تشريحية . والادرس للفن المصري القديم يعرف أن الفنان قد استطاع بسهولة واضحة أن يبرز الكثير من معالم الشخصية دون الاعتماد على التفاصيل التشريحية ، وهذه هي عظمة الفنان المصري القديم والاعجاز الذي وصل اليه في رواهه الفنية .

وإن نظرة نلقياها على هذه اللوحات (ولدينا منها مايقرب من خمسين لوحة محفوظة في المتحف المصري لتدلنا على المهارة التي سجل بها الفنان التعبيرات الشخصية لصاحب كل وجه وعلى القدرة على تسجيل الجانب الانساني لكل فرد ، ولست أخفى عن القارئ تجربة مثيرة حسدنت في منذ أن عانيت بدراسة هذه اللوحات . لقد عرضت صورها على كثير من أقاربي وأصدقائي ، وهم من مستويات ثقافية مختلفة ، ومن بينهم من له باع كبير في الفن والرسم بالذات ، ولا حظت أنهم جميعاً رأوا في

كل صورة شيها عجيبا لمصريين معاصرين من أهل الريف أو من سكان العاصمة ، وكان الشبه أوضح بالنسبة للسيدات .

حقاً لقد استطاع فنانو لوحات الفيوم أن يسجلوا لنا بطريقة بسيطة ودون اعتماد على تفاصيل الوجه من الناحية التشريحية ، رسوماً لأفراد عاشوا منذ مايقرب من ألفي عام نكاد نتعرف على شخصيتهم ونستشعر صفاتهم بل نحس بأنهم من أبناء هذا الوطن وأن أحفادهم لا يزالون يعيشون بين ظهرائنا حتى الآن .

بقي علينا الآن أن نذكر نقطة طال عليها النقاش ، وهي هل كانت هذه الصور ترسم لأصحابها بعد موتهم مباشرة وفي الفترة الطويلة التي تحتل الجثة ابانها ، أم كانت ترسم أثناء الحياة ؟ أن أولئك الذين يدافعون عن نظرية رسم الصور بعد الموت يعتمدون على دليلين ، أولهما العثور على الجانب الخلفي لأحدى اللوحات على قائمة مكتوبة بخط سري يذكر فيها الفنان أهم المميزات للملامح الوجه ، أما الدليل الثاني فهو أن بعض هذه اللوحات شكلت بحيث تتفق مع الفتحة التي تترك عند لف المومياء في لفائفها بعد التحنيط وهي الفتحة عند مكان الرأس تماماً .

ألا أن البعض الآخر يؤكد أن هذه اللوحات ترسم لأصحابها أثناء حياتهم بل وتمثلهم غالباً وهم في عنفوان شبابهم وهم يعتمدون في ذلك على الأدلة الآتية :

أولاً : عثر ينرى في حوارة على مومياء وجد أسفل اللوحة الخشبية التي رسم فوقها وجه صاحب الجثة ، عدة فضلات خشبية تكمل الجوانب الناقصة من اللوحة ، وهذا يدل على أن القائمين على التحنيط عند تسليمهم اللوحة الخشبية قاموا بتقليل مساحتها واعدادها بشكل يتفق مع مساحة الفتحة المخصصة لها ووضعوا الأجزاء المنتزعة منها تحت اللوحة وبين اللقائف الكتانية .

ثانياً : معظم لوحات الفيوم تتفق في ظاهرة واحدة وهي أن أطرافها عدلت بطريقة خشنة لتتفق في مساحتها مع الفتحة المعدة لوضعها فوق وجه المومياء

ثالثاً : عثر بترى على لوحة مستطيلة لم تعدل أطرافها ولم يضعها المحنطون في مكانها لسبب

لقد كانت هذه اللوحات تابعة من صميم الحياة المصرية ، ورسمت من أجل هدف جنازى لازم الحضارة المصرية منذ أول العصور ، وبقيت جذوره حية واضحة في نفوس المصريين الى درجة أن المصرى حين اعتنق الديانة المسيحية لم يجرؤ مطلقا أن يأخذ بفن « الأيقونات » ، وهو فن ذاع صيته وانتشر في أوروبا المسيحية منذ القرن السادس الميلادى ويقوم على رسم صور القديسين على لوحات خشبية ، وأكد اعتنق أن هذا الفن لم يظهر في مصر المسيحية الا منذ القرن الثالث عشر الميلادى نظرا لاعتقاد المصرى أن الرسم على اللوحات تقليد موقوف على رسم وجوه الموتى فقط ولا يصح مطلقا تطبيقه على الرسم للقديسين الذين تحتم الديانة المسيحية اعتبارهم أحياء لا يدخلون في زمرة الموتى *

لاندريه ، بل اكتفوا بوضعها فوق المومياء ، وهذه اللوحة تحوى في اطرافها العليا فتحة مستديرة لا تزال بها بقايا قطعة من حبل رفيع ، لاشك كان قد زودت به اللوحة لتعليقها منه .

والواقع يدل على أن هذه اللوحات قبله تميزت بلباسات فنية صادقة تبرز أصحابها في إطار من الحيوية ، بل تكاد الميون ترسل اشعاعا من الحياة والملامح تتحدث بأوصاف أصحابها وأخلاقهم بحيث لا يستطيع الفنان أن يظهر هذا كله في صورة رسمها من الذاكرة أو من بعض الأوصاف التي يسجلها بعد سماعها من أقرباء الميت بعد الوفاة . ان هذه اللوحات لابد أن كانت ترسم لأصحابها أثناء حياتهم ثم ترسل بعد ذلك الى الحنطين لوضعها في المكان المعد لها .



هكذا كانت تحفظ المومياء في مصر أبان العصر الذى ظهرت فيه لوحات الفيوم مثبتت شتاع بنفى رأس البجته ومشكل على هيئة رأس ورفية ويدفن تيدوان من اللكائف ، وينضج من الصورة ان فن صناعة الألقمة كان قد تدهور وانحسل اذا فون بمسا كانت عليه هذه الألقمة في العصور الفرعونية

القيمة الفنية للوحات الفيوم

بصلم:

الدكتور نبیه کامل

الرومانية وبعدت كل البعد عن القناع الجنائزى التقليدى .

مما لا شك فيه ان عثر على هذه اللوحات فى توابيت مولى مصريين ، لا هم فرس ولا بطالسة ولا رومان ، وانما مصريون يؤمنون بان الحياة الآخرة حق ، وان تخليد صورة الميت بوضعها على تابوت ركن من اركان ذلك الايمان لا يجوز الخلود لاحد بدونها . ومن هنا صبح القول بان لوحات الفيوم لاشخاص مصريين . ولكن هل كان المصور ايضا مصريا يشارك المصريين عقائدهم وخصوصا الجنائزية ام كان يطمعيا او ديومانيا ؟

يبدو انه قد ظهر هذا الفن فى نحو القرن الاول قبل الميلاد واستمر الى منتصف القرن الرابع الميلادى كما يخبرنا الاثرى العلام ابو بكر - اى انه استمر نحو خمسة قرون ، قامت خلالها حضارات وسقطت حضارات وكانت ارض مصر مسرحا هاما . لذلك الصراع الحضارى ومع ذلك فلم يظهر فن التصوير الزيتى فى بلد غير مصر . فان كان فننا دخيلا جاء به فنانون اجانب فاين آثارهم فى البلاد التى جادوا منها ؟

ظهر هذا الفن فى منطقته الفيوم لا لان بعض سكانها كانوا اجانب ولكن لان الفيوم لم تكن عاصمة يستحتم على فنانيها الخضوع للفن التقليدى بل اقليم بعيد عن سلطان الحكومة المركزية ومن ثم يستطيع فيها فن حديث ان يحيى فى جو من الحرية .

تدل المشاهدة ، ولا اقول التسايرخ او قوانين السلوك البشرى ، على ان الحكم الاجنبى مهما تغفل فى حضارة شعب لا يجسر على التدخل فى تقاليد امور ثلاثة هى الميلاد والزواج والوفاة . من المحتمل

يدهش زائر المتحف المصرى اشد دهشة لرؤية لوحات زيتية عديدة اقمحت على الفن الفرعونى . لون من النشاط الفنى ظهر فجأة بلا مقدمات تربطه بما سبقه من فنون . لون من النشاط الفنى ولد ناضجا مبررا كأنما تكلم فى المهد ، بلغة جديدة لا يفهمها الفن المصرى العتيق . اطلق الآريون الاجانب عليه اسم الصور الرومانية او اسم لوحات الفيوم . واهمل ، شأنه شأن كل فن غير شرعى تنقصه عناصر الاصالة والنسب العريق .

ظهر هذا الفن ، لسوء الحظ ، فى فترة تعتبر فترة ضعف وانحلال الحضارة المصرية ، الفترة التى فقدت فيها مصر الفرعونية استقلالها السياسى وحكمها الاجانب كالبطالسة والرومان وتأثرت فيه الحضارة المصرية بحضارات اجنبية - كما تأثرت من قبل فى عصر اخناتون - وسوء الحظ ايضا ان عثر على هذه اللوحات الفيومية فى اوج العصر الامبراطورى فى اوربا الذى مجد الفنون الملوكية واعتبر ان فن كل الممارنة اصيل لانه فن ملوكى وفن الفيوم شعبى نحيل رخيص . فن جاء ليرضى اصحاب الجيوب الضاوية الرعاع الذين يسهون دائما ، وفى كل عصر ، الى تقليد السادة الحكام فان لم يكن فى استطاعتهم شراء قناع ليمين للتأبوت فلا بأس من لوحة خشبية رخيصة يتخذ بها الالهة فيمنحون الراحل حياة ابدية .

وهكذا دخلت لوحات الفيوم التسايرخ من باب الخدم ، فن جلف ، تقليد للصور الرومانية الواقعية التى منى فيها الفنان بتسجيل تقاطيع الوجه بكل دقة وامانة ففشل فشلا ذريعا ، تسجله عليه هذه اللوحات التى بعدت كل البعد عن الواقعية المأدبة

جدلا أن يكون مصورو لوحات الفيوم اجانب وأن كنا نستبعد كثيرا أن تشتغل فئة أجنبية في أعمال هي من صميم العقائد الجسائزية عند المصريين ، عقائد لم يشاركون فيها بحال غيرهم من الشعوب . وبعد ، فهل لهذه اللوحات المصرية قيمة فنية بغض النظر عن قيمتها التاريخية الفريدة ؟ تتميز هذه الأعمال بخصائص أهمها :

أنها تسجل الوجوه من زوايا متعددة ليس فيها الزاوية الجانبية وإنما لا تعتمد على الخط وإنها تخضع لقواعد المنظور وإنما صور زيتية . وهي خصائص لا تشارك في أبهى الفن المصري التقليدي ، وكأنها تعمدت ألا تشاركه إلا في التعبير .

سجلت هذه اللوحات وجوه الأشخاص أما مواجهة للمصور مواجهة تامة وهذه قلة وأما ظهر فيه ثلاثة أرباع الوجه من الزاوية اليمنى أو اليسرى وبلاحظ أننا لم نشر فيما عثرنا على صورة واحدة سجل فيها الوجه جانبا Profile وهي الزاوية التقليدية للرسم الحائطية الفرعونية في مختلف عصورها (إلا صورة واحدة جاءت في مقبرة .. فيها عازفتان على القيثارة) فهل كان هذا جهلا من المصور بتقاليد الفن ؟ أضف إلى هذا أن الفنان لم يعتمد على الخط م حين كان الخط هو العنصر الأساسي في التصوير التقليدي . لا نلاحظ هذه اللوحات رسومات ملونة كالتي نجدها في مقابر الملوك والأشراف وإنما هي صور كان العنصر الأساسي فيها اللون لا الخط ومن هنا كان لزما على المصور أن يرفض تمثيل القريب والبعد في بعدين بالأسلوب التقليدي ويركن إلى استعمال قواعد المنظور ، أي في أبعاد ثلاثة والتي لم تدخل في التصوير الغربي إلا بعد ألف سنة أي في عصر النهضة .

فهل كان هذا إضحا جهلا بأصول الفن أم تحديا له وثورة عليه ؟

نحن نعلم أنه كان - ولا زال - على فنانى القصور أن يلتزموا أسلوبا تقليديا وأن يعبروا عن عواطف تقليدية لا يستطيعون الخروج عليها وطالما كان على الفنان أن يلتزم أسلوبا تقليديا كان عليه أن يكتسب مهارة معينة فيدرس التشريح وأصول الرسم الأكاديمي أما إذا أراد الفنان أن يعبر عن عواطف غير تقليدية أو شعر بقصور الأسلوب التقليدي من التعبير عنها ثار عليه وأبتدع أسلوبا جديدا كما حدث في أوروبا في أواخر القرن الماضي عندما ظهر الفن التائري .

قامت الثورة الفنية إذن في الفيوم لأنه لم يكن من المستطاع أن تقوم في العواصم التي يسكنها الطبقات التي تساند الحكم الأجنبي . قامت الثورة الفنية لأن الفنون الجسائزية كانت قد فقدت روحها وانحط أسلوبها إلى درجة فقدت معها وظيفتها الأولى - وهي خلق صورة ابتداعية للراحل الحي في العالم الآخر حتى أصبح القناع مجرد وجه رجل « أو وجه امرأة » .

ثار المصريون إذن على ذلك الفن الجسائزي وحمل لواء الثورة الفنان المصري ، فخلق فنا جسائزيا جديدا في أسلوبه قديما قدم الأسرة الرابعة في تعبيره .

جاء الفن المصري في أسلوب تقليدي وأحدا استطاع الفنان المصري أن يؤدي خلاله وظيفتين مختلفتين في التعبير . ونطلق على الوظيفة الأولى « فن الحياة الدنيا » وأظهر فيه الفنان الفرعون ، رجلا ذا قوة وبطش ، له مطاعم وشبهوات ، وأظهر فيه الكاهن أو الكاتب كائنات حتى أشد العناية بأموال هذه الحياة . ومن هذه تماثيل وصور الفرائسة في معابدهم . أما الوظيفة الثانية فهي « فن الحياة الأبدية » أو الفن الجسائزي وفيه يعبر الفنان عن حلى الراحل في العالم الآخر . فالفرعون هنا كائن أبدي لا يفترق إلا شهورا وإنما روح خالد ينعم في سعادة أبدية . يبدو هذا الفرق بين الفنين - وإن اشتركا في الأسلوب - أكثر ما يبدو أن قارنت بين - على سبيل المثال - تمثال توت عنخ آمون الخشبي اللون وبين قناعه الجسائزي الذهبي . يتميز هذا الفن الجسائزي بأنه يمثل الإنسان وقد اقتطع بينه وبين هذا العالم كل سبب ، فهو لا يعيش بيننا ولا في دنيانا وإنما يعيش في عالم آخر . فالعبدان مثلا قلما تنتظران إليك وأن نظرا فأنما ينظران خلاصا إلى أشياء لا تراها نحن الأحياء ، أشياء جميلة جمالا يفوق جمال كل ما نراه العين ، جمالا مثاليا . وأكثر من ذلك ، يمتاز هذا الفن بالقدر على جذب الأحياء منا إلى ذلك العالم المجهول الذي لا نراه فنيا فيه بقلوبنا لحظات معدودات تعود بعدها إلى عالم الواقع المحسوس . هذه الصفات الثلاث لازمة لكل عمل فني وهي أنه يخلق عالما جديدا يحيا فيه الموضوع حياة مثالية ويستطيع أن يجلب إلى عالمه ذاك غيره من الأحياء . تبدو هذه الصفات الثلاث في كل عمل فني رائع بغض النظر عن العصر أو الثقافة التي أوجدته . فتراها في قناع توت عنخ آمون وفي الموناليزا ، وفي

لأنها خلت من عنصر الخط الذى امتساز به الفن المصرى . ان خلو هذه اللوحات من الخط ليست قصورا ولا جهلا وانما ثورة عارمة حطمت قيود تقليد فنى قاسى واودت به الى حين . قرر فنان الفيوم الفاء الخط لأنه لم يعد أداة صالحة لتحقيق رسالة الثورة الفنية .

لقد نادت الثورة الفنية بأن يحل المضمون محل التكوين ويحل الروحى العميق محل المادى القريب فحل اللون محل الخط حتى تبدو الوجوه ديناميكية راسخة فى مكان غير هذا المكان . استلزمت وظيفة الفن الحديث ظهور أسلوب فنى حديث فخلق لنا الفنان المصرى فن التصوير الزيتى فى ابعاد ثلاثة . فان كانت لوحات الفيوم قد اختفت فى منتصف القرن الميلادى فان فن التصوير الزيتى حتى لا يموت ظهر ثانية فى الفن القبطى ومنه الى البيزنطى ثم الى سائر اتجاه العالم . ولا زالت روح فن الفيوم والصفات المميزة له هى المعايير التى تقيم بها الفنون التشكيلية فى مختلف الحضارات وعلى مر الدهور .

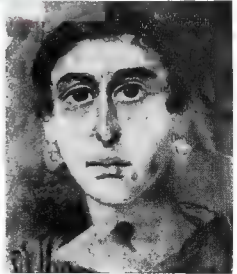
صورة الملك لروو وصورة رمبرانت لنفسه (اكس ان بروفنس) ولا تراها فقط فى صور الأشخاص بل وفى صور المجموعات ايضا فلوحة الصلب للجريكو وجورنيكا لبيكاسو وتميد المجوس لدافنشى والقضاة الثلاثة لروو وغيرها الكثير . انه فى صحة هؤلاء نضع الفنان المصرى الذى صور لوحات الفيوم اذا وضعت مائة لوحة رائعة جنباً الى جنب لاخترت منه ثلاثة او اربعة اما اذا عرضت عليك اربع لوحات فقط قدرت قيمة كل تقديرا حقيقيا . وهكذا الحال فى لوحات الفيوم ان عرض اربعين او خمسين منها جنباً الى جنب يفقدها قيمتها الفنية ولكن ان اخترت منها اربعة او خمسة بدت عظمتها الفنية واحتلت مكانتها الرفيعة بين روائع الفن العالمى ، بانها طلائع فن التصوير الزيتى الذى انجب دافنشى ورمبرانت وسيزان .

ليست لوحات الفيوم بديلا رخيصا للقناع الجنائزى لان التعبير الفنى الذى تحويه هذه اللوحات الزيتية لم يعد فى استطاعة القناع ان يحويه . وليست لوحات الفيوم فنا مبتدلا ضعيفا

وجه فناء محفوظ فى متحف معهد الفنون بمدينة ديترويت



وجه فتاة محفوظ فى متحف برلين



حياتي ظلال

للشاعر
فتحى سعيد

١/٤

خضلت العياه

عميق بق مسداه
الجلج فيه بقلب وحيد !
حياتي فضاء بعيد المسدى ..
يرفرف قلبى به مشيدا
لقد ضاع عمرى وولى سدى !
وعشت اصارع وحى النوى ..
والفنى رويدا

رويدا رويدا
صرع الهموم ونضو الجحود !

✽

حياتي لحن شرود النفس
تفتت به صادمات القمم
فذاب اتينسا بوادى المم
ولم يبق للروح غير الصدى !
يلذوب بنفسى
ويضمم حسى
وينش قبر هواى الشهيد ..

حياتي ظلال

وطيف خيال
وذكري غرام .. وشعر .. وغيد

✽

حياتي زهر بروض تفسير
تهلل فسوق ضفاف الفسيف
تالق عطرا .. وفاح عيسر ..
فمرت عليه رياح الهوى

فضاع نداه

واخى سمنه
وراح شهيدا .. واى شهيد !

✽

حياتي جرح تنزى دما
ودمع على امتياتي هما
ودوح تجسوب رحاب السما
وتسج بين خضم المني

حياتي كاس .. وحب افسل
 وشدو على همسات القبيل
 وشعر يفيض بعذب الامل ..
 اصور فيه غراما ثوى
 باعملاق درب

واحس سماء قلب
 يعيش شقيقا باسر القيود !

ويصحو بقلبي غرام قديم
 غرام تولى كتيف النسيم
 وكان لقلبي وروحي النعيم
 فصار جديما عتي اللقي
 طواه القضاء

بقصر الفناء
 فانظلم في ناظري الوجود ..

ويحملني الوهم عبر السحاب
 افتش عن تولى وغيباب
 فاعمسه في حلقات التسيب
 ويكتنف القلب شتى الووى
 اتادى تمثال

بمادله طلال
 وطلال عذابي فهلا تعود !!

وامضى .. فاصمد بين الافق
 احرق في شرفات الفسق
 فيسندو لعيني خلف الشفق
 خيال اذا ما اقتربت منى ..
 خيال الحبيب

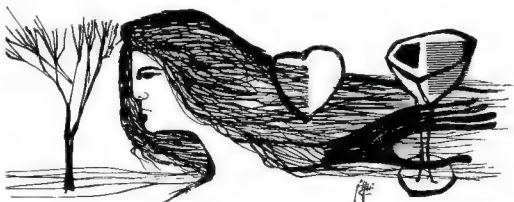
لسروحي قارب
 ولكن لعيني بعيد .. بعيد !

ويغترق قلبي في ذكره
 يلوك بقايا هموى عمري
 ويغترق بالحب في شعره
 ويهفو لذكره بين الورى ..
 ينشادى الحبيب

ولا مسن مجيب
 وكيف ؟ وقد غاب بين اللهود ؟

واخلو الى الشعر في وحدتي
 واوقفت بالحب قيثارتى
 اذا ما توحشت في خلوتي
 اغنى على جمرات الجوى
 حياتي ظلال

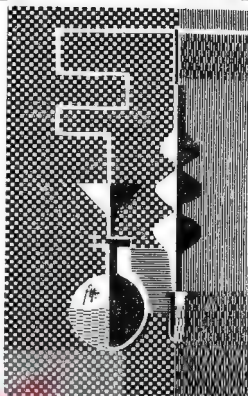
وطيف خيال
 وذكرى غرام وشعر وغيد ..



أمل لا يعبث وأن يكون

بصلم :

الدكتور محمد محمود غازي



كان هذا برنامجي ولكن عاطفة قوية غلبت على نفسي فتدما بدأت اكتب مقالتي وهو ان اعود لموضوع الذرة والتجسيـرات الذرية والجهود المبذولة الآن في سبيل تحريرها والامال المعلقة على ذلك .

وهكذا كلما طوت الايام جزءاً من صفحاتها نشعر نحن مشـر الشيوخ ان علينا واجباً يؤديه لهذا الجيل ، واشعر بسعادة لا تعادلها سعادة ان اشرح موضوعاً بات اهم مايتناوله الباحث موضوع الذرة والتجسيـرات النووية وعلاقتها بسلامة الانسان .

ويعاينى اليوم للكتابة من جديد على صفحات المجلة في هذا الموضوع الذى سبق ان بحثناه تلك الاحداث الجديدة الخاصة بتحرير التجسيـرات الذرية جزئيا وانفصال امريكا والاتحاد السوفييتى وبريطانيا على حفر هذه التجسيـرات في نطاق معين.

ففي الخامس والعشرين من شهر يوليو الماضى وقعت في موسكو بالحروف الاولى بين ممثلى الدول الذرية الثلاث مساهمة نصت لكافة الاولى منها على تصد الحكومات الثلاث بمسـمـم اجراء التجارب النووية في الجو وفي الفضاء الخارجى ونعت الله ..

ولم تتناول المادة حفر التجارب تحت الارضى ولم تمتد بعد الى حفر استعمال الاسلحة النووية وحفر انتاجها وايادة لوجود منها ، ولكنها مع ذلك اذارت اهتمام الرأى العام العالمى

كان مقالى الاخير من نشأة الحياة وعن الانسان عـسـلى الخصوص ، وقد استعرضنا فيه مدرستين مـمـرسـة الروحانيـن الذين يدينون بالروح وغالفتها وتركز عليها جميع الديانات مهما اختلفت وتباينت ومدرسة الماديين الذين يشكرون ذلك ويمتدنون ان المادة المـمـاء تطورت في مئات الملايين من السنين حتى وصلت الى المادة الحية ووجد الانسان ، وكان لنا رد على اصحاب المدرسة الاخيرة الذين جعلوا والجماد شـسـيـتا واحداً ، ولم نستعن في ذلك بالديانات في شيء ، وانما ودنا تبع عندى من نوع من الفكر ومن المنطق السليم .

وكان برنامجي ان اكتب اليوم من الارضى التى نعيش عليها ونشأتها ونستعرض في ذلك المدرسة القديمة والحديثة وتبحث الاصل في وجودها - هل هي جسم انفصل عن الشمس عندما اقترب منها نجم كبير احدث مدا على سطحها كما يحدث القمر مدا في بعاثنا فانفصل بطل هذا النجم جزء كبير من الشمس في شكل السـيـجار وهو الجزء الذى تقسم الى هذه الاجزاء التسعة التى هي الكواكب السـاـيـرة التى دارت بفصل الجاذبية حول الشمس . ام ان هذه الكواكب التسعة الدائرة حول الشمس ومنها الارضى انما وجدت من غبار كوني وسحابة كونية من التراب والغاز القريب من الشمس في غابر الزمان ولم تنفصل عنها ولم تكن جزءا منها لم توجد اجزاء من هذا الغبار الكوني فكون الكواكب التسعة الدائرة التى نعرفها واتى منها ارضنا التى نعيش عليها .

واستقبلها بالبشر والتفاؤل ، واعتبرها في الظروف الدولية
الراهنة بادرة تحول في قضية السلام ومبدأ الحرب الباردة .

ولقد وافق على هذه المعاهدة أكثر من تسعين دولة ، ومنها
الدول العربية جمعا ، بل وافق عليها مجلس السلام العالي
في مؤتمره الذي عقد في فيلادلفيا في السنة من ٢٧ نوفمبر ١٩٤٥
حتى ٢ ديسمبر ، ورحبوا بها ووجدوا فيها سبيلا للسلام
ولم يشك في ذلك غير مندوبي الصين الشعبية .

بل في نص البيان التاريخي للرؤساء والملوك والصروح في
مؤتمرهم الذي عقد في القاهرة في ١٢ يناير الجاري ما يأتي :

« يؤكد الرؤساء والملوك الإيمان بكل تشكيلة دولية
بالوسائل السلمية طبقا لميثاق الأمم المتحدة كما يؤمنون بمبدأ
التعايش السلمي بين الدول وسياسة عدم الانحياز ، ويوحى من
هذا الإيمان ، كان ترحيب الدول العربية بإتفاقية موسكو
للحظر الجزئي للتجارب النووية ومبادئها إلى التوقيع عليها
وتأييدها السعي الحثيث للوصول إلى نزع السلاح نزعاً شاملاً
بالطريقة التي تعطل السلام الدولي »

هذه موافقة في المحيط الدولي تكاد تكون إجماعية ، وفي
محيطنا العربي نائدا لها ومحاولة للعمل على استكمالها . نرى
ماذا يجب أن يدور في محيطنا العلمي ؟

وهنا لا بد أن يعتبر القارئ أن ما أبديته من إيراد في هذا
الشان هو مخالفة لإجماع دول العالم واجتماع الدول العربية
على الخصوص في ناحية قد يعتبرها البعض من النشواهي
السياسية إنما هو مجرد رأي علمي أرجو أن يعتبره القارئ
نظرا لاتسار ولا أقل ، وعند قننى أنه يجب على رجال الحكم
والتشغيل بالسياسة أن يستأصروا برأي العلماء في هذا الشأن
وقد نشأ الموضوع الهام على الخصوص الذي يتعلق عليه حياة
البشرية جمعا . ولعل دراسات الطويلة والنشائية بهذه المسألة
ستبين عديدة تسجل لي بأن يكون لي عند القارئ رأي في أهم
مسألة تشغل بال الإنسان .

فلقد أقيمت من نواة الذرة ومنذ ربع قرن أكثر من خمسين
معارضة أولها في قاعة فيصل ببغداد سنة ١٩٤١ ثم في مجلة
البحر بال عراق ، وقد تابعت معارضاتي بمسحها في مصر في
جامعة القاهرة وفي جمعية المهندسين والجمعية الكيميائية وغيرها
في الجمعيات العلمية ، ولم يكن لوضع الإنجازات العلمية في
ذلك الحين الأهمية التي لها اليوم ، ومنذ فتياني هيروشيمما
وإناجواكي تعددت من سر هذه التجارب في كثير من الجمعيات
والنوآت العلمية والأدبية في مصر والفرار فتحسدت عن
خطورتها في مؤتمر السلام الدولي في كولومبو بسيلان كتاب
مؤتمر السلام المتخذ في كولومبو سنة ١٩٥٧ « وفي مسيبدان
الاستقلال بها وفي بيماني في الهند في لجنة الطاقة الذرية ، وفي
سنة ١٩٥٨ تناولت الموضوع من جديد في مؤتمر الشعوب
والتعايش السلمي في استوكهولم في الاجتماع العام وفي لجنة
نزع السلاح ، وقد تابعت أحداثي في الاتحاد السوفيتي ،
وأخيرا تابعت دراسة الموضوع بسلسلة من المحاضرات في شهر
السلام الدولي بالقاهرة في الجمعيات العلمية في الجمع العربي
للثقافة العلمية وفي الاتحاد العلمي العربي ، وفي المؤتمر العلمي
العربي الرابع المتخذ في القاهرة في فبراير سنة ١٩٦١ .

وينبغي للعودة في المجلة إلى هذا الموضوع بعد هذا العدد
العديد من المحاضرات والبحوث المنشورة ، وبعد مقالتي العديدة
عنه في رسالة الإسلام وفي الكاتب المصري ما للموضوع من
أهمية بالغة فهو يرتبط باستقرار أو عدم استمرار حياتنا
كجنس يعيش على هذا الكوكب الوديع الضوار .

ولعل القارئ يسألني ماذا أشعر به بعد هذا الجهد وهذه
الفرصة التي لا تأتي طوال أربعين عاما في محيط الذرة بعدد
القرار الأخير الذي أنشأته الدول ونباه مجلس السلام العالي
ووافقت عليه بمودرها الدول العربية في اجتماع الرؤساء والملوك
الآخر .

ولي هذا القول أن شعوري العلمي يتسم بالظوف من التهنيتات
التي يمكن أن تجريها الدول الذرية في صناعة هذه المتسائل
والصعود على قنابل أشد فتكا من كل الذي عرفوه حتى اليوم .
كذلك أشفي من تفتيتها واستمرار صانعها للعالمية لم ترفع
للاصف صناعة القنابل ولم تلغ إجراء يفي بالتجارب عليها .

ولقد تأملت مع نفسي ساعات طويلة الموضوع من جديد لأراجع
من ذكرياتي الأحداث الذرية الهامة . هل كان لها مخطط مرسوم
أم حدث أغلبها من طريق المفاجأة ؟ ولعل القارئ يدرك معنا أن
عامل المفاجأة كان العامل القوي في كل الكشف التي أدت إلى
بناء العلوم الذرية الحديثة بل إلى صناعة القنابل الذرية
بأقواها الثلاثة القنابل الانشطارية . القنابل الهيدروجينية ،
والقنابل قوى الهيدروجينية ، وهذا العامل أكد كلمة المفاجأة
مازال موجودا ، وأؤكد للقارئ من علم أننا مازلنا في العلوم
العلمية في حروف الإلف والياء أي في الحرفين الأولين بالنسبة
لحروف الهيبة الثلاثية الثلاثية والعشرين . أي أننا في مرحلة
اصبرها بذاينة بالنسبة لما يعنيه القدر في هذا العلم الواسع
فكشفت بكامل الفرنسي سنة ١٩٩٦ من أن اليورانيوم عنصر يشع
كان مفاجأة هزت العالم أجمع ، وكشف مدام كوري بعصرها
عن عنصر يشع ألف مرة قدر اليورانيوم وهو العنصر الثابته
اليورانيوم من اسم وطنها بولونيا كان من جديد مفاجأة لها
وللعلماء ، بل كشف مدام كوري من جديد وزوجها بيير كوري
عن عنصر أكثر إشعاعا من كل ما سبق اسمه الراديوم لأنه يشع
كان المفاجأة الكبرى للعالم . صحيح أنها في أول عام من تجاربها
كتسا الراديوم ولكن لكي يعصر كمية صغيرة منه استغرق منهم
ذلك أربعة أعوام ولكن الكشف في حد ذاته من وجوده كان مفاجأة
علمية لا ينسأها أحد .

بل واعتقد جازما أن الكشف الكبير لاريكو فرمي الصالح
الإيطالي المعروف في روما من أن جسيم النيوترون البطيء يحدث
تصدعا داخل نواة الذرة أكثر من النيوترون السريع كان عملا
غير مقبول وكان مفاجأة له غير متوقعة وهذا الذي أذكره لأشك
فيه فقد حضرت عرضه لهذا العمل بنفسى عندما حضر إلى
السويديون ليعرضي كشه على علماء الطبيعة فيها سنة ١٩٣٢

بل وجاءت المرحلة الحاسمة في العلم التجريبي وخطة كبرى
في تاريخ الذرة عندما استخدم « تروتان » الأتاني ملاحظة فرمي
السابقة وقذف اليورانيوم والبلوتونيوم بالنيوترونات البطيئة
وعوضا من الحصول على رتبة أقل في جدول المتسامر وذلك
بإسكان هذا النيوترون داخل النواة أو الحصول على عنصر

العالم الآن حيث لا يبدو انه سيكون هناك اتفاق دولي على نزع السلاح في وقت قريب بدرجة معقولة ، ادى ان في طرح هوانا النووية جانباً مغامرة لا يستطيع ان اوصى البرلمان بقبولها » .

الخلاصة

هذا الذي حدث في إنجلترا في منتصف يناير الحالي ، وفي الجريمة ذاتها في الأفرام ، وفي نفس الصلحة صرح وزير الدفاع الفرنسي في مؤتمر صحفي « بان فرنسا مصممة تصميماً لا رجعة فيه على الاستمرار في تجاربها الذرية والنووية في طبقات الجو العليا في المحيط الهادي » .

مسألة هامة قد يتعرض لها الطالب في امتحانه التحريري أو الشفوي عند ادائه امتحان الحصول على شهادة الدراسة العليا في الطبيعة الأرضية أو الجيوفيزيكا كما يجب ان تجري على تسويتها بالعربية وهي مسألة السراب وهو الذي نشاهد عندما

نسير في الصحراء مثلاً أو على الطريق الصحراوي بين مصر والإسكندرية فنرى ماء وتسير خلفه فلا يعلق به الواحد أو الركب ، ذلك لان هذا الذي يبدو أمامنا ماء ليس الا مجرد عمليات من الانكسار البصري حدثت من اختلاف درجات الحرارة في طبقات الجو ، ولاننا في مثل هذه الامتناعات ان تكون اجابتك وصليتها كما ذكرنا الآن انما لها حلول من صميم الفيزياء نلجأ لها المعادلات والمعادن ونخرج منها بهذا السراب أو بفيسر من الظواهر مثل ظاهرة الواس فرح حسب الفروسي التي تصعبها والحلول التي تصل اليها .

هذا هو السراب وحده الذي رأيته والذي وصلت اليه الحلول الثلاث لا يبدو ان يكون سرايا الا اذا كان ما اليه المتعاقبون في صدر المعاهدة ومنعوتها من اعلانهم ان فرض المعاهدة الاساسي ان يعطوا في اسرع والرب وقت اتفاق بشأن نزع السلاح الشامل الكامل تحت رقابة دولية صارمة تتفق والمراضى الامم المتحدة ويمنع هذا السبيل لتسلح ويحرم الآلاتة والصنوة الى انتاج او تجرة الاسلحة بكامل انواعها ومنها الاسلحة النووية .

اذا حدث هذا يكون لنا مشر العلماء موقف آخر ونمتد في هذه الحلقة ان الذي نراه ليس سرايا انما ماء يروي البشيرة من قفا طويل ويعولها هذا الاستهتار بالحية وبالقيم الانسانية.

رتبه اقل في هذا التجول وذلك بطرد احد جسيقات النسوة خارجها حدث في تجربته المخالفة الانشطار النووي المصروف وانقسمت نواة الذرة الى نويات اصغر من النواة القليلة ، وكان هذا بلا شك اكبر مفاجأة علمية حدثت بعد كشف باكرا ومدام كوري للنشاط الانشعاعي ، ونشر اوتوهان تجربته المخالفة في الاسبوع الاخير من ديسمبر سنة ١٩٣٨ ، وقد نشأ كما هو معروف من هذه التجربة صناعة اول قنبلة ذرية عرفها العالم سنة ١٩٤٥ ، ثم كانت القنبلة الهيدروجينية ثم القنبلة فوق الهيدروجينية .

وهذه القنبلة الاخيرة وقوة تدميرها فخر القنبلة الذرية الاولى حوالي الخمسة مائة مرة ويمكن ان تصل الى الف مرة كانت كما شرحنا في مقالات سابقة في المجلة نتيجة تحسين في الصناعة واحاطة القنبلة الهيدروجينية بظلال رخيص من اليورانيوم الذي كان لا يستخدم في صناعة القنابل اليورانيوم ٢٣٨ الذي كان يستعمل في الصناعة .

ولعل القاري يدرك مدى ومن عقالاتي السابقة ومنها ما كان على صفحات المجلة واخص بالذكر المقال المتون « اما سماعة وهناء واما شفاء وهناء » التشور في العدد ٧٢ بتاريخ يناير سنة ١٩٦٢ ما لهذه التجارب من اخطار جسيمة قد تؤدي بالحية كلها من على الارض .

هذه المعاهدة التي لم تستكمل اذن لم تنص على عدم صناعة القنابل الذرية بكافة انواعها والتي سمحت باستمرار التجارب لا نستطيع مشر العلماء ان نقرها او نهل لها .

ولعل من اول النتائج السيئة لهذا الاتفاق الكريه بين الدولو الثلاث امريكا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا ما حدث يوم ١٦ يناير سنة ١٩٦٦ في مجلس العموم البريطاني .

فقد شهد المجلس نقاشاً حاراً وفي مجاه في البرقيات وطالمت بالتي في جريدة الاهرام بشأن مسائل الدفاع بين هيوم رئيس الحكومة البريطانية وويلسون زعيم حزب العمال المعارض اعلن السير هيوم في المجلس ان حكومته مصممة على ان يكون لبريطانيا قوة نووية مستقلة لان دولا اخرى من بينها فرنسا والصين سيكون لديها اسلحتها النووية مما قريب .

وقال « ان هذا هو اسلم سبيل في عالم يفتقر الى اتفاق دولي على نزع السلاح » ثم قال « انه في القروء التي تسود

(Handwritten signature)



عين

كل هذه كسنيين
للكتاب الأخير: سيد في بوكسن

ترجمة: صلاح التهامي

اليزابيث: ولكنه لم يكن أبدا نرارا .
أوليف: هذا صحيح ولكن أرى مظاهر القلق بادية عليه في هذه الأيام الأخيرة .
اليزابيث: اني لم ألحظ عليه أي تغيير .
أوليف: وما رأيك في حالته ؟
اليزابيث: حاله .
أوليف: نعم . اني واقفة عن أنه لم يستهلك من قبل زوجي من الأحذية في مثل هذا الوقت القصير . لقد كان الزوج الواحد يكتفي أكثر من ستة أشهر قبل أن يحتاج إلى إصلاح .
اليزابيث: انك تعلمين أن عمله الجديد يبعد مسافة طويلة من محطة القطار ، وهو يقطع هذه المسافة سيرا على الأقدام .
أوليف: أعرف هذا ، ولكن هذا لا يبلى النعل في مثل هذا الوقت القصير .

الشخصيات
جيمس برستون : موظف كتابي باحدى الشركات .
اليزابيث : زوجته
أوليف : ابنته
جيم ماكسويل : خطيب ابنته
جون ماركر : صديق قديم له
أوليف: ألم يعد والذي يمد يا أمي ؟
اليزابيث: كلا ، لم يعد يمد يا أوليف . يبدو أنه سيتأخر الليلة أيضا .
أوليف: ما سبب تأخره في هذه الأيام الأخيرة ؟
اليزابيث: استلام الواردات أو شيء من هذا القبيل .
أوليف: يبدو أن أمرا ما يشغل باله في هذه الأيام . ألم تلحظ ذلك ؟
اليزابيث: كلا ، لم ألحظ شيئا .
أوليف: انه يبدو صامتا وكأنه يخفي شيئا في نفسه

اليزابيث : سيكون على أن اصنع لحدادته نعلًا من المطاط حتى لا يبلى سريعاً ، أن الإنسان يتقاضى أجراً كبيراً ، وليس لدينا من المال ما يقضى من حاجتنا في هذه الأيام - (**تسمع ذلالت سامة**) يا للمجب - لقدس بلغت الساعة السادسة ، لقد تأخر كثيراً .

اوليف : حقاً ، لقد تأخر الليلة نصف ساعة .

اليزابيث : يجب أن أحادثه في هذا الموضوع - ان عشاده سيقتد طعمه حين يبرد - لذا نقلوه الى هذا العمل الجديد؟ عندما كان في عمله القديم لم يكن يتأخر لحظة واحدة من حياته .

اوليف : أمي ، اني أحس أحياناً بالاشفاق على أبي -
اليزابيث : ولماذا ؟

اوليف : (يتردد) لا أعرف ... ولكنني أشعر بذلك عندما أفكر في الوقت الطويل الذي قضاه في عمله متجنباً على مكتبه يوماً بعد يوم ، سنة بعد سنة - أمام هذه الدفاتر القديمة نفسها - أمام الأرقام ذاتها - البداية من هي ، والنهاية هي هي - لا تغيير ، لا عطلة ، لا تنوع في العمل - بل لا يتسع وقته حتى لمشاهدة مباريات الكرة يوم السبت .

اليزابيث : لقد اعتاد ذلك يا أوليف . فكان ذلك في صالحنا ، والا لما استطعنا أن نملك اليوم مثل هذا المنزل .

اوليف : انه لم يصبح بعد ملكاً لنا .

اليزابيث : كلا ، ولكن بعد خمس سنوات سيكون ملكاً خالصاً لنا . وما كنا نستطيع شراءه على أقساط بدون ضمان من إيراد ثابت منتظم .

اوليف : أعرف هذا ، ولكنني أسأل نفسي ، هل ما حصلنا عليه يستحق كل هذا العناء .

اليزابيث : أوليف ! لا ترددي مثل هذه الترددات ! إن العارفين ما دام الجواز طيباً .

اوليف : كيف ؟

اليزابيث : انك تترين دهنلي ! كيف ؟ لقد منحتنا هذا الصام مركزاً محترماً الآن هذا ؟ في بيتنا القديم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ولكن الآن .. هه .. هل تظنين أن الفرصة كانت ستجئ لنا لقابلة جيم مكسويل لو أننا لم ننتقل الى هذا المنزل ؟ إن أمثال جيم لا يبحثون في شارع أجرب عن زوجة أو حبيبة .

اوليف : حقاً ! انك على صواب فيما تقولين يا أماء . ولكن هذا العناء قد تحمل أبي أكثره ، ولم يتمم بعبئانه . لقد مرت بنا الآن عشر سنين كلها كفاح .

اليزابيث : هذا لم يغير شيئاً من حال والدك ، فما كان أبداً متلافاً أو متهوراً . انه لا يعرف غير عمله الذي يخلص له ومثوله الذي يقضي فيه وقت راحته القصير .

اوليف : ولكن ، هذه ليست حياة - الست متى في ذلك ؟

اليزابيث : لا أرى في هذه الحياة أي تقص - (**يسمع المصالح اليان**) هذا هو أبوك قد حفر أخيراً - يجب أن أسأله من سبب تأخره .

اوليف : لا تضايقيه يا أمي .
اليزابيث : ما فعلت ذلك أبداً ، ولكنه في هذه المرة قد تأخر كثيراً .

جيمس : مساء الخير يا اليزابيث .

اليزابيث : مساء الخير يا جيمس . لقد تأخرت كثيراً الليلة .

جيمس : حقاً ! لقد فاتني الظلمار ... وكان على أن أجرى لأعقب بالسيارة .

اليزابيث : اذن ، فقد خرجت متأخراً من عملك ؟
جيمس : نعم ، نعم .

اليزابيث : اطلع معطيك وعد بسرعة فإن العشاء في انتظارك .
(**يخرج جيمس**) (**في صوت خافت**) ان حداده بلل يا أوليف !

اوليف : لقد لاحظت هذا ، عندما كنت أتلفه له هذا الصباح .
اليزابيث : يجب أن أسأله كيف يبلى بهذه السرعة ؟
اوليف : أملي له العشاء يا أمي - اني واقفة من انه جائع (**يعود جيمس**)

اليزابيث : أين تمشي كل هذه المسافات يا جيمس ؟

جيمس : أمشي !
اليزابيث : نعم ، ان حدادك لا يتكاد يأمي من الاسكافي حتى يحده اليه مرة أخرى .

جيمس : ٢ : ٠٠٠ .

اليزابيث : هل عملك الجديد اشق من عملك الاول ؟

جيمس : نعم ، أشق بكثير يا اليزابيث . هل يمكنك أن تصدي لي العشاء الآن ؟

اليزابيث : ذهبي الى حجرة الطعام وسأليكم بعد لحظة واحدة .
اوليف : انه يبدو متعباً - اليس كذلك ؟

اليزابيث : ولكنه لم يشك .
اوليف : قل كبر سنه قد انكه ، وهو محتاج الى الراحة .

اليزابيث : ليس في وسعه أن يرتاح الآن . نحن في حاجة اني المال ، وشركة ستارك لا تدفع أجراً للمعامل خلال مرضه . شكر الله ! سفتشتني أفساط المنزل قبل أن يبعث أبوك على المعاش ! ولن يكون هناك بعد ذلك ما يثقل بالنا .

جيمس : أين شفتيني يا اليزابيث ؟

اليزابيث : في الدواب . جيمس - أنت غير مرتاح في عملك ؟

جيمس : لا ... ليس بئس من هذا ؟

اليزابيث : أأنت راضٍ عنه اذن ؟

جيمس : نعم ! كل شيء على ما يرام .

اليزابيث : أوافق أختي من هذا ؟

جيمس : نعم ، كل النقة .

اوليف : هل تنام نوما عادلاً يا أبي ؟

جيمس : نعم .

اوليف : يغفل الى اني سمعت وقع اقدامك اللينة المافية مرة أو مرتين وأحسنت أن شيئاً ما يثقل نومك .

جيمس : كلا ، اني أمتنع بنوم عادي يا أوليف (**محاوذاً تغيير الموضوع**) ، شفتيني في الدواب ، هه

اليزابيث : نعم ... انه في الدواب .

جيمس : سأذهب لأخبره (**يخرج**)

اليزابيث : ان جيمس في أحسن حال - يبدو أن لوهامك لم تكن صادقة - لا يمكن أن يمرض الآن ! اننا لا نستطيع تحمل ذلك - (**يعلق جرس الباب**)

اوليف : انه جيم - لقد دعاني الى السينما الليلة ، اتسعين لنا بالخروج يا أمي ؟

اليزابيث : نعم ، يمكنك الذهاب حينما تشاءن .

جيمس : مساء الخير يا مسات برستون .

اليزابيث : مساء الخير يا جيم - اني ذاهبة لأساعد جيمس . سأراك قبل أن نذهب - (**تخرج اليزابيث**)

جيمس : حسناً .

اوليف : أنت تلهي يا جيم - هل كنت تجرى ؟

جيمس : طول الطريق من موقف السيارة .

أوليف: ولكن لم يكن هناك داغ لهذه العجلة - هناك متسع من الوقت .

جيم: (في حماس) اسمي يا أوليف ! هدى أخبار هامة أريد أن أقرأها إليك .

أوليف: ما هي ؟
جيم: لقد حظيت بالرغبة اليوم ، وهكذا يمكننا أن نتزوج في أي وقت نشاء .

أوليف: (في قلق) مسيحي ؟
جيم: نعم . لم أكن أتوقع هذه النتيجة . على الأقل لم أكن أتوقعها قبل مرور وقت طويل . ولكن حصلت عليها اليوم وسيزيد مريسي وسيكون ... يبدو أنك غير مسرورة لسبب هذه الأنباء .

أوليف: إنها المعاحة فقط يا جيم .
جيم: تكررت في أنه يمكننا الآن استرداد كل شيء ، وأن يتم رغاسا في يونية .

أوليف: أقصد بعد شهرين يا جيم ؟
جيم: قد يبدو لك هذا وقتا مبكرا ، ولكن أيميدى التفكير في الأمر . لقد فاجأك بالإناء ، ولكن كنت مسرورا جدا لما حدث . لقد كانت مفاجأة مذهلة لي أن يحدث

عنها مرة أخرى حتى أدع لك وقتا للتفكير .
أوليف: ولكن يونية قريب جدا ، ثم ...
جيم: دعينا من هذا الموضوع الآن . لقد حملت إليك الإناء

السارة . ويمكننا أن ن فكر فيما بعد في الموضوع المناسب للزفاف . حل عاد والدك إلى المنزل منذ قليل ؟

أوليف: لقد عاد لتوه ، منذ دقائق قليلة .
جيم: متاخرا ، اليس كذلك ؟

أوليف: نعم ، ولكن لماذا تسأل من تأخره ؟ اعترف السبب ؟
جيم: كلا ولكن ما نوع عمله الجديد ؟

أوليف: العمل نفسه الذي كان يمارسه من قبل
جيم: أي أسألك لاني رأيت في إنشائي الاجيرة يعملان بالجار

في أماكن مختلفة من المدينة فليس أعف فلما غير عمله .
أوليف: (متعذرة) لا أعرف شيئا من هذا يا جيم . إنه دائم

الامتد ، لا يكاد يبدل في أمر . ربما يكون كذلك وكل إليه أمر الدعاية للشركة أو أي شيء من هذا القبيل؛ وهو لا يريد أخيرا .

جيم: ولم لا يخبركم ؟
أوليف: أنت تعرف أنه من الطراز القديم ، وقد يبدو له

الدعاية صلا نالها .
جيم: (متسبعا) نعم . أن الرجال الكبار يقاسون من هذه

الكبرياء الجوفاء ، والشركات في هذه الأيام تصال من موظفيها من كبار السن معاملة قاسية . لقد سمعت

من بعض الأحوال التي فصل فيها هؤلاء الموظفين . لا شك أن الأمر يختلف مع والده . لقد مضى عليه زمن طويل وهو يعمل في شركة ستارك .

أوليف: لقد فسخ فيها حياته كلها .
جيم: لا يمكنهم لفسله الآن ، أنه سيحاول على الماشا قريبا

اليس كذلك ؟
أوليف: بعد خمس سنوات .

جيم: لا خوف عليه إذن .
أوليف: حقا ، لا يمكنهم الاستعانة به الآن ، انه يتقن عمله

تماما . هل مدت لتعود من المنزل ؟
جيم: أوه ؟ لقد نسيت أن أجادلكم في التليفون . لقد جئت

مباشرة من اجتماع المكتب .
أوليف: ألم تتناول عشاءك بعد ؟

جيم: نعم . لقد طهى على السرور فلم أأكر في الطعام .
أوليف: استناول طعاما خفيفا متعمدا نذهب إلى السينما

ولكني سأخرج لأتواصل بالهاتف ليلفونيا . (وهو يتعد) التليفون على ناصية الشارع ، اليس كذلك ؟

أوليف: على .
اليزابيث: أخرج الآن يا جيم ؟

جيم: نعم ، سأذهب للتحدث في التليفون ثم أعود بعد لحظة . ستعرف إليك أوليف الأنباء يا مسز برستون .

اليزابيث: (يخرج جيم)
أوليف: (متعذرة) لقد حظي جيم بترقية ، وهو يريد أن يتزوج في يونية .

اليزابيث: يونية ؟ بهذه السرعة ؟
أوليف: على أي حال ، لقد ترك لي تحديد الموعد .

اليزابيث: لم أكن أتوقع أن يتم هذا الزواج قبل سنة ،
أوليف: وأنا كذلك فاجأتني جيم بهذا الموعد .

اليزابيث: أنصفين يا أوليف ماذا يعني لزوجك هذا لنا ؟
أوليف: (في حزن) نعم .

اليزابيث: تلمين أننا نكرنا في شراء هذا المنزل من شركة الإناء .
أوليف: أعرف هذا يا أمي . ولكن لم أكن أعتقد أنها سنبيع

بهذا الأيراد المحدود على الحياة .
اليزابيث: ستكون أليس أشق عندما يتطلع هنا مريكم .

أوليف: وقد يصعب عليكم تدبير أمر ممشكم . ألا يمكنكم بيعه والعودة ثانية إلى السكني بالإنبار ؟

اليزابيث: ماذا ؟ تعود ثانية إلى بيت قديم ، وأنت على وشك الزواج من جيم مكسويل ؟ ماذا يقول هو عنا ؟ وماذا

يقول أمه ؟
أوليف: أدن . ألا يكون من الأفضل أن نبيع جيم بحقيقة

حاليا .
اليزابيث: كلا ، كلا ! مستدير الأمر على حال . أ لا يملك رسيدا

صغيرا في البيت ويمكنه أن يدفع هذا المبلغ من أصل لمن المنزل .

أوليف: ولكن يا أمي ، ربما يكون أبي قد اقتصد هذا المبلغ لأمر ما .

اليزابيث: هذا لا يفسح ، التي لي حاجة إليه الآن ، وسأحصل عليه .

أوليف: ولكن كذا لا يبدو حلا مادلا للموئف . ربما يكون أبي قد أمه هذا المال لمشروع يفكر في تنفيذه بعد أحواله على الماشا .

اليزابيث: عزيزي أوليف ، أنت لا تفهمين أبدا . أكر لك أنه ليس له مشروعات أو آمال أو أي مطامع أبدا . إنه

سبطين المال بكل سرور ، ما دام يعلم أن في هذا سعادته .

أوليف: اعتندين ذلك ؟
اليزابيث: التي واقعة مما أقول . وافقي جيم على أن يكون الزواج

في يونية .
أوليف: شكرا ، يا أمي .

اليزابيث: أن جيم مكسويل يتقدم من امرأة هريقة ، وله مركز محترم ، ووسرنا أن يتم زواجكما في أقرب وقت .

أوليف: هل الحب لأخير أبي ؟
اليزابيث: كلا ، أركي لي هذا . اعتسري أن كل شيء قد تم

يا أوليف .
أوليف: يونية ؟ بعد شهرين فقط ؟ كم أنا سعيدة ! هل أخبرك

أبي بنوع العمل الجديد الذي يمارسه ؟
اليزابيث: انه يقوم بعمله الكتابي السابق .

أوليف: ولكن يقوم بجولات كثيرة . لقد رآه جيم عدة مرات في أماكن مختلفة من المدينة .

اليزابيث: انه لم يذكر لي شيئا من هذا . وماذا يعمل في جولته هذه ؟

أوليف: لا أعرف شيئا من هذا .
اليزابيث: لا بد أن أعرف تفاصيل هذا الموضوع من أبيك . ولكن

ها هو ذا جيم قد عاد .

أوليف: جيم ، لقد واقتت أمي على رواجنا في يوتية .
جيمس: أم عاجز من الشكر يا عمز برستون ، ولني أني
 ساجمل حياة أوليف سعادة دائمة .
اليزابيث: أبي واقفة من هذا يا جيم .
جيمس: أوليف ، هل أنت مستعدة للخروج الآن .
أوليف: نعم يا جيم .
جيمس: هيا بنا إذن ، مساء الخير يا صر برستون .
اليزابيث: مساء الخير يا جيم . أرجو أن نقضا وقتنا طيبا .
(يخرج جيم وأوليف)
اليزابيث: (وهدها) لابد أن أتحدث مع جيمس حديثا طويلا .

(اليزابيث وجيمس وهدهما)

اليزابيث: كيف حالك يا جيمس .
جيمس: بخير .
اليزابيث: لقد كان جيم ماكسويل هنا منذ قليل .
جيمس: حقا ؟ أكان هنا ؟
اليزابيث: نعم ، لقد حظي بترقية وسيتزوج من أوليف في يوتية .
جيمس: (وكالته قد قلبي صدمة منبهة) يتزوج ؟
اليزابيث: نعم ، يتزوج ؟ هل يرتبك هذا الخبر يا جيمس ؟
 مالك قد حزلت كأي خبرك أن أوليف قد فعلت . .
 آه . . . لقد تذكرت الآن ما يتلقى بالك . انك تعتقد
 أننا لن نستطيع تدبير انقضاء المنزل ضد ما نفقده
 مرتب أوليف . ولكن هذه أنانية منك ، يجب أن نذكر
 أولا في سعادة أوليف .
جيمس: ولكن . . . كيف -- كيف سيدير الأمر ؟
اليزابيث: إن لك وصيدا في البنك . آيس كذلك ؟
جيمس: بلى .
اليزابيث: إن سعادة أوليف أهم من أعضاد .
جيمس: ولكن . . . اليزابيث . . .
اليزابيث: (تلاحظه) لا محل للنقاش في هذا . . . جيمس ، يجب
 أن تفكر بزواج ابنتك من شخص كهذا مع ذوق
 النخوة . ولكن لابد من أن نطهر لوصيفك في البنك
 حتى يمكننا تدبير انقضاء المنزل . ولعلك تال
 قريبا ملاوة تساعدا على تدبير أمورنا .

جيمس: هه . . . ملاوة ؟
اليزابيث: متى فكرت يا جيمس ، نسيت أن أسألك ما نوع عملك
 الجديد ؟
جيمس: (متدهشا) ماذا ؟ أه . . . إنه على السابق نوعه
 يا اليزابيث .
اليزابيث: أدن ما الذي يجعلك تتجول في أنحاء مختلفة من
 المدينة ؟
جيمس: أنا ؟ من قال لك هذا ؟
اليزابيث: لقد رأته جيم ماكسويل عدة مرات . هل تقوم بدعائمه
 أم تجمع معلومات ؟
جيمس: (مستترضا ههوه) آه . . . نعم . في بعض الأحيان
 أخرج لأجمع معلومات .

(ياتل الجرس)

اليزابيث: ترى . من يكون هذا ؟
جيمس: ربما كان جون مارتر . أنها الليلة التي اعتاد زيارتنا
 ليها .
اليزابيث: يودي لو أنك لم ترحب بهذا الرجل في منزلنا .
جيمس: أه صديق قديم لي يا اليزابيث .
اليزابيث: أعرف هذا . ولكنه شخص لا فائدة منه . أبي واقفة
 أنه لم يعمل يوما واحدا منذ أربع سنوات ومظهره
 لا يثبت على الاحترام . أرجوك ألا تدعوه لزيارتنا مرة
 أخرى .

جيمس: (ياقسا) يالله عليك . كفى من هذا الكلام الجارح !
اليزابيث: على كل حال ، سأتركك لتستقبله وحده فاني لا أطيق
 رؤية ملابس الملهمة .
جيمس: أرجوك يا اليزابيث لا سألني أصدقائي بسوء .

(يدخل جون)

جون: مساء الخير يا جيمس .
جيمس: مساء الخير يا جون .
جون: كيف حالك الآن ؟
جيمس: الحمد لله . في خير حال .
جون: ولكن ، مالك صاحب اللون ؟ لمريض أنت ؟
جيمس: كلا ؟ كلا ! لست مريضا .
جون: ما زلت تملك نفسك في العمل كهذاك ؟
جيمس: نعم ؟
جون: إن العمل سعادة كبيرة . يودي لو وجدت عملا -- أي
 عمل كان .

جيمس: (باهتمام) ألم يزل عندك أمل يا جون ؟
جون: كلا ! لا يمكن أن أحصل على عمل الآن . لقد بحثت
 في كل مكتب ، في كل مصنع ، في كل بناء ، في كل
 مكان يدور فيه عمل ما ، ولكن لا أمل هناك . أنت
 تعلم ما يحدث عادة . ما أن يراني المدير حتى يصرف
 أني لا أستطيع أن أبدأ عملا في مثل هذه السن .
 هناك مئات الرجال يتقدمون لكل عمل يخطر . وعندما
 يبلغ المرء سننا هذه ، ينتهي كل شيء .

جيمس: إذن قلبي هناك أي أمل -- لن نجد عملا أبدا ؟
جون: كلا ! لا أمل مندي . هيه . . . أعتلى قليلا من التبخ
 يا جيمس . (في حزن) آيه . . . ما كنت أتوقع أن
 يأتي يوما استجدي فيه لثيلا من التبخ ، أن هذه أول
 مرة استجدي فيها طوال حياتي .

جيمس: أجيء يا جون ولكني أملت من التدخين .
جون: أملت من التدخين ؟ لماذا ؟ لقد كان غليونك يلازمك
 دائما .

جيمس: هذا صحيح ، ولكن الحال قد تغير . (فجأة ولي شعور
 جارف وفي يأس) جون ؟ جون ؟

جون: ماذا بك يا جيمس ؟ ما بالك اليوم غريب الأطوار ؟
 أنت مريض ؟

جيمس: جون ! أتني أغشى سرا يؤلني وأريد أن أخبرك به فالت
 وحده الذي تستطيع أن تفهم مولتي .

جون: تحدثت يا جيمس . أخبرني يسرك .
جيمس: اني -- عاظم لم يعد لي عمل الآن !

جون: عاظم ؟ لم يعد لك عمل ؟ ولكن . . .
جيمس: (متزعجا) أخشى صوتك . يجب ألا تخبر أحدا !

جون: لماذا ؟
جيمس: لقد كنت الحبر منهم جميعا .

جون: ومتى تركت ذلك ؟
جيمس: منذ ثلاثة شهور .

جون: وطوال هذه المدة ، لم تغير أحدا حتى أهل بيتك ؟
جيمس: كلا ! لم أستطع أن أخبرهم بشيء .

جون: ولماذا لا تغيرهم ؟
جيمس: أنت تعلم أننا ما زلنا ندفع أقساط هذا المنزل ، ونحن
 في حاجة شديدة إلى مرتبي . . . ولهذا لا يمكننا أن
 نخبرهم بشيء .

جون: ولكن كيف غللت انقطاع مرتبك ؟ لابد وأنهم قد عرفوا
 حقيقة الموقف .

جيمس: كلا ! لقد كت أصلي زوجتي المبلغ نفسه كل أسبوع .
 كان لي بعض المال في البنك . . .

جون : فهمت الآن . ولكن متى ينتهي هذا الملع ؟
جيمس : لم يبق منه شيء . لقد استلمت آخر ما أمك يسوم السيت المافى .

جون : إذن ، فلا بد أن يعرفوا الحقيقة يوم السبت القادم ؟
جيمس : (في حزن) نعم .

جون : ولماذا تبالغ اهتمامهم على الحقيقة يا جيمس ؟
جيمس : المنزل ... أنت تعرف أن الإفراط حصل لتقيل كل شهر - وإن تنهى هذه الإفراط قبل خمس سنوات .

جون : جيمس ، يجب مواجهة الموقف بصراحة .
جيمس : قلنا لك لا يمكن أن أصرحهم بشيء !

جون : ولكن ما الذي دعا الشركة إلى الاستفتاء منك ؟
جيمس : لقد كانوا قسيسة في معاملتي يا جون . بعد خمس سنوات كنت سأترك العمل وأحصل على مكافأة ، ولكنهم سارعوا إلى طردى قبل الأوان .

جون : وبماذا طردوا نفسك من العمل ؟
جيمس : طأروا إلى قبر كده ، وأنت كنت دائما ارتكب الأخطاء وأحبل الشركة خسائر كثيرة . كلب . كلبوا على يا جون . وطردوني من مبنى بسجة الأعمال . ماذا أعمل الآن يا جون ؟

جون : بردى أن أفضل أى شيء لسامدتك . هل تسمح لى بأن أفتح اليزايتى لى الموضوع وأخبرها بما حدث ؟
جيمس : كلا ! لا ! لا ! لا ! أنت تعرف أن أوليف تستعد للزواج الآن وهذا الخبر قد يفسد كل شيء .

جون : وماذا تنوى أن تعمل الآن يا جيمس ؟
جيمس : يجب أن أفكر البليدة في حل ما .

جون : لا أفن أنك تنوى أن تدور الحياة البليدة . ليس أمامك إلا أن تغير اليزايتى وبسببنا الوقت صا .

جيمس : كلا ، يا جون ، لا أستطيع إلا أستطيع ... صا من هذا الحديث الآن ، ولا تقل شيئا ... إنها آسة .

اليزايت (في لجة ساخرة) ألم تجد مالا بعد يا جون ؟
جون : (يلهف) من المستحيل الحصول على عمل فى هذه الأيام .

اليزايت : ليس هناك مستحيل على ظهر الأرض .

جون : من المستحيل لرحل و الستين من عمره أن يعمل على عمل (بصفة) لقد قضيت أربع سنوات وأنا أبحث عن عمل ، لذلك فأنى أتكلم عن خبرة يا مسر برستون .

اليزايت : (ساخرة) نعم ، لقد قضيت أكثر من أربع سنوات يا جون منذ كنت تعمل لأخر مرة . ولكن ماذا كان سبب الاستفتاء منك يا جون ؟

جون : (في لطف متزايد) عدم الكفاءة .

اليزايت : نعم . فذكرت على كل حال ، لو أنك كنت أكثر حرصا لكنت الآن نجيا سعيدا في منزلك .

جيمس : (يصرخ) كلنى ! كلنى ! أجزم كلوا من هذا الحديث !
اليزايت : لذا تصرخ هكذا يا جيمس !!

جيمس : (في ضعف) ألى أفسف يا اليزايت ولكنى أحس بصداق مؤلم .

اليزايت : اذهب وارلد قليلا ولكن لا تصرخ في وجهى مرة أخرى هكذا ! لا تخجل من نفسك .

جيمس : من الذك يا جون ، سأذهب لاستريح قليلا .
اليزايت : تصور يا جون - إن هذه أول مرة يصرخ فيها جيمس فى وجهى وكل هذا بسبب صداق .

جون : هناك فرق بين صداق وصداق يا مسر برستون .
اليزايت : ماذا معنى .

جون : بعض أنواع الصداق غامضة لا تحرم ، ويبدو أن جيمس متأمل .

اليزايت : إنه دائم النشاط يعمل باستمرار .

جون : من المضحك أن جيمس استغنى بمله كل هذه الستين .

اليزايت : وماذا يدعئك لى هذا ؟

جون : أنت تعرفين ما حدث لى - عندما يبلغ الموظف سننا معينة ، لا يرغب فيهم أصحاب الأعمال .

اليزايت : لقد كان جيمس دائما موظفا دقيقا متعلما . وفكرة ستارك تعامل موظفيها كما ياملونها . عندما قل العمل فى المركز القديم نقل جيمس إلى المركز الجديد .

جون : نعم ... ولكن ماذا تقولين لو أن جيمس لقد عمله ؟
اليزايت : (ضاحكة) يفتد عمله ؟ جيمس يفتد عمله ؟ يا لها من لكاهة .

جون : منذ أربع سنوات كنت أظن أنا أيضا أن تفكيرنا كهذا فيه مضحك ، ولكنى أذكر موقف زوجتى عندما أخبرها بأنهم صاقلون من العمل .

اليزايت : وماذا كان موقفها ؟

جون : قالت لى : « أن هذا ليس ذنبك يا جون ، ولست الوحيدة فى المدينة الذى لا يجد عملا . وسندبر الأمر على خير وجه نستطيعه » .

اليزايت : وقد حسمتكم أيضا على أن تذهب إلى مكتب مساعدة الماقلين .

جون : وهل كنت أستطيع أن أعمل غير هذا ؟ أكان من الأفضل أن نوت جورما ؟

اليزايت : اعتقد أنه لو كان جيمس مكانك لعزل الموت على أن يقصد إلى مثل هذا المكان .

جون : (يصرخ) أياها مساعدة عليمة أن يموت المرء جورما وهو ما أن متسكا بكبرياته الزائلة .

اليزايت : إن جيمس إن يموت جورما ولن يفتد كبريائه . أنه جبل من طينة أخرى .

جون : ليس أهم الطينة التى جبلنا منها نحن ، ولكن أهم عطية التى جبل منها أصحاب أعمالنا ، وإذا سمعت دأبى يا مسر برستون فان ...

اليزايت : (مقاطعة) شكرا ، لا أريد سماعه ، سأخبر جيمس بأنك خادج .

جون : كما تشادين سأخرج دون أن أخبرك برأى ولكنك ستسمعينه على كل حال من غيرى . (باحترام زائد) صاا الخير يا مسر برستون (يصرخ) .

اليزايت : (تنفخ في سفوف) جيمس يفتد عمله ... بعد كل هذه الستين ... يا لها من لكاهة !

(يدخل جيمس)

جيمس : هل خرج جون ؟

اليزايت : طبعاً ! لقد تخلصنا منه . ولكن ... ما بك يا جيمس ؟ أن وجهك شديد الشحوب .

جيمس : لا شيء !

اليزايت : (فجة وبلهفة) هل كان جون يريد أن يقترب منك تقربا ؟

جيمس : كلا !

اليزايت : إذن ، ما الذى يدعوه للعضور هنا ؟

جيمس : إنه صديق قديم .

اليزابيث: أرجوك يا جيمس ، لا تشجع هذا الرجل على التردد علينا . انه خير جدير بالاحترام . انه يذهب الى مكتب مساعدة العاطلين . انه الآن متسول ...

جيمس: جون متسول ؟ صديقي القديم يقولني عنه متسول ؟! هذا هو الواقع . انه غير جدير بان يحتفظ باتاس محترمين .

جيمس: ولكن ، ليس هناك من يرغب في فقد عمله يا اليزابيث ، ان ما حدث لم يكن مصادفة . لم يكن مذبذب . انه نتيجة قصيره . لقد فعل لعدم الكفاءة . هذا غير صحيح ؟ فالواقع ان ...

اليزابيث: جيمس ! للمرة الأخيرة اطلب منك ان تحترم ما اقوله لك ؟ ان يدخل منزلنا متسولون بعد اليوم والان دعنا من هذا وأحضر لي دفتر حسابات في البنك .

جيمس: على وشك اليكاه ! اليزابيث ، أرجوك ألا ...

اليزابيث: (يبرود) أرجوك يا جيمس !

اليزابيث: اعطني دفتر حسابات .

جيمس: حسنا ، هذا هو أخذه !

اليزابيث: شكرا . سأعرف الآن موقفنا على التحديد .

جيمس: ليس من الأفضل ان تستمعي لي ؟

اليزابيث: لا شيء ... دعني أرى مقدار ما لنا في البنك ... ماذا ؟ لا شيء ؟ أين ذهبت نقودك ؟ ماذا صنعت بالمال ؟ ... ماذا حدث ؟ أجب الكلام ... جيمس يرتدون ، أين المال ؟

جيمس: لقد اخذته أنت يا اليزابيث .

اليزابيث: أنا ؟

جيمس: نعم . لقد كنت تتسلمين جزءا منه كل اسبوع طوال الثلاثة الشهور الأخيرة .

اليزابيث: الثلاثة الشهور الأخيرة ؟ اني لا افهم قصدك .

جيمس: (في هدوء) لقد فقدت عملي منذ ثلاثة شهور .

اليزابيث: فقدت ... ممل !

جيمس: (في سخرية خفيفة) نعم ، رائيا ... في الحال .

اليزابيث: ولكن ... لماذا لا ما الذي حدث ؟

جيمس: ان فكرة سارك لا تريد ان تمنحني مكافأة .

اليزابيث: اني لا اصدقك هذا كذب .

جيمس: كلا ، يا ميريون ، انها الحقيقة .

اليزابيث: ماذا فعلت ؟ أي خطأ ارتكبت في صياك ؟

جيمس: لم أعطيه في شيء . كانوا يريدون ان يتخلصوا مني ، هذا كل ما هناك .

اليزابيث: كلا ، كلا ، لا يمكن ان يكون هذا صحيحا ! بعد كل هذه السنين !

جيمس: بعد كل هذه السنين .

اليزابيث: وماذا فالوا لك ؟

جيمس: قالوا اني ارتكبت اخطاء . ولكنهم كاذبون يا اليزابيث ، كذبة قاهرة ! مجرد حجة لسلب مكافأتي .

اليزابيث: اني لا اصدق هذا الكلام ! اذا كانت هذه النصيحة صحيحة ، فلماذا لم تخبريني من قبل ؟

جيمس: كنت خائفا . كنت اعرف انها صنعة متيفة لك ، ونحن نتعمل مسئولية هذا المنزل . فلت ان في استطاعتني الحصول على عمل آخر ، ولكن كان هذا مستحيلا . لقد قضيت ثلاثة اشهر وأنا ابحث وأنا اعرف الآن تماما انه لا جدوى من البحث . لم ييسق لي الآن يا اليزابيث سوى ان اذهب الى مكتب مساعدة العاطلين .

اليزابيث: كلا ، كلا ، ... يجب ان تجد عملا ، يجب !

جيمس: ليس هناك أمل يا اليزابيث ! لا أمل !

اليزابيث: ولكن يجب ان تحصل على ايراد ثابت ! مستحيل حينما اذا لم تحصل على عمل . فكر في اوليف ! فكر في ... ماذا يقول الجيران هنا بعد ؟

جيمس: اني آسف يا اليزابيث . اني اعرف عاقبة هذا علينا جميعا ، ولكني لا أستطيع ان افعل شيئا . اني رجل مجرب ... أه ... راسي ! راسي سينفجر !

اليزابيث: جيمس ! يجب ان نذهب الى صستر سارك وارجوه .

جيمس: كلا ، كلا ! اذا مدت اليه ... فسأنتله !

اليزابيث: يجب ان تعود اليه . يجب ان تطلبه على حالنا .

جيمس: لقد رجوه . لقد بقلت له كل شيء . ولكنه رد على قائلا : « كان يجب عليك ان تتذكر كل هذا وتكون اكثر انتباها في مملك » كذب يا اليزابيث ! كذب جريه فخر !

اليزابيث: اني لا اصدق هذا جيمس ! لا اصدق انك لا تستطيع الحصول على عمل . لهذا ، ستبحث مرة أخرى ، وإذا لم تجد عملا قبل نهاية الاسبوع ...

جيمس: (في هدوء) نعم !

اليزابيث: سنناقش ذلك في حينه .

جيمس: اليزابيث ، اني واصل الآن .

اليزابيث: راحل ! اني أين ؟

جيمس: لا أعرف ... الى أي مكان ... الى النجا غالبا .

اليزابيث: سمعت انت ؟

جيمس: أنا ؟

اليزابيث: نعم . لقد ذكرت في هذا الآلاف المرات . انك سوف ترسليني لأبحث عن عمل يوما بعد يوم ، وستولميني وتؤنييني عندما أعود في المساء . سأحيا ملك حياة احقر من الكلب وأنا لا افوز على احتمال ذلك ، ولهذا سأرحل . ليس هناك من حل يا اليزابيث أستطيع ان اتقي نفسي في النهر ، ولكني لن اقبل هذا . لي يوم في الايام قد احصل على عمل ما . لقد قالوا لي انه يمكنني ان اعمل في النجا مقابل طعام وهذا يكفي .

اليزابيث: ولكن نحن ... ماذا يحدث لنا بعد ؟!

جيمس: اني سعيد يا رسليني التفكير يا ميريون ، اني مجهد للغاية . وإذا كان جميع ماكسويل يهتم حقا بأوليف ... فاني رايت انه صاب طيب ... لقد ساعدكم . أما أنا فلا أستطيع ان افعل شيئا بالذات - لا أستطيع ان اعمل ست ... انك ان ترضي بان ابقي هنا وبراني الجيران اذهب الى مكتب مساعدة العاطلين .

اليزابيث: كلا ، ألف مرة كلا .

جيمس: إذن ، فسأخرج من حياتكم ، اعمله بالا ثروتي مرة أخرى (يتهلج بلهجة) شكرا لك ، لقد انتهي كل شيء . لقد كان حبيبا ... جميعا .

اليزابيث: انك تسخر مني ، لا بد انك تسخر مني .

جيمس: كلا ، يا اليزابيث ، انما الحقيقة . وسأرحل الآن .

اليزابيث: انك تمشي على الرحيل ؟

جيمس: وماذا أستطيع ان أفعل غير هذا ؟

اليزابيث: اعمل ما يحلو لك ، ولكني أعرف ما سيحدث ، سنبقي بعيدا ليلة واحدة لم نعود . ولكني لن أتيتك مرة أخرى . ان امثالك من الرجال في حاجة الى درس قاس . وقيل ان تفكر في العودة ، ناكذ أولئك قد حصلت على عمل .

جيمس: سأترك ذلك جيدا . وسأعود لك هذه الزجاجة .

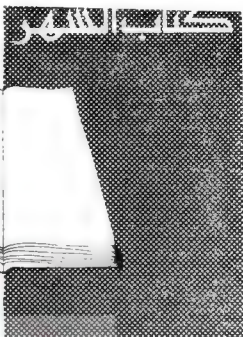
اليزابيث: زجاجة سم ؟ ماذا كنت تعمل بها ؟

جيمس: لقد أخرجت هذه الزجاجة خمسين مرة يا اليزابيث ! ولكني سرور الآن بانني لم اصب دور الجبان ، اني اعلم انه أسهل طريق للخسلاس ، ولكني فقدت كل كبريالي يا ميريون . ان الدولة يمكنها ان ترعاني . لقدسدت اذيت واجيب ، وعلى الدولة الآن ان لا تدعي واجيبا . أه ، ما أذهب الحرية ! ما أذهب الحرية !

(يغسج)

اليزابيث: عرج ! لم يعد له عمل ... بعد كل هذه السنين !

مارشال الواقعية والمثالي تأليف: ويلبر مارشال إيربان



عرض
عبد العزيز حمود

Beyond Realism & Idealism by WILBUR MARSHALL URBAN London, George Allen & Unwin Ltd.

السيكولوجي لنظرية المعرفة عند « لوك » و « هيوم » ، ثم أن ذلك التمازج الذي نراه الآن لم يكن موجودا في الفلسفة الأوروبية القديمة .

أما السبب في صفة الانتهائية التي اكتسبتها الحركة فيرجع ، من وجهة نظر المؤلف على الأقل ، إلى أن الجسد الملمس الذي تعيرت به العقود الأولى للقرن العشرين انتهى إلى ما يمكن أن يسمى بالسلام من غير انتصار ، سلام مرده الاجهاد ، الذي يتسم بالركود . وفي مثل هذه الحال من الركود لا يستطيع أحد الطرفين أن يثبت خطأ الآخر ، أو يؤكد صحة رأيه هو .

ويتقسم كتاب « إيربان » إلى قسمين . في القسم الأول يحاول المؤلف أن ينهي التمازج جاثيا وأن يستعطي عليه . يريد في هذا القسم أن يبرهن أنه ليس من المستطاع إثبات أي من الطرفين منطقيا أو واقفيا . ثم أننا سوف نتكشف في النهاية ، بعد أن نتفهم طبيعة ذلك التمازج ، أن الوقوفين في حقيقة الأمر لا يتعارضان ، بل أنهما يكملان بعضهما بعضا .

ففي الفصل الأول ، وهو تحت عنوان « نظرية المعرفة بصفة عامة ، والتمازج بين الواقعية والمثالية » لا يتفق مؤلفنا مع الفلاسفة الذين يهاجمون نظرية المعرفة لأنها ويتمنونها بالصفط والقيم على أساس أنها مجرد تفكير لا طائل بعده . أما « إيربان » فيقول أننا يجب أن « نتمكر في الفكر » ، إذ أن نتاج ذلك التفكير من معرفة بل حتى من علم سوف يكتب عنى دائما في نظرتنا . ثم « أن مجرد وجود المعرفة والعلم في الروح البشرية ، هذه الحقيقة وحدها تزيد في مراعاتها الملحق على الحقائق الأخرى سواء حول الإنسان أو الطبيعة ، والتي يكتبونها من طريق دراسة العلوم الطبيعية » .

« أن التمازج بين الواقعية والمثالية لا أهمية له . فليست تعبيرات المثالية والموضوعية ، الواقعية والمثالية إلا تعبيرات عامة » .

كانت هذه الكلمات التي قرأها المؤلف (1) في بدايته حياته في كتاب « فلسفة الدين » لهيجل هي التي أثرت في اتجاهه الفكري ، وجعلته لا يقبل أن يقال عنه أنه واقفي صرف أو مثالي صرف .

لهذا يميز المؤلف في أكثر من موضع من كتابه عن مغالفة من خطورة ذلك الانفصال بين ما يسمى بالواقعية والمثالية ، تلك المغالفة هي التي دفعته إلى تسمية هذا الكتاب « ما وراء الواقعية والمثالية » . وهو يؤمن بأن ذلك الانفصال مفروض على العقول الناصجة التي تشتت في كثير من الاتجاهات والمجول الفلسفية رغم الاختلاف والتباين الظاهر والذي يقرى بذلك المرض هو ذاته . ولقد كان ذلك الاحساس بأن التمازج والانفصال يتقدمان أبسط الطور الفكري سببا في حالة يؤس فكرى عميق دفعت المؤلف إلى نشر هذه الدراسة ليوضح ذلك الوهم الذي يعرفه التياران الفكري العنصري .

ولقد قل « إيربان » طول الوقت (2) يردد لنفسه هذين السؤالين :

أولا : كيف نشأ مثل ذلك التشابك الخطير ؟
ثانيا : كيف يفي الجدول حوله هكذا ، بلا نهاية ، ودون يقتنع أحد الطرفين .

ويجيب « إيربان » على السؤال الأول قائلا بأن الصراع أصبح ظاهرة مميزة للعصر الحديث ، خاصة بعد التفسير

(1) ويلبر مارشال إيربان ، فيلسوف إنجليزي حديث .

(2) يمد نشر Beyond Realism and Idealism The Philosophical Review, vol. XXIV, No. 2, 1917.

وهذا أساس يتكررون وجود ما يسمى بمشكلة الصفوة أساساً ، فبينما يمكن الشك في أي وقت أو نتيجة فكرية ، فالتأكد لا يمكن أن نشك في الأشياء التي لدينا أو الأشياء الموجودة هنا . فلذا قلنا أن لافان ماري بالجدري مثلا ، يمكننا أن نشك في كلمة الجدري باعتبارها تصورا عاليا ، ولكن هل يمكننا أن نشك في وجود ذلك الشيء الذي اصطفا على أنه الجدري وأصطناع هذا الاسم ؟ قل هذا قول « جون دوي » (١) : قد يشك المرء فيما إذا كان مصابا بالحصبة أم لا ، لأن الحصبة لفظ مجرد ، تخصصي ، ولكنه لا يستطيع أن يشك فيما لديه بالضرورة ، لا لأنه اكتسب معرفة مباشرة بها ، كما يؤكد الكثيرون في أكثر من موضع - بل لأنها مسألة فكرية على الأخلاق ، ليست مسألة صحة أو زيف ، تقي أو شك ، ولكنها مسألة وجود .

ويرد « أريان » على ذلك قائلا أن استلثنا شيء نسميه لمعرفة شيء فمعنا بأن يكون ذلك الشيء هو ما نستدعيه ليس فمعنا بأنه لن يكون مجرد شكل من أشكال أسلوب الحيواني ، أي أنه من المستحيل أن نشك في تلكا لهذا الذي نسميه معرفة ولكن الشك يمكن أن يحدث حول معنى وأهمية هذه المعرفة ، وإذا سلمنا أن يكون الأمر بضرورة المعرفة ، وبما لا بد أن نعرف ، لوجدنا التفسير والتبرير اللذين لم تكن الفكر التناقصين : الوافية والثالية . إذ أبهما مثلالا أصرا على التفكير في الفكر ، لم أبهما مثلالا تقيما متبائنا المعرفة . ونسأل أنفسنا : أين ينشأ ذلك التعارض بين الإجابتين ؟ أن كلا من الوافية والثالية نطمان أساسا بوجود المعرفة ولكن المشكلة التي يتفان حولها هي صحة هذه المعرفة ، وهماذين مختلفان بكون اختلافهما حول قيمة المعرفة ، مما يتسبب منه أن المشكلة في جوهرها مشكلة قيمة . والمباشرة ، أو قل الكمية ، و هذا أن كلا من الطرفين ينحو منحى يجعل المعرفة الحققة ضرا من العمل . فالفيلسوف الذي يرى أن معنى المعرفة - فبينما - يعتمد إذا لم نعتبر المعرفة شيئا متعلقا مستقلا عن الظروف ، أما من وجهة نظر الفيلسوف التالي فإن قيمة المعرفة تعتمد إذا لم نعتبر موضوع المعرفة متعلقا بالفاعل العاقل ، فمعنا أنه - ويتنقل أريان بعد هذا مستعرضا الثالية والوافية في تاريخ الفلسفة تناولوا المشكلة في فترتها القديمة والحديثة . وفي رايه أن مشكلة المعرفة قديمة قدم الفكر الفلسفي ، وأن التعارض بين الوافية والثالية موجود منذ البداية . ومع هذا فإن المشكلة بصفة عامة وذلك التعارض بصفة خاصة من نتائج العصر الحديث .

لقد كانت الفلسفة الإدرية إلى ما قبل « لوك » تقوم على مبدأ أساسي وهو الثقة في العقل الإنساني . ثم جاء « لوك » بنظرته من فسيولوجية المعرفة ومانيها من الشك الهدام ، وكان هذا بداية للظهور مشكلة المعرفة بعلومها الحديث . وينطبق نفس الشيء على التعارض بين الوافية والثالية . فمع أننا يمكننا القول بأن اللاطون كان مثاليا وأن أرسطو كان واقفيا إلا أن التعارض حديث كتيه - نشأ من أسباب وظروف تاريخية متعددة .

ظهرت المشكلة أول مظهرها في نهاية القرن السابع عشر ، إذ استعمل لابنتر لفظ « الثالي » على أنها عكس « القلي » ، أي « الشكل » ضد « المادة » ، والقريب أن لتفسير اللفظة في ذلك الوقت بهذا المعنى كان أخذ في الاختفاء بسرعة ملحوظة ، لأنها كان عليها أن تكيف نفسها مع التغييرات التي جاءت مع فلسفة « ديكارت » و « لوك » ، وأصبحت الكلمة بعد هذا تعني الاتجاه الذي لا يتعرف بطريقة خارج عالم الفكر أو العقل . ولا كان « باركلي » هو أول فيلسوف استعمل في هذا المعنى ، فقد أصبحت الكلمة في معناها الجديد لاذكر الإربطة باسمه . وكان ذلك المفهوم للثالية هو الذي أدى إلى ظهور الوافية مؤكدة وجود عالم حسي خارجي مستقل عن عالم العقل .

Experience and Nature. p. 21. (1)

ويأتي « كانت » ليرى الموقف كما يلي : « باركلي أولول Wolfl » من ناحية ، يؤكدان بتأليهما أنه لا وجود إلا لكائنات متكررة ، وأن الأشياء الأخرى التي معتقد أننا نسميها ليست إلا مجرد أفكار في عقول هذه الكائنات المتكررة . والاتجاه الواقعي المتأخر من ناحية أخرى . . يأتي « كانت » ليرس أسس نظريته « الثالية المتعالية » (١) التي تقوم في جوهرها على رفض الثالية الجامدة عند « باركلي » والثالية الجدلية عند « ديكارت » . ورغم هذا فليث اسم « كانت » أن أريت مفهوم الوافية الوانا وشروها شتى ، إلى حد القول بأن لدينا كلمة تنسب للفظ تغييرات جوهرية ليس هذا مجال سردها .

وإذا كانت الثالية قد اضطرب أن تكيف نفسها مع التغييرات الجديدة ، كما سبق أن ذكرنا ، فقد اضطرب الواقعية أن تفعل نفس الشيء ، إذ كان عليها أن تكيف نفسها مع الظروف الجديدة . . وكانت نتيجة ذلك أن اكتسبت كلمة الوافية الوانا وشروها شتى ، إلى حد القول بأن لدينا فروبا من الوافية تتعارض فيما بينها تماما كما تتعارض الوافية - ككل - مع الثالية .

فلذا لردنا أن نستخلص من هذه النظرة التاريخية شيئا ، فلنا نخرج بشيء واحد ، وهو أن المشكلة ليس أساسها التفكير اللطيني إلى المعنى أو ضيفه ، بل أن أساسها امتداد ذلك المعنى وفناه . أي بمعنى آخر أننا نستطيع أن نصل إلى أن تعريفات متعددة ينتهي إليها كل اصطلاح في ظلاله المختلفة ، أو أننا إذا أردنا أن نصل إلى مثل هذه التعريفات قلنا نستطيع ذلك دون الرجوع إلى عالمي الزمان والمكان وظروفهما ، لهذا إذا أمكننا أن نتصور اللطيني على أبهما طبيان ، فإن ما بينهما لم يمكن دائما فرقا مينا بدرجة انقضاء والتناقص . فقد مرت الثالية من مرحلة الثالية الحديثة إلى الثالية المتعالية ومنها إلى الثالية الوافية التي يمكن أن نعتبرها واقعية روحية . ومن الناحية الأخرى مرت الوافية من واقعية حسية إلى انطاع متعددة من الوافية المتعالية حي وصلت إلى الوافية الحقيقية التي تختلف قليلا عن الثالية . لأن فلم تكن المسافة بين الطرفين فرقا أو ظالة ثقافي محض ، بل أننا في بعض الأحيان لانفرق بين الإجابتين إلا كلمة .

ورغم هذا التباين بين الإجابتين العامين للواقعية والثالية ورغم التغييرات التي تطرأ على كل منهما فالتأكد لا نستطيع أن ننكر وجود ماسمي دوافع استنولوجية (٢) متغلطة في الإجابتين على السؤال ، وأصحة على مثل التغييرات التاريخية التي يمران بها ، ونستطيع أن نسمي هذه « بالفسوة الدافعة للثالية » وفكرة الوافية على القوة ، والثالية ذاتها هي القوة الدافعة لسكل التغيرات الحية ، فهي تغلق وتحيى وتصلح . وإذا كانت الثالية هي القوة الدافعة للحياة فإنها أيضا القوة الدافعة للمعرفة والفلسفة . وربما استطعن أن ترجع إلى اللاطون ومنطقه التأمل الإحسائي بن الغيبة لا توجد في عالم الحواس الذي يخصص للتغيير الدائم ، ولكنها توجد في عالم اللاحي ، في عالم الأفكار الذي يطي الظواهر الحسية وجودها الدائم ، وأمام هذه القوة الدافعة للثالية كانت تظهر دائما مقاومة الوافية التي تعالو تسليمها ما تنادي به الثالية على أساس تعاقب تكيف أولى ، بل حتى عضوي مع العالم الخارجي .

وإذا كنا نتنقل إلى الفيلسوفين تناولوها بالتفصيل ، بقيت كلمة من طبيعة التعارض بينهما . ما هو الطابع الذي تسم به هذه الجدلية الفكرية ؟ نقول كثير من الفلاسفة بأن المعرفة مجردة الطابع ، على أساس أن أي مناقشة لنظرية المعرفة تعني الخروج من نطاق الوجود إلى حيز الفيلسوف ، وأن نظرية المعرفة بصورة عامة تعني « الانتقال التام من عالم الأشياء إلى عالم الجدل والمناقشة » (٣)

Transcendental Idealism. (1)

Epistemological Intentions. (2)

John Dewey, Experience and Nature p. 140. (3)

فلنطبق هذا الكلام على المشكلة بصفتها العامة ؟ لم نتفكر بعد ذلك الى الجانب الخاص . اذا تناولنا جدلا حول نظرية المعرفة ، لرأينا ان سهولة ان الجدل لا يدور حول الانبياء على الافلاخ ، بل يدور حول معنى وفيه مأسية بالغة . وهذا مايتضح بصورة أقوى في أى جدل حول حقيقة المثالية والواقعية .. فمثل هذا الجدل لا يدور حول وجود الأشياء او عدم وجودها .. لا يفرق حول صحة أو زيف الافتراضات التي نستخدم لتفسير الأشياء ، ولكنه يدور دائما حول معنى المعرفة . فصاحب المذهب الواسطي يعتقد ان المعرفة المحضة محال الا اذا كان الشيء المعروف مستقلا عن العارف ، في حين يعتقد صاحب المذهب المثالي ان المعرفة غير ممكنة اذا كانت مستقلة تماما ، أي الا اذا كان هناك انحداد بين العارف والمعرف . وكل هذا الجدل كما نرى لا يتصل بالاشياء ذاتها بقدر مايتصل بمعالم الجدل والنقاش . وهنا يدخل النقطة الواسطية .

فحدثت ذلك الانتقال من عالم الأشياء الى عالم المصاىي دعا النقطة الواسطية الى اعتبار المشكلة برمتها لامعنى لها . فهم يرون أنه لاوجود لمفاهيم الحسى الذى يمكننا ان نمار به ذلك السؤال الميتافيزيقي . ويتفق معهم « ايربان » حول هذه النقطة . ولكنه لايرى معهم مايرون من أن السؤال لايعنى له . فليس هناك ضرورة نعمت هذا لكون ان انحداد الحك الحسى ، ليس بسبب وهو ان المثالية لا تدور حول « الأشياء » ، حول صورة نريد ان نتأكد من صحتها ، او محاولة تاريخية نريد ان نرجعها لتاريخها الصحيح ، او اكتشاف علمي أو غير ذلك . ولكن المشكلة تلعب داخل نطاق الجدل والمعى . ومن هنا تبرز أهمية المشكلة .

بعد هذا ينتقل المؤلف ليتناول المذهبين كلا على حدة ؟ يناقش مابعية كل اتجاه ؟ أين يلف وعلى أى أساس وإلى أى شيء يرمي ؟ وأين يتفق أو يختلف مع الاتجاه الآخر .

الفرق الدافعة للمثالية : الاتجاه المثالي
سبق أن أشرنا الى أنه ليس من الجسير ان نضع أيدينا على تعريف بسيط مناسب لأي من الاتجاهين . فما هي المثالية مثلا ؟ لم أرنا تعريفا مناسباً لا استعملنا الوصول إليه ولكننا نستطيع ان نحدد ، بقدر استطاع ، الاتجاه العام للمسكوة المثالية بر غير نظريات التاريخية - على نجد الطيف المشترك الذى يمتد بر هذه النظريات . وإذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان من الصير الوصول إلى التعريف البسيط ، فالأفضل ان ندع اتباع المذهب أنفسهم ليحددوا لنا هذا الطيف المشترك . هناك النقاب بان المثالية هي النظرة المثالية بان العالم موجود في العقل . ولما كان العقل لا يتفصل عن القيمة ، ان فقد كان « دين الابع » معانا من ناحية البدا حينما قال ان المثالية هي

« تفسير العالم حسب معيار القيمة » او على حد قول افلاطون فكرة الخير) ومن هذه النقطة تضح لنا المثالية الميتافيزيقية التي كانت تكون الفكر الاوربي منذ البداية .

لكن الذى يخطوخط العريضة للاتجاه المثالي . ولكننا لى نلتهم ذلك الاتجاه على حقيقته يجب ان ننشى جانب لك الفكر المظلمة المثالية بان الواقعية هي السلوك « الطبيعي » للانسان ، في حين ان المثالية هي « النقد الحديث » للمصرفة الانسانية .

فالحقيقة ان الانسان مثالي والحق في نفس الوقت ، ان العالم الذى يعيش فيه ذلك الانسان مليء ببعاد من الأشياء الحسية ، ولكنه أيضا مليء بأشياء لا توجد الا على المستوى الفكرى . خذ مثلا : الله ، الحب ، العبد ، الشهرة ، العدالة ، كلها تصل بعالم المثل المثالي . ولكن استعداد الانسان لقتال والمماناة والنوت من اجلها يقضي عليها صفة اخرى . فهذه الأشياء ذاتها في لحظات التجربة ، تصبح أثر الأشياء الواقعية بالنسبة لنا . هذا جانب واحد من جوانب الفكر المثالية لتصبح الأشياء مثالية وواقعية في نفس الوقت .

اما الجانب الآخر فهو الاعتقاد بان عالم الحواس ليس عالما والحقا . لهذا يعاول المذهب المثالي التدرج من الأشياء

الموجودة في العقل الى الأفكار . وان اعظم المشكلات في التاريخ الفكرى لاي إنسان حينما يكتشف خداع الأفكار وتناقضها . هذا حينما يكتشف خداع الأفكار وتناقضها .

● المذهب المثالي في التراث الفكرى الاوربي
اذا غلبتنا الطرف من تشابه الفكر الإغريقي والمسيكر الشرقي ، وجدا ان المذهب الافلاطوني يعمل في طياته بدور المثالية الطبيعية . فالحال الحواسي عند الافلاطون ليس هو عالم الواقع ، والواقع في نظره هو مأسية بالأفكار . والافلاطون لا يرجع الحقيقة الى عالم الحسى المتغير ، بل ان الوجود الحق في الأفكار التي نفسى على الفلاسفة ماتسم به من وجود دائم . فالاشياء الحقيقية موجودة في عالم فوق الحسى ، عالم المثل . وعن مذهب افلاطون نشأت المثالية في الفكر الاوربي ، مايتصل عنها بـالبياتيزينا ومايتصل عنها بالمعرفة .

ويأتى ارسطو ليكمل مشغل المثالية بعد افلاطون . ولكننا نحس وجود قوة جديدة في فلسفة ارسطو ، وهي قوة المقاومة التي تيديها الواقعية . من هنا ينشأ الإزدواج الفكرى عند ارسطو بصورة لم تكن موجودة عند افلاطون . ولكننا لنكتسب الاساس للمثالية الحالية موجود ، فالمرارة عنده ممكنة ما دامت في الأفكار ، وخاصة فكرة الخير . ويستمر نفس الطيف ظاهرا في الفلسفة المسيحية والفكرية التي تلها مع بعض التعديلات التي تطبقها الافلاطون الدينية الجديدة .

ويستمر الاتجاه المثالي حتى نصل الى العصر الحديث . ولقد قيل من «ديكارت» و«البيزن» انهما مثاليان ، وقيل عنهما أيضا انهما واقفيان : فالحالهما يلزم بوجود عالم مستقل من العقل ، ومع هذا فالتلون المثالي في تفكيرهما قوى الى حد ملحوظ .

وإذا كان السيار المثالي قد استمر ملونا كل التراث الفكرى لأوروبا فانا نجد اخلالا من المثالية حتى مابيل لينين والمثالية بعده الى حد ما معنى الفكرين الى القول بان المثالية حتى عند «ديكارت» و«البيزن» هي المثالية الحقيقية ، اما المثالية التي جاءت بعدها فهي المثالية الزائفة ، والواقع ان المثالية كان عليها ان تكفي نفسها من الظروف التاريخية الجديدة ، ولا أدل على ذلك التغيير الجذري في تغير مفهوم « المعرفة » ذاتها . فالحقيقة أصبحت للغة « الفكر » تدل على الانطباع الحسية وترباطها لتكوين الأفكار عامة . واستتبع هذا تغير جوهرى في مفهوم المذهب المثالي كله ، ذلك التغيير الذى يرتبط عادة باسم باركلي . وإذا تبعنا تطور المثالية بعد ذلك وجدنا انها حرت بمراحل بمرج :

أولا : المثالية الذاتية ، او الذاتية :
كان باركلي ، كما سبق ان أشرنا ، الفيلسوف الاو الذى ساعد في أحداث التغيير الجوهري لمفهوم المثالية ، وإلى ذلك التغيير يرجع ظهور المثالية الذاتية . فباركلي لا يتفق مع هؤلاء الذين يرون وجود اشياء مثل الأهرام والجبال والناتزل مستقلة عن ادراك العقل ، او يعتقد ان هذا مناب تفكيرنا ، وأنه يجب ألا يكون هناك عالمان مستقلان ، واحد يمثل عالم العقل ، والآخر يمثل عالم الحواس . وعلى هذا الأساس أيضا يهاجم باركلي نظرية النسبة الأخرى او المثالية الطبيعية .

وفي رأى كثير من الفلاسفة ان باركلي لم يقدم المثالية كثيرا ؟ فهم يرون أننا لايمكن ان نتبع تيار الذاتية الذى يتعو اليه . ثم ان المثالية ذاتها في رأيهم لا تتطلب بالضرورة اعتماد عالم الحواس على العقل . واتخذ الوجهة لنظرية باركلي يتركز بصورة عامة حول الهوية التي يتسم بها :
ثانيا : المثالية النقدية او المثالية :
وقد قلنا لوهنا الفيلسوف الألماني « كانت » والملاحظ أننا كلما تعمنا في هذا الاتجاه وجدناه يتفق ويختلف الى حد كبير مع الاتجاه العام للمثالية . « كانت » نفسها مع اتباعه يعطي به الأفكار والمفوضى ، الى لاستطيع ان نحدد موقفه في ضوء من اللغة . فمثلا أطلق عليه لقب « شاهد » ان كان شاعدا على الافلاخ - المثالية المتردد » . كان مترددا لأنه كان يشعر في

بعض الأحيان بقوة حجة المذهب الوافقي . وربما كان ذلك السبب في اعتباره في أكثر من مجال ناقد المثالية الوافقي . ويقول مذهب « كانت » على رفضه المثالية باركلي الجاهد التي تقول بأن المعرفة تبدأ من الأفكار الموجودة في العقل . ثم على رفضه المثالية يدكرات التي تبدأ بالذات . « فكانت » يرى أن فكرة الذات نفسها تقوم على تعارض بين شيء داخلي وشيء خارجي . ويساعد في أحداث ذلك التعارض وجود شيء خارجي مستقل . ولا يصحح في إمكان الذات أدوات حالتها المتغيرة إلا إذا أرجعناها إلى شيء دائم في مكان . أو بصورة أخرى فإن الحس المكاني يعمل في ذاته الإشارة الحتمية إلى وجود موضوعي . أي إلى حقيقة في مكان .

من هنا يتضح لنا مذهب « كانت » . فهو يقول أنه لا وجود لنظرية لا تعترف بوجود انشائية مستقلة عن العقل . وفي نفس الوقت لا وجود لنظرية لا تعترف بوجود أشياء مرتبطة بالعقل . ومعتمدة عليه . أي أننا لا نستطيع أن نسمي المثالية نقيدة إلا إذا اعترفنا بوجود أشياء مستقلة عن العقل . ولا نستطيع في نفس الوقت أن نسمي الوافقية نقيدة إلا إذا اعترفنا بوجود أشياء مرتبطة بالعقل .

كان هذا هو جانب اختلاف نظرية « كانت » مع التيار العام للاتجاه المثالي . أما كيف يتفق « كانت » مع المثالية بصفة عامة . ومع باركلي بصفة خاصة فهذا يرجع إلى وجود العوامل الثلاثة التي تتميز بمثالية باركلي عند « كانت » أيضا . وهذه العوامل هي :

(أ) القول بأن عالم الظواهر الحسية ليس هو عالم الواقع .

(ب) أن عالم المثل أو الروح هو عالم الواقع . وخاصة فكرة الغير .

(ج) أن المعرفة الحقة تعني اتحاد العارف والعرف .

ثالثا : المثالية العقلية

لم يعد للفلسفة الحديثة وجود بعد ظهور « كانت » . ثم جاءت تيارات فكرية مختلفة كانت في معظمها تحاول الإفراج من « كانت » ومنعها الفكري . ومنها تيار يعتقد أنه كيهي « هيكل » المثالية العقلية عند « كانت » وهو تيار المثالية العقلية . ويرى « هيكل » « رسول ذلك الاتجاه » أن « كانت » فاد الفكرة المثالية حتى منتصف الطريق . وأنه لم يحقق إلا هدفا ناقصا . بل أكثر من هذا ينظر هيكل في فلسفة « كانت » فبراهما مليئة بالتناقضات .

فياركلي يرى أن المعرفة الأصلية محال إلا إذا تتسايه المعروف والعرف . أو كان فرق في العقل . و « كانت » يرى أن هذه المعرفة محال إلا إذا كان الشيء المعروف يكونه العقل ويصوره إلى حد ما . أما مع هيكل ومثاليته العقلية فالتسوية تختل . فليس الأمر كيف يلتقي الشيء بالعقل في ظل الفكرة . ولكن السؤال ماذا يجب أن تكون طبيعة موضوع المعرفة في هذه المعرفة ممكنة على الإطلاق ؟ والمعرفة الأصلية في رايه لا تكون إلا معرفة بالمثل . وصلة الفكر لا توجد إلا في العقل . إذ أننا لا ميدان لتلك الوحدة . اللهم إلا إذا فسرنا العلية على نسس روحية . أي نقلناها إلى مدار العقل . ويتبع هذا منادى به من فكرة الكثير في الواحد ووحدة التنافسي . ولكن المهم أن الحقيقة « في الشكل » .

رابعا : المثالية الحديثة :

ويؤيد هذا الاتجاه المثالي الأخير بعد أن تنهار معظم التيارات المثالية السابقة . بل في الحقيقة « أنه يتوقع على أساسها » ويسمي ذلك الاتجاه بمثالية القيم . وفي ظهر ذلك التيار عند كثيرين من أتباع « كانت » و « هيكل » « فيخت » وفي الكتابات المتأخرة لبوزانكيه وروسي ... ويحدد أحد فلاسفة ذلك الاتجاه مبادئه قائلا : أننا لا نستطيع أن نعترف بالطبيعة موجودة في ذاتها . بل يجب أن نعتبرها عمرا في كل لا يكتفي التعبير عنه إلا على ضوء الفهم ... كما قد نعودنا القم في تجاربنا ذاتها . فلنا نفس بأنه من المستحيل

أن ننظر إلى شيء مجرد من القيمة باعتباره حقيقة أو مستقلا بذاته . أو بصورة أخرى . باعتباره كلا reo Completa (١) وفي رأى اتباع ذلك الاتجاه أن القوة الدافعة للفلسفة المثالية هي هذه الاستحالة العقلية . أكثر من أي تناقض تأمل . بوجود عالم غير معروف تماما . إذن فالمعرفة المنفصلة عن القيمة ضرب من الخيال في نظر هؤلاء الفلاسفة . وهذا يرجعنا إلى ما سبق أن أشرنا إليه من أن القوة الدافعة الأساسية للمذهب المثالي هي ارتباطه بالقيمة .

● المذهب الوافقي

وأمام هذا يلف الفيلسوف الوافقي ليدافع من « عالم الرجل العادي » ضد رومانتية المثاليين . وفي بعض الأحيان يتسم دفاع الوافقي بنشأت من القسب والثورة . لكن « ماضي الوافقية وما مفهومها وجنودها ؟ وكما هو الحال مع المثالية فإننا هنا أيضا لا نستطيع أن نعطى تعريفا واضحا للمذهب . يصعد طاقاتها بصفة عامة . وطاقاتها في أشكالها المتغيرة .

وهنا أيضا . سوف نترك الدلائل الوافقية يتحدونهم أنفسهم من مذهبهم . وأن كنا نجد صعوبة لم تظهر في تناولنا للمذهب المثالي . فالمثالية هي العنصر الخلاق في الفلسفة بينما تمثل الوافقية جبهة المعارضة . المثالية تبدأ الهجوم . بينما الوافقية تقوم بالرد على هجمات المثالية بالنفي . بل أكثر من هذا نجد أن كل شكل من أشكال الوافقية تعدد وتنحزم فيه التهم التي توجهها إليه المثالية في أشكالها المختلفة .

وهنا أيضا يجري اللفظ الأساسي نفسه في كل أشكال الاتجاه الوافقي . وهو الدافع الإستمولوجي ونسأل أنفسنا ما هو ذلك الاتجاه العام المشترك ؟ وهنا أيضا نفس الفيلسوف والمثالي صعوبة إعطاء إجابات محددة واضحة . ولستكنا نستطيع أن نسوأي رأى أحد الفلاسفة الواقعيين في هذا التساؤل (٢) . إن الواقعية بصورة عامة تلزم على الاعتقاد بأن الحقيقة هي ما هي « ما هي » . ويتبع هذا إلى اعتبار العقل محييا . تصور حوله مفرقا ومبركاتنا . بل أنه ياتي في مرتبة أعلى الحقيقة . ومن الخطأ هنا أن نعتقد بأن القول بأولوية الحقيقة يعني أنها مستقلة من معرفتها . لأن أي فلسفة « إذا كانت فلسفة لا بد أن تعترف بوجود علاقة بين العارف والمعرف . أن الواقعية لاتعني مجرد انفصال العارف عن المعروف . ولكنها تعني تعريب الوجود من سلطة المعرفة . وشتان بين العنيتين .

● الواقعية في نظورها

وأول صور المذهب الوافقي هو « واقعية السيليكس » وينادى هذا الاتجاه بأن العالم الطبيعي موجود . سواء ركزت عليه حواسنا . أو بخلعنا عنه . فالتأمل في جمال الليل بأمل أن يستمر النجم مثلا فوقه بعد أن يغسق . أو الإنعام والروائح التي لا تسع أو تلم سوف تستمر متسجعة وعطرة من بعد كما كانت من قبل (٣) .

ولنفي الواقعية السيليكس قائلا بأن الانطباعات الحسية التي تعتبر دليلا على وجود الشيء الحسي هي ذاتها أجزاء من ذلك الشيء الحسي مبتدئة في زمان ومكان . ثم أن الأجزاء الأخرى التي تدخل في دائرة العوائق . أي التي لم تلمس أو تلمس . تشترك في الخصائص نفسها التي نجدها في الأجزاء التي ولعت في دائرة الحس . فحينما أتولق قطعة من قطعة الخبز طعمها أن بقية أجزاء الخبز . حتى لو لم أتوّلحها - تشترك في نفس الطعم وبقية الخصائص الحسية .

(١) Pringle Pattison : The Idea of God in the Light of Recent Philosophy p. 200.

(٢) I. Lowenberg. «Problematical Realism» Contem porary American Philosophy vol. II, pp. 55, 56.

(٣) Lotze, Microcosm.

ثانيا : الواقعية التمثيلية .
 جاءت الصورة الأولى من صور الواقعية بسبب بساطتها وبرادتها ونظر التاكيد من حقيقة ماتالي به الحواس . ولستها قبل أن تكون أدت الى ظهور تيار جديد وهو تيار الواقعية التمثيلية .

لقد قلت ان الواقعية نشأت اول ما نشأت في صورة مقاومة للفنعية التي انشبت بها المثالية عند باركلي ، مقاومة لوجهة النظر الثالثة باستناد الحقيقة على العقل ، أي أنها لا تسلم بوحدة العارف والمعرف . وهذا يؤدي بالطبع الى تسليمها بفكرة الإدراج التي امكن ان تؤدي في سهولة ويسر الى اعتبار المعرفة نسخة أخرى لشئ آخر ، وأن واقعية المعرفة وواقعية تمثيلية . ولكن سرعان ماواجه رجلا مثل « ديكارت » و « فولت » و « لينين » مثل هذه الأسئلة : كيف نعرف مثلا ان هناك عالما مستقلا عننا ؟ وكيف نعرف ان افكارنا تعطينا معرفة صحيحة بهذا العالم ؟ كيف نتأكد من ان هذه الافكار نسخ صحيحة للأشياء المستقلة ؟

ولقدت هذه الأسئلة اجابات مختلفة . فإيمان ديكارت مثلا بالواقعية كان يقوم على إيمانه بالخبر عند الله . فاما قد اشترفت بوجود الله ، وأنا أدركه ان الله لا يخدع ولا يهتال ، ويترتب على هذا إيماني بأن معرفتي لا يمكن ان تكون زائفة .

اما فيلسوف مثل لينين فكان يعترف بوجود عالم خارجي ولكنه اعترف بأنه « لا يوجد دليل قاطع على ان الأشياء المحسوسة موجودة خارجي » . ويصر على ان وجود الحسالم وجودي يقوم على بلن خلقي .

ثالثا : الواقعية النقدية

ان الواقعية النقدية ثورة وخروج على واقعية السليقة والواقعية التمثيلية . فالقوة أدب انبج هذا المذهب مسالة حكم او إرجاع الى حكم ، فهي ليست مسألة إيمان بموضوعية صورة العالم المادي ، وليست مسألة إيمان خلقي كما يبدو عند التمثيليين ، ولكنها مسألة إيمان عاقل أو واقعية عاقلة كما يسميها لويس .

رابعا : الواقعية الحديثة

نشأ ذلك الاتجاه مع الفلسفة الألمانية والإنجليز - أمريكية الحديثة . وينظر ذلك الاتجاه في المذهب الواقعي الى مثالية باركلي باعتبارها خصما يجب ان يعاربه ، ألا ان عدوه الأول هو المثالية المتطرفة عند « هيجل » ، ثم عند « برادلي » بعدد ذلك . والفرض الأساسي لهذا الاتجاه الجديد هو ان كل معرفة تعني وجود شئ يعرف ، أي ان عملية المعرفة ذاتها تعني وجود شئ يعرف . ففي كل المعاني التي نقولها ، و في كل تفكيرنا نشير الى موضوع لتفكير باعتبارها مختلفا عن التفكير ذاته . وكل هذا بشكل مالا لمطابقة لاختلافه وانما لتعكسه . لهذا فهو عالم موضوعي محض يختلف عن عالم باركلي الذاتي الخالص . إذن فالذي يحدث هنا ان الواقعية في ثوبها الجديد تدب لذات في الموضوع متجهة في النهاية الى الإيمان بذلك الموضوع على عكس ما يحدث في المثالية المتطرفة عند باركلي حينئذ يذهب الموضوع في الذات متجهة الى الإيمان بالذات .

● التناهي على الواقعية والمثالية وشروطه .

لقد توصل معظم الفلاسفة الى ان كلا من الاتجاهين المثالي والواقعي لا يمكن القضاء عليه او ابادته . ولقد شاهدنا التناهي والتعارفي بين الطرفين . ولكن الحياة ستها خلق المعارضة ثم مصالحتها بعد ذلك . وهذا هو الحال هنا . فحين لا يمكن ان نستغنى عن الواقعية او المثالية ، أنها بما يتصادفهما وتعارضهما ضروريان للحياة الإنسانية فكريا واجتماعيا .. هما متعارضتان ، هذه حقيقة ، ولكنها حقيقة لانني امكانية التوفيق . وحتى يمكن تحقيق ذلك التوفيق لابد ان نهم حقيقة

التعارفي ، والشرايط اللازمة للاستغناء عليه ، وهذه الشروط هي :

أولا : التسليم باستحالة القضاء على أي من الطرفين او استبعاده .

ثانيا : استحالة تأكيد هذين الاتجاهين او فنيهما .

ثالثا : التسليم بأن الصراع بينهما لا يمكن ان يانهى بالوسائل التي يسميها . وبماي ذلك من ضرورة تغيير اتجاهيهما .

● مآراء الواقعية والمثالية : التوفيق بينهما

سبق ان قلنا أنه لا يمكن الاستغناء عن أي من الاتجاهين ، وانهما ضروريان للحياة الإنسانية فكريا واجتماعيا بوان الحياة تعقل المعارضة ثم تصالهما ، أي ان التوفيق بين المذهبين ممكن نظريا وعمليا . وسوف نحاول تحقيق ذلك التوفيق على مستويات ثلاثة .



أولا : المستوى النفسي :

ينظر فيلسوف مثل يونج الى المشكلة قائلا اننا اذا قلنا انظر رائيا موجات من مذهب معين تتقلب على موجات مضادة للمذهب الآخر ، او على تياره بصفة عامة . وليس السبب في ذلك هو القناع انبج المذهب الثاني بصفة المذهب الأول ، بل ان السبب هو تغير الظروف النفسية العظيمة بكل من المذهبين . ويعطي قائلا ان ذلك الصراع الابدي بين المذهبين يرجع الى وجود نظمين من العقل : العقل النشط والعقل المتطوي . فالعقل الأول يحاول ان يذهب المعارف في المعارف ، الذات في الموضوع . اما العقل الآخر يحاول ان يذهب المعارف في المعارف ، الموضوع في الذات ، ثم ان الصراع ينشأ في أعماق اللاشعور . لهذا فان أي محاولة لحل هذه المشكلة على مستوى العقل أو الشعور توهو بالتفصيل . في التوفيق لا يصبح ممكنا الا اذا قلنا اننا لنستوى النفسي .

لكن علم النفس لا يستطيع ان يساعدنا الا في توضيح أسباب ذلك الصراع وتسايله . من هنا تظهر امكانية حل آخر .

ثانيا : المستوى الاجتماعي :

يرى « ويليام جيبس » ان الصراع بين المثالية والواقعية لا أهمية له وأنه يقوم على تعيز أو تعصب أساسي وهو ان المعرفة تعتمد على وجود حقيقة سابقة ، ويرى « جيبس » أننا لو نحينا هذه الفكرة جانباً لأهني الصراع نفسه بنفسه ... واكزف الرجعاتي هنا مغرب الى حد كبير من موقف الناقدة الوضحيين الذين لا يرون أهمية لهذا الصراع .

لكن الرجعاتية بوصفها الراهن لا تعطينا حلا مناسباً ، فهي لا تعطينا حلاً كاملاً بل شبه حل . وعلى كل حال فقد تساعدنا وجهة النظر النفسية في الوصول الى أعماق المشكلة ومصادرها وأسباب الصراع بين الطرفين . وقد تساعدنا وجهة النظر الرجعاتية في معرفة الغزى الاجتماعي والتفاني لهذا الإشفاق ، ولكن التوفيق الكامل يحتاج الى شئ أعمق من كل من علم النفس والنظرة الرجعاتية .

ثالثا : المستوى الفكري النقلي :

وعلى هذا المستوى نستطيع ، رغم معارضة يونج وفلاسفة آخرين ، ان نصل الى تحقيق ذلك التوفيق الكامل بين الاتجاهين . فهو يعني فهم المعارضة التي سماها يونج لنفسه ، وتفهم الاتجاهات التي يسميها الرجعاتية عملية ، وعالم الفيلسوف الا ان يستعنى على المشكلة بتفهمها .

لقد سبق ان قلنا ان المشكلة أساسا جدلية محضة ، ولا يمكن ان يقوم التوفيق بين الاتجاهين المتضامين الا على أساس جدلي محض أيضا .

في تحقيق التراث



تحقيق : حسن كامل الصيرفي

نقد وتعليق : عبد السلام هارون

- ٤ -

٨٧ - ص ٢٥٧ البيت ١٧ :

مُلِطٌ. بالطريق وليس يُصْنِى

لأنجبة الطريق ولا يُجِيبُ

جاء في تفسيره : «ملط. من أَلَطَ قبره ،

أى لَزَقَه بالأرض» . وهذا التفسير من

القاموس ، وصواب نصه «أَلَزَقَه» . وإذا

صح هذا المعنى مرادا للبحترى يجب أن

يفضبط. «ملطٌ» بفتح اللام لا بكسرها .

عل أننى أشتى أن يكون في بعض نسخ

الديوان «مُلِطٌ» من الإلفاظ ، وهو اللزوم

والإقامة . يقال : أَلَطَ بالمكان وأَلَطَ عليه :

أقام . وكثيرا ما توصف القبور وسكانها
بالإقامة ، لأنها لا تفارق مكانها . ومن ذلك

قول متمم بن نويرة :

فقال أنبى كل قبر رأيتَه

لقبر نوى بين اللوى والدكادك

وقول بعض بنى أسدى الحماسة ٨٦٥ بشرح

المرزوق :

بكى على قتل الودان فأنهم

طلالت إقامتهم ببطن برام

وقول النابغة في الحماسة بشرح المرزوق ٩٠ :

بعد ابن عاتكة الثاوى على أبوى

أسمى ببلد لا عم ولا خالو

وقول فراد بن خويمة في الحماسة ١٠٠٥ :

وَأَلَيْتَ لى زوداء يُسْنَى ثرابها

عَلَى ، طويلا في ثراها إقامتى

٨٨ - ص ٢٦٠ البيت ٤ :

نشدتكما الله أن تدفعا

ذمى ، وأن نندسيا واجى

وقسره الشارح بقوله : «وأن نندسيا بمعنى

أَلَا ، إذ يجوز حذف لا» . وهذا تفسير

صحيح وواجب ، ولكن كان من الأولى أن

يوجه هذا التفسير إلى قوله «أن تدفعا» ،

لأنها هى السابقة ، ومعناها حلى حلف «لا»

أيضا ، أى أن لا تدفعا ذمى . ويكون في

تفسيرها اكتفاء عن تفسير تاليتها ، لأن

المعطوف يتبع المعطوف عليه لا العكس .

وذكر صاحب المغنى ٢ : ١٧١ أن حذف
« لا الناقية » يعارض في جواب القسم إذا كان
المنفي مضارعاً نحو « تالله تفنن تذكر يوسف »
ويقل مع الماضي . ونشدتك هنا بمعنى سألتك
بالله واستحلفتك به .

٨٩ - ص ٢٦١ البيت ٢ :

وأيام الشباب معقبات

على إبداء آثام المشيب

وتبلىه :

أمرود لنا زمن الكتيب

وغرة ذلك الرش الربيب

وصوابه « معقبات » بالنصب على الحال

وبكسر القاف المشددة لا فتحها ؛ فليس

« أيام الشباب معقبات » كلاً ما مستأنف ؛

ولما « أيام » معطوفة بالرفع على « غرة » ؛

و« معقبات » في موضع الحال منها لامرفوعة

على الخبر .

والمعقبات ، بكسر القاف المشددة :

التاليات . يقال : ذهب فلان وعقب فلان

بعده ، كما يقال عقب عليه : كثر ورجع .

وفى التنزيل العزيز : « ولئى مذبذباً ولم يعقب »

وعقب تعقباً ، إذا أغبر عليه فحرب - أى

سلب ماله - فأغار على الذى كان أغار عليه

فاسترد ماله .

فهذا هذا . وأما « إبداء » فصوابها « أبداء »

بفتح الهمزة ، وهو جمع بدو . وأبداء من

لغة البحترى ، انظره يقول فى ديوانه ٢٧٩ :

مثل ابن بسطام الذى شرقت

أبداءه ثم تمنت عقه

والأبداء : الأوائل كما رأيت ، يعنى

جدوده . وآثام المشيب ، منها بياض الرأس ،

والضعف ، وهن الجسد .

٩٠ - ص ٢٦١ البيت ٣ :

إذا ابتسمت تلاق عارضها

على ضرب يصفق فى ضرب

وقال الشارح : « يصفق : يحول الشراب

من إنا إلى غيره ليصفو » . وهذا التفسير هو

الذى اقتصر عليه صاحب القاموس . ولكن

المراد بالتصفيق هنا المزج ، كما فى اللسان .

وبه قس قولك حسان المشهور :

يسقون من ورد البريص عليهم

بردى يصفق بالرحيق السلسلي

ونحوه قول المرار فى المفضليات ص ٩٠ :

لو تطعمت به شبهته

عسلاً شيب به ثلج خصر

وليس يصح معنى التحويل فى مثل قول

حسان ومثل قول البحترى . فالمراد فى قول

البحترى أن رضاها كآته العسل ممزوجاً

بالضرب ، أى الثلج . وفى قول حسان :

يسقونهم ماء بردى ممزوجاً بالرحيق السلسلي .

ولا تحويل من إنا إلى إنا فيها كما رأيت .

٩١ - ص ٢٦١ البيت ٤ :

«قَيُّ يُوْشِكُ غُرُوبُ الشَّمْسِ يُرَدِّدُ

سَنَاهَا مِنْ سَنَاتِكَ الْغُرُوبِ

وقبله :

إِذَا ابْتَسَمْتَ تَأَلَّقَ عَارِضَاهَا

عَلَى ضَرْبٍ يَصْفَقُ فِي ضَرْبٍ

فُسِّرَتْ «الغروب» الأخيرة بأنها الدموع ،

مع أنه لم يسبق لها ذكر ، كما أن الجوكلة

جو ابتسام وفرح وبشر . ولم نجد من

نعراه العرب من يجعل الدموع مثلاً في

الإضاءة والإشراق . وإنما العرب ها هنا

غروب الأسنان ، وهي ماؤها ولعائها ، وهو

المثل المعروف في الإضاءة والإشراق . ومنه

قول سويد بن أبي كاهل في المفضليات ١٩١ :

حُرَّةٌ نَجَلُو شَتِيئًا وَاضْطَحَا

كُشْعَاعُ الشَّمْسِ فِي الذِّيمِ سَطَحَ

يعنى ثغرها تجلوه بالسواك . وقال آخر :

أَحَازِرُ فِي الظُّلُمَاءِ أَنْ يَسْتَشْفَى

فَيُؤْنِ الْيَارَى فِي مَبْضِ الْمَضَاحِكِ

وقال غيره :

كَأَنَّ ابْتِسَامَ الْبَرْقِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

إِذَا لَاحَ فِي بَعْضِ الْبُيُوتِ ابْتِسَامُهَا

٩٢ - ص ٢٦٢ البيت ١١ :

إِلَى ابْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ اسْتَقَلَّتْ

بَنَا قَصْدَ الشَّرَى ، مَيْلُ السُّرُوبِ

وفي تفسيره : «السروب» : ذهاب الرجل

على وجهه وتوجه الإبل للرعى ، وصوابه

«مَيْلُ السُّرُوبِ» ، بدليل قوله «استقلت» ،

أَيِ ارْتَحَلَتْ . والميل ، بالكسر : جمع آيل

وميلاء . والميلاء من الإبل : المائلة السنام ،

كما في اللسان . والسُّرُوبُ : جمع سرب

بالفتح ، وهي الإبل . وفي اللسان : «السرب :

المال الراعى ، أعنى بالمال الإبل . وقال

ابن الأعرابي : السُّرْبُ الماشية كلها . وجمع

كل ذلك سُرُوبٌ . وفي القاموس : «السُّرْبُ :

الماشية كلها» . فالمراد بالقصد الإرادة ،

وإن كان ظاهر لفظها يوحي بالقصد بمعنى

الاستقامة ، ليشاكل في الصنعة بين

الاستقامة والميل .

٩٣ - ص ٢٦٢ البيت ١٥ ، ١٦ :

وَكَانَ ، وَكَانَتْ ، وَالْحَالَانِ شَتَّى

بِمَنْشَرٍ بِالْإِثَابَةِ أَوْ مَنِيبٍ

غَرِيبٌ سَجِيَّةٌ ، وَغَرِيبٌ أَرْضٌ

فما أكلدى الغريبُ على الغريبِ

وصواب «مَنِيب» هو «مَنِيب» كما هو

ظاهر . فالمَنِيبُ بِالْإِثَابَةِ هو البحتري ،

والمَنِيبُ الذي أثنى عليه هو المملوح .

وصواب ضبط «غريب» هو «غَرِيبٌ»

بالتنصب في الموضعين على الخبر لكان وكنت

في البيت قبله . فكان المملوح غريباً في

سجاياء التي لا يدانيه فيها غيره في كرمه

وجوده ، وكان المملوح غريباً عن أرضه وأهله .

له في مارج النار انتساب
بأفان نقيبات الجيوب
سراة الإنس والجنان أدت
إلى «جودرز» نجنتها و«بيب»
و«جودرز» و«بيب» : جدان من
أجداد المدوح . وصواب «نجنتها» هو
«نجنتها» بالنصب ، أى أدت إليهما
النجدة والشجاعة والمضى ، أى أورثتهما
نهما ذلك .

٩٥ - ص ٢٦٤ البيت ٣ يقول لصديق له جفا
وتغير عليه :

زرت رفها فخلق الوصل بالوص
لى كما يخلق الرداء الشباب
وفسر «الرف» بأنه «الرف» العيش وطيبه ،
وأى معنى فى هذا يناسب الجفاء والتغير
والاستغناء ؟ وإنما تستوجب الصداقة
طول الزيارة والحرص على المطاولة فيها . وأصل
الرفه أقصر الورد وأسرع ، يقال : شريت
الإبل رفها ، أى شربا قصيرا ، قال لبيد
يصف نخلا نابتة على الماء :

يشربن رفها عراكا غير صادية
فكلها كارع فى الماء مغمر
أى يشربن قليلا قليلا لاستغنائهن عن
الماء لنابتها عليه . وجاء فى قول الحترى فى
سينيته المشهورة :

وبعبد ما بين وارى رفس

عَلَى شربه ووارى خميس
ووارد الخمس يشرب كثيرا لشدة عطشه
بعد أيامه الثلاثة التى انقضت بعد شرب
اليوم الأول ، ولينزود فى يومه الخامس لما
يستقبل من الأيام .

٩٦ - ص ٢٦٦ البيت ٧ فى مدح رجل :

أبيض لاقوله بمقتله أينما ولا يله بمجنوب
جاء فى تفسيره : «المقتل» : المحتبس .
والمجنوب : المبعد . وليس أحد هذين
المتعينين مرادا ، وإنما المقتل المركوب ، يقال
اقتل الدابة ونحوها : اتخلها مركبا له .
وأما المجنوب فهو الدابة التى تساق إلى
جميع الركاب . وهذا كناية بارعة عن
سرعة قول المدوح وفله ، بحيث لا يستطاع
اللاحق بهما فركبا أو يجنبا .

٩٧ - ص ٢٦٨ فى ديباجة القصيدة رقم ٩٠ :
«وقال يمازح أبا عمران الحلبي ، وكان
مضيا إلى رجل من الراوذة فى قطعة الربيع
فاحتبسهما» .
صوابه «وكانا مضيا» .

٩٨ - ص ٢٧٥ البيت ١٣ :

فداؤك مكرِف من آل زيد
مؤى الخير مُقتبل الشباب
ووجهه «مقتبل الشباب» بالرفع ، لثم
المقابلة بين التوى والإقبال . والنصب على

الظرفية ، أى فى اقتبال شيا به لا بأس به أيضا ، فالأولى أن يضبط. بالوجهين أو يهمل الضبط ، دفعا للتحكم فى النص .

١٠٠ - ص ٢٧٥ البيت ١٥ وهو بيت فيه فحش أضربت عن إيراد هـ ، ولكن جاء فى تفسير « الترائب » فيه أن التريبة « العظمة من الصدر وأعلاه » . ولم ترد « العظمة » بمعنى الواحدة من العظم فى معاجم اللغة صئيرها وكبيرها ، قديمها ومحدثها ، وإنما يقال « العظم » للواحد والجمع ، فهو اسم جنس كالتراب لا يقال فى واحد ترابة . وانظر المعجم الوسيط .

١٠١ - ص ٢٧٦ البيت الثانى . وردت الكلمة الأولى فيه ناقصة النون المفتوحة فى أولها !

١٠٢ - ص ٢٧٩ البيت ٢٦ :
ينقاد طوعا له إذا حشدت
عليه تلك الأشياء تجذبه
ولا أدري معنى للأشياء . وجاء فى الحاشية أنها فى نسخة « الأشياء » . وهذا هو المتعين فى النص ، كما فى طبعة مصر .

١٠٣ - ص ٢٧٩ البيت ٢٩ :
من يتصرع فى إثر مكربة
فدأبه فى ابتغالها دأبه

وفى التفسير : « يتصرع : يتواضع » .
وصواب لفظهما « يتصرع » بالضاد المعجمة .
وتفسير التصرع بالتواضع لم يقل به أحد ،

وإنما التصرع التذلل والتعرض لطلب الحاجة ، والمبالغة فى السؤال والرغبة ، كما فى اللسان والقاموس . وفى الكتاب العزيز : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » وفى الحديث : « خرج متبذلا متضرعا » .

١٠٤ - ص ٢٨١ البيت ٤٩ :

يتبع تأميله الثراء كما
أتبع غزرا من ديمة عُسبه
فالعشب الناجم عن غز الديمة وكثرة
وبلها مقابل للثراء الناجم عن تأميل الممدوح ،
فغز الديمة وتأيل الممدوح كلاهما سريع
فى إحداث أثره . وفى الكتاب العزيز من

صورة ذلك : « فإذا انزلنا عليها الماء اهتزت
وربت وأنتجت من كل زوج بهيج » . فكان
ينبئ توحيد الفعلين فى الضبط ، فيقال
فى الأول « يتبع » من أنبأ بمعنى تبأ وأدركه
وليس هذا الضبط . بعرب على لغة العرب ،
فهو ظاهر فى عجز بيت البحتري نفسه ،
ومنه قوله تعالى : « فأتبعه شهاب ثاقب » ،
أى تبعه فأدركه ، ومثله « ثم أتبع سببا »

١٠٥ - ص ٢٨٢ فى « دباجة القصيدة » « مدح أبو
صالح » وهى « أبا صالح » .

١٠٦ - ص ٢٩٠ البيت ١٢ :

غضبان تجل عن وقائع سيفه
عكرات حُمين فى الحديد غضاب

أما «تجلى» فصوابها «تُجلى» من الإجلال .
وقد فسرت «العكرات» بأنها «الكُرَات» في
الحرب بعد القرار . والأوفق أن تفسر
العكرات بالجماعات العظيمة . وأصل العكرة
القطيع الضخم من الإبل ، والعرب تشبّه
الأبطال بالفحول ، ومنه قول ربيعة بن
مقوم في المفضليات ١٨٣ :

بنو الحرب يوماً إذا استلأوا

حسبتهم في الحديد القروما
جمع قرم ، وهو الفحل من الإبل . وقول
عمرو بن الأسود في الأصمعيات ٧٩ :

والجمع من دُهلٍ كأن زُهاءهم

جُربُ الجمال يقودها ابنا شُعم
وفي حديث الحارث بن الصمت : وعليه
عَكَر من المشركين قال في اللسان : «أى
جماعة» .

و«حُميس» صوابها «حُميس» بالثنونين .

١٠٧ - ص ٢٩١ البيت ١٩ :

وأبيت إعطاء الدنيئة دونهم
إِنَّ الْأَبَى لَأَنْ يُعِيرَ آبِ
والمألو في «الدنيئة» أن يقال بالتسهيل ،
«أى الدنيئة» ، ولم تقع عيني عليها فيما
قرأت في مثل هذا الأسلوب إلا مسهلة ،
ومن أقدم نصوصها حديث الحنظلية :
«علام تعطى الدنيئة في ديننا» ، «أى الخصلة
المذمومة . على أنها وردت بالتسهيل في طبعة

مصر من الديوان . وكان ينبغي أن ينبّه
على روايتها في نسخ الديوان .
١٠٨ - ص ٢٩٢ البيت ٣٠ :

شهنته يومَ الهُنْدُوَان ولم تكن

لتبيعه باليوم في دولاب
وجاء في تفسيره : «الهندوان : السيف
الهندواني المنسوب إلى الهند ، وهى نسبة
شاذة . والهندوان : نهر بين خوزستان
وأرجان» .

ولم أجد أحداً يقول إن الهندوان هو
السيف الهندوانى ، ولا علاقة بين الكلمتين ،
كما أنه لا وجه لإثبات صدر هذا الكلام
على افتراض صحته ، لأن كلمة «الهندوان»
في بيت البحترى لا تعنى إلا هذا النهر
الذى بين خوزستان وأرجان . ثم إن الأصح
في ضبط اسم هذا النهر هو «هِنْدُوَان»
بكسر الهاء لا بضمها كما ذكر صاحب
القاموس ، فإن ياقوتاً ، وهو البلداني الجحّة ،
أوردها بعد «هِنْدَمَنْد» التى نص على كسر
هائها ، ثم أورد «هِنْدُوَان» وقال «بضم
الدال وآخره نون» فاكفى بضمها . الهاء في
السابقة عن ضبطها في اللاحقة ، كما هو
حايه ، ثم أورد بدمها «هِنْدِيْجَان»
و«هِنْدِيْط» كلاهما بكسر الهاء .

١٠٩ - ص ٢٩٤ البيت ٧ :

رفعت من السجف المنيّف ، وسلّمتْ
بأنامل فيهنّ دُرُسُ خِضَابِ

جاء في تفسيره : «الدرس : الطريق الخفي» . وليس من هذا مأخذه ، وإنما أصله من الدرس والدرس ، بمعنى الثوب الخلق . أي سلّمت بأنامل فيهن بقايا خضاب قد درس وأخلق كما يخلق الثوب ، وهو كما يقولون من إضافة الصفة إلى الموصوف .

١١٠ - ص ٢٩٥ البيت ١٧ :

نَصَرَ السَّحَابُ عَلَى التَّلَادِ وَلَمْ يَقِفْ
دُونَ الْمَكَارِمِ وَقَفَّةَ الْمَرْتَابِ
ووجه ضبطه «وقفّة المرتاب» بكسر الواو على إرادة الهيئة لا المرة .

١١١ - ص ٢٩٧ البيت ٣٢ :

فَكَأَنَّمَا الْبَحْرُ اسْتَجَاشَ بِحِمْلِهِ
فَقَضَى بِهَا أَرْبَابَ الْأَرَابِ
وواضح سقوط : «من» قبل «الأرابع» .

١١٢ - ص ٣٠١ البيت الأول :

يَا أُنْتَا أَبْصَرْتَنِي رَاكِبُ
يسير في مُسَحْنَفٍ لَاحِبٍ

ولست أذكر هذا البيت لأنّص على خطأ فيه ، بل لأعزز صواب ضبطه ، أعني ضبط «راكب» بمنع التنوين ، بناءً على أنّ البيت مصرّع تبعث فيه العروض الضرب . والتصريح : جعل عروض البيت في مثل وزن ضربه وقافيته . ويقع فيه من الإقواء والإكفاء والإبطاء والسناد والتضمين ما يقع في القافية ، كما في العمدة لابن رشيق ١ : ١١٦ .

ويجب في عروض البيت المصرّع أن تمنع من التنوين ، كما في قول امرئ القيس :
قفانبك من ذكرى حبيب ومنزّل
بمسقط اللوى بين الدخول فحوّل

وبيت البحتري هذا فيه مع التصريح
إقواء باختلاف الحركات ، ونظيره من
المصرّع الذي فيه إقواء ما أنشدته الزجاجي
من قول بعضهم :

ما بال عينك منها الدمع مُهراقُ
سحاً فلا غارب منها ولا راقي

(للتقد والتأليق بقية)





المكتبة العربية

كارل ياسبر مستقبل الإنسان ترجمة وتقديم د. عثمان أمين

لقد كان الفيلسوف الألماني وليم جيمس يعد الفلسفة مسألة مزاج شخصي ، فكان يقسم الفلسفة إلى طائفتين : طائفة تتمتع بمزاج رقيق ، وأصحابها هم ذور الروحانيين ، وأخرى تتمتع بمزاج خشن ، وأصحابها هم ذور الماديين . والفلسفة الأولى من الفلسفة تعيل إلى التوكل بالخالق ، والروحية والتأني ، والوحدانية ، والفضيلة ، والحرية ، والتفاهل ، في حين تنزع الطائفة الثانية نحو الأخذ بالواقعية ، والمادية ، والإنهاد والتمدد ، والشك ، والجبرية ، والتشاؤم . وقد أطلق الدكتور عثمان أمين على الاتجاه الأول منهما اسم « النزعة الجوانية » بينما سعى الاتجاه الثاني باسم « النزعة البرانية » . وهذه التسمية تستند أساساً إلى لفظة جوهرية بين « البسطن » و « الظاهر » ، أو بين « الجوهر » و « المظهر » ، فهي تنطلق على الفيلسوف الذي ينظر إلى الناس والموضوعات بميرون الروح ، أمضى ذلك الذي يشارك فيها ويمانيبها من الداخل ، اسم « الفيلسوف الجواني » ، بينما تنطلق على الفيلسوف الذي يقتصر على النظر إلى الناس والموضوعات بميرون الجسم فيشاهدنا من الخارج ، وكأنه يتفرج عليها ، اسم « الفيلسوف البراني » . ولم يكن بعدما أن ينتجه الدكتور عثمان أمين - وهو الداعية الأولى للجوانية عثمان في الشرق العربي - نحو أصحاب الزجج الرقيق من لاسلة العرب ، فكان من ذلك اهتمامه بالأفلاطون والمغرابين والفرازي وديكارت وكانت ونشته وبرجسون ومحمد البقال ، ومحمد عبده ، وكارل يسبرز ... الخ .

ولئن كان كتاب يسبرز الذي يقدمه اليوم لقراء العربية والد « الجوانية » في الجمهورية العربية المتحدة ، هو مجرد رسالة صغيرة كانت في الأصل محاضرة عامة ألقاها يسبرز في ألمانيا سنة

١٩٥٧ ، إلا أن الدكتور عثمان أمين قد قدم لهذه الرسالة بدراسة قيمة من فلسفة يسبرز وتطوره الفكري ، كما قدم لها ايضاً ترجمة أخرى لفصل هام من فصول كتاب يسبرز المسمى باسم « الإيمان الفلسفي » . نرجو أن أتبع الدكتور عثمان أمين هذه الترجمة التي قام بها لرسالة يسبرز عن مستقبل الإنسانية ، (١) بترجمة أخرى لكتابه « الإيمان الفلسفي » ، أو « المدخل إلى الفلسفة » أو غيرها من دوائج إنتاج الفيلسوف الألماني الكبير . ويكفي أن يقرأ المرء هذه الترجمة المشرقة السلسة التي وضعها بين أيدينا الدكتور عثمان أمين لكتابات يسبرز الصغيرة المطفة ، لكي يطمح في أن يوجد علينا الأستاذ المترجم بترجمات أخرى ليسبرز في مثل هذه النضاعة والرصانة والاشراق . ونحن على ثقة من أن الدكتور عثمان أمين سوف يجعل هذه الأمانة ، بما عرف عنه من دقة ونزاهة وإمانة علمية .

وقد استهل الأستاذ المترجم تقديمه للكتاب بكلمة قصيرة عن يسبرز قال فيها : « أن كارل يسبرز رسول من رسائل الزماني الإنساني ، ومفكر من مفكري الجوانية المفتوحة ، ورائد من رواد الحرية المستتيرة ، وقف في وجه الظلمين دائماً عن كرامة الإنسان ، متديداً بفلال العصر ، مجاهداً في سبيل السلام . » (ص ٧) . وهذه الأوصاف العديدة التي ينسبها الأستاذ المترجم إلى كارل يسبرز إنما تلخص على أحسن وجه شتى السمات الروحية التي اتسم بها صاحب الكتاب ، فإن فلسفة يسبرز هي بحق « فلسفة حرية » وإنسانية ، ووعي أصيل . ، والدكتور عثمان أمين حرص على العرض على الكشف عما في فلسفة يسبرز

(١) ملزم النشر « مدار التوعية للطباعة والنشر » ١٩٦٣
١٣٥ صفحة من المطبع الصغير .

من طابع «مفتوح» ، ففراء يدرجها في عداد الفلسفات «المتفتحة» على المعنى الذي مناه برجونو ، وذلك لأنه قد لاحظ أن فوالم هذه الفلسفة هو الأفكار الخاتمية والفروض الخفية ، في حين أن موضوعها هو الأحداث الجارية والتجارب الواقعية . ولئن كان يسيرر لم يصرح بآية نزع دينية واضحة للعالم ، إلا أن الدكتور المترجم يرى في فلسفته ادعاءا لفلسفة دينية معينة ، تعتمد على تجربة روحية زاخرة ، وتلغى إلى الإيمان بحرية الإنسان ، وفردته على أن يواجه حاسي الحياة في أمل وإشراق . وليس معنى هذا أن الاستناد المترجم يجعل أن كارل يسيرر قدرفض الفوضو للقلق أو الإعلان لسلطة الكنيسة ، وإنما كل ما هنالك أنه يرى في هذا الإيمان الفلسفي الذي اعتنقه يسيرر أعلى صورة من صور التجربة الدينية .

وبحاول الدكتور عثمان أمين أن يبرز لنا الجانب الديني من جواب تكثير كارل يسيرر ، ففراء يقول أن فيلسوفنا لم يلق مند «الوجود العيني» - كما فعل غيره من الوجوديين المعاصرين - بل هو قد امتد نحو وجود آخر متمايز من هذا الوجود العيني كل التمايز ، فأنه أن هناك حقيقة متماثلة مجاورة له لتسامم الجايزة ، وذلك هي ما سماه يسيرر نفسه باسم «التصالي» (أي الله سبحانه) . وإذا كان يسيرر قد تار على فلسفته من أمثال كارل ماركس وغيره من اللادين ، فذلك لأن هؤلاء الفلاسفة قد افطنوا إلى أن الإنسان على نفسه ، دون أن يتخطوا أمام الإنسان لفرة كجايزة هذا الوجود العيني . وأما هو فاته يعطونا إلى تجاوز «الزمانى» «تتعلق نحو» «الأبدى» ، كما يجب بنا أن نقف بالمقل ونؤمن بالقيم ، وهو حين يتحدث عن «تقيس» الإنسان ، فإنه يعنى بذلك تطبيق سره ، وتوليد كربه ، وتحويل مقامه من «الغربة» إلى «الخلوة» ، ومن الوجود الزائف إلى الوجود الأصيل . وهذا ما عبر عنه يسيرر نفسه في كتابه الإيمان الفلسفي عندما راج يقول : «أنا نريد أن نتوصل إلى بقاء شيء أبدي ، حتى في أشجع فروب فيلسو وألدهار .. وفي اليأس والفراخ ، نريد أن نأمل أصل الإنسان» . وربما كان من بين الأسباب التي حدث بكارل يسيرر إلى الاعتراض على تسمية فلسفته باسم «الوجودية» ، حرصه على التمييز بين نزته الروحية المتفتحة ، وبين شتى النزعات الاجتماعية الضيقة التي تصب لها بعض دعاة الوجودية في ألمانيا وفرنسا على السواء .

ثم يحاول الدكتور عثمان أمين أن يكشف لنا عن مصاليم الجوانية في فلسفة كارل يسيرر ، ففراء يهتم بتعدد موقف الفيلسوف الثاني الكبير من كل من ماركس وفرويد ، حتى يبين توكايد أن الذات الإنسانية في نظره هي شيء أكثر من مجرد «موضوع» ، وكيف أن لمة حقيقة هيا فوق الإنسان تلو على المجتمع والتاريخ نفسه . والواقع أن النزعتين الماركسية والفرويدية قد استجتمتا من العالم كل ما هو «غيبى» ، كما تهما الفيلسوفات القيم الروحية التي تبرز نحوها الإنسان . ولعل هذا ما عبر عنه يسيرر حينما كتب يقول : «في عالم محروم من الله ، ظهر كارس ماركس نبيا ، وانتقد القلوب التي يستطير هذا العالم أن يقتح بها وإن يهمل بها . ونصب ماركس نفسه بشيرا يعلم ليس هو بالعلم ، وحاكما بامر ، لا يتكلم باسم الله ، بل باسم التاريخ كواقف عليه .» وعلى الرغم من أن كارل يسيرر قد اشتغل بالطراح النفساني حينما من الزمن ، ففلاعل أن قد قدم لنا كتابا معتبرا في علم النفس المرحي أمام ظهر سنة ١٩١٣ ، إلا أننا نراه يحكم على النزعة الفرويدية باسم القيم الإنسانية الروحية

فيقول : « من الممكن أن نلاحظ أن الناس - في عالمنا المتقرب هذا قد أحسوا حاجة شديدة إلى التحرر . وجاء التبريل التفتاني فزودهم بذلك الوهم ، وكان مغناط خداع ذلك العالم ذاته ... أنا هنا يصعد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتي ، الذي هو نتاج صادق لهذا العصر المتقرب ، والذي يسير جنيا إلى جنب مع أساليب السحر والتعاويد التي استولت على عقل الناس ...» . وربما كان السبب في حمة يسيرر على كل من الماركسية والفرويدية - فيما يقول الدكتور عثمان أمين - اهتمامه بالعودة إلى التقى الجوانى ، أو حرصه على تجاوز كل مصرفة موضوعية ، من أجل الإزعا إلى تلك الطبيعة الإصيلة التي تتبع منها الأفكار والفتا على السواء ، ألا وهي تلك العربة الوجودية التي تلت بالضرورة من طائلة كل معرفة موضوعية - ولد انط يسيرر موقفه من كل من النزعتين الماركسية والفرويدية شيئا كتب يقول : « من أن ندركه في التماثل الميتافيزيقي والفلسفة الروحية ، تلك التي ترفضنا فوق أنفسنا في معيشتنا اليومية ، لا ينبغي أن يتعالت أوتفائل ، كما أنه لا ينبغي أن يأخذ أهمية المعرفة التجريبية حين يفسرنا العقل إلى امتحان قيمته ... وينبغي أن يظل مطلبنا الأساسي أن ننبين هل الصافي أنفسنا أو العربة أوأطالها ، وهل زكينا في حيلانتا كنوز الجوانية بدناها .» (ص ١٥ من الترجمة العربية) . وهيكذا نرى أن «خلاص» الإنسان رهن بفرغته الصادقة في إعادة الحياة إلى ذلك البشوع الصلى الذي يكن في أعالي وجوده ، ألا وهو «أصله الروحي» الذي تميز عنه تلك العربة الوجودية .. ولن يتسنى لنا أن نصنع حياتنا بصيلة روحية ، اللهم إلا إذا أطينا على عقائنا أن نضع حدا لما في وجودنا من تشبث ، ونوزع ، وفلفة ، لكي نرتد إلى ذواتنا من أجل تطهريس عملية «الاستجماع الذاتي» ، والى حين نصب أنفسنا أن نتصق لخوانا ، وأن نسيرفرو امكانياتنا ، وأن تكشف في أنفسنا ذلك «الفتالى» الذي نحن في حوار مستمر معه .

ثم يعنى الدكتور عثمان أمين في العديت عن السميمات الجوانية الكثيرة لفلسفة يسيرر ، ففراء يقول أن الفيلسوف الروحي هو «العامل الفيلس» في كل مجال من مجالات النشاط الإنسانى ، اجتماعيا كان أم اقتصاديا أم قانونيا أم سياسيا أم غير ذلك ، وبغير يسيرر مثلا لذلك فيقول أنه لا سبيل لنا إلى حل مشكلة العلاقة بين الحرية والسلطة ، اللهم إلا إذا لغرنا إلى هذه المشكلة نظرة جوانية عميقة ، بحيث نتجاوز المعنى السطحي الظاهرى لكل من الحرية والسلطة ، من أجل التخل إلى حيلنتهما الوجودية الجوهرية . ثم يصرح الدكتور عثمان أمين على موقف يسيرر من العلم ، فيقول أن فيلسوفنا ليس من المتناولين للعلم أو التكنيكن في قيمته ، خصوصا وأنه هو نفسه قد شارك في العلم مشاركة فعالة قبل الاشتغال بالفلسفة . ولكن يسيرر مع ذلك قد نصب نفسه خصما لتلك «المعرفة العلمية» التي اتسمها

بعض التمحسين للعلم ممن ولقى قهره أنه قد أصبح في وسع العلم أن ينظم المجتمع تقائيا آليا ، وأنه لم تعد بنا أدنى حاجة إلى أى مبدأ طوى يتجاوز نطاق الطبيعة ، أو يطلو على تقيمتنا العلمية الآلية . ومن هنا فقد اهتم يسيرر ببيان خطأ تلك النزعة الوضعية التي راحت ترد كل شيء إلى وفان محصنة تحميها دليقا ، متكرة كل ما وراء ذلك ... واعتراض يسيرر على هذه النزعة قائم على اعتقاده بأن الوجود الشهود لا يمكن أن يستوعب كل الوجود ، فإن من الموجودات ما لا تبلغه المعرفة العلمية ، فضلا عن أن العلم لا يكتفل بتفسير «القيم» ، ولا ينهى بالكشف

عن معنى « العلم » نفسه ؛ وحتى لو افترضنا أن العلم قد استطاع أن يفسر التكون كله ، فستظل هناك أشياء أخرى لن يكون له قبل تفسيرها ، وهي الشخص العالم نفسه ؛ فإن العالم لا يستطيع أن يفسر - علميا - ما لديه من رغبة في المعرفة ونزوع نحو الحق . وقد يقال أن العلم يعطينا « واقع » ، ولكن ياسيرز ينسبه المبروفين في هذا الاتجاه ... إلى أن إيماني المأدبة إنما يعتمد على المفاهيم التي يصنعها الإنسان ، كما يعتمد على وضع الإنسان نفسه في المكان ، وإن كل « واقعة عقلية » تصنف نظريات ، وإن العلوم مجزأة ، وكل علم يعتمد على « مسلمة » أو مبادئ أولية لا يمكن إثباتها ... » (ص ١٨ - ١٩) ... وفصاري القول أنه وإن كان للعلوم في تفكير ياسيرز مكان ملحوظ ، إلا أننا نراه يفسر نظرية العلوم تفسيراً آخر أعمق بكثير من تفسيرات « الوضعيين » و « الجدليين » ، إذ يجده يحاول أن يستشف الفلسفة السكنتية في العلم في فريضة نمو « فلسفة العلوم » ، « لا نحو « فلسفة علمية » كما لاحك الدكتور عثمان أمين يحيى .

ونختل الأستاذ المترجم بهذا كل في دراسة موقف ياسيرز من أزمنة الإنسان المعاصر ، فيصف لنا ظروف الصراع التي يطأها الناس في الآونة المعاصرة ، ثم يحاول أن يحدد لنا موقف الفلسفة - في رأي ياسيرز - من أزمنة الإنسان المعاصر وهنا يبين لنسبا ياسيرز أن على الفيلسوف في القرن العشرين أن يعين الإنسان على تحقيق ذاته ، واستكمال هيرته ، واكتساب كبريائه من الوجود الأصلي . . . وليس في وضع الإنسان المعاصر أن يكون حراً بمعنى الكلمة ، اللهم إلا في وسط حريات الآخرين ، فإن الحياة الإنسانية الصحيحة لاتقوم إلا في « تواصل » مع الآخرين . ولم يبق في يال الدكتور المترجم أن يؤكد ما لتفريق « التواصل » من أهمية في تأكيد ياسيرز ، ففراء يبين لنا كيف أن « التواصل » متغى في مناحي الكشف عن « الإنية » أو الذات الحقيقية ، من خلال علاقاتها مع الذات الأخرى ، وكيف أنه أشبه ما يكون بصراع ودي - على حد تعبير ياسيرز نفسه - معذرة المتناظر والحياة . فليس الزاد من التواصل أرواء فرقة الاستطلاع أو السيادة أو الانتصار ، بل الزاد منه هو تحقيق ضرب من المشاركة بين الأفران بأن يوسع الواحد منهم كل ما يملك في خدمة الغير . وقد يتجلى التواصل أيضا في القيادة الروحية السديدة من حيث هي أرواد واخسان ، وموصولة ، كما يتجلى في الكناشنة الحرة متى توافر فيها حسن التفاهم وصدق النية . . .

يبد أن ياسيرز - الذي عانى من ويلات النازية في ألمانيا ما عانى - لم يستطع أن يخلق مكتوف اليدين من أزمنة الإنسان المعاصر ، فام يكن فرياً عليه أن يفسح مجالات المفكرين من دماء العروب ، وأن يندد بشناعة انصرافات التي يقدم عليها بعض الساسة من أصحاب الطامع . ومن هنا فقد راح ياسيرز يبحث عن مصير الشخصية الإنسانية ، ملتصبا السبيل الأمثل ليعاقل القصور العالي ، ولم يكن بد له من أن يلق ناقوس الخطر محطرا سياسة العالم وعلماده من ووابل الاسترسال في انتاج القنابل الذرية ، وتأسيس القواعد العسكرية ، والتسابق في مسيحات الخراب والتدمير ، وكارل ياسيرز يبيح بكل عالم ويسلمى أن يتجه إلى قلبه أولا ، فيعمل على تغيير ما بنفسه ، حتى يتسرب له تغيير العالم من حوله ، مؤكداً أن هذا التغيير « الجواني » هو وحده الأمر الذي يستطيع أن يذفع الكارثة تنسا . (ص ٢٤) .

ويقدم ياسيرز مقترحات محددة لتحقيق أمل الإنسانية في السلام ، فيدعو إلى إنشاء رقابة مشتركة على الأسلحة الذرية لمهييئها لافتائها الفاء تاما ، كما ينادي بالتنازل عن مبدأ السيادة المطلقة لكل دولة ، لمهييئاً لإنشاء هيئة دولية عالية لتسول لها سلطات واسعة لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، فملا عن دونه إلى اعتبار التثبون الداخلية لكل دولة أمورا لهم سبائل الدول الأخرى بحيث تتدخل الهيئة « فوق الوطنية » ليدفع القلم أينما انصرف ، ولرعاية حقوق الإنسان في كل مكان ... الخ .

ويقدم الدكتور عثمان أمين مقمته القيمة لكتاب ياسيرز فيقول أن الفيلسوف الألماني الكبير يوجه نداءه الفاء إلى جميع المخطئين في آراء العالم ، مهييا بهم أن يتخلوا من هذا الأمر الكبير مولفا إيجابيا صريحا ، يقضى على بوائل القنات والغزو ، ويؤق أواصر العربة والتواصل بيننا وبين سائر بني آدم . . . » (أن الإنسان إذا كان لابد له في أغلب أموره أن يعيش فيضة أروية في حدود الزمان والمكان ، فهو لا يزال قادرا على أن يطو على نفسه ، وأن يحيا حياة إنسانية جديدة ، فيها طمسوح إلى « الأبدية » ، وتطلع نحو « المتعالي » ... » (ص ٢٦) .

وأما بعد هذه المقدمة ، فإن الأستاذ المترجم يقدم لنا فصلين مترجمين عن يا سيرز « الأول منهما مقتبس من فصل طويل كتبه الفيلسوف عن سيرته وتطوره الفكري ، والآخر مأخوذ من كتابه « الإيمان الفلسفي » وموضوعه هو « الفلسفة تجاه المستقبل » . والفصل الأول منهما يبين لنا كيف تحول ياسيرز من دراسات علم النفس إلى الفلسفة ، وكيف اهتم بالكتشف عن « سيكولوجية وجهات النظر المختلفة في العالم » . كما يعرف لنا بإيجاز أهم الموضوعات التي تناولها ياسيرز بالبحث في أهم مؤلفاته الفلسفية الإ وهي كتاب « الفلسفة » (بإيجازاته الثلاثة) ، وكتاب « العقل والوجود » ، وكتاب « المنطق الفلسفي » ، ثم كتاب « التساريف العام للفلسفة » ... الخ وقد خلفت ياسيرز حديثه عن سيرته الفلسفية بقوله : « أن الفرضي - وبالتالي المعنى القصود ، من أي فكرة فلسفية ليس هو معرفة موضوع ما ، بل هو أحداث تغيير في وعينا للوجود ، وفي مولفنا الجواني تجاه الأشياء . » (ص ٢٧)

وأما الفصل الموسوم باسم « الفلسفة تجاه المستقبل » ، فإن ياسيرز يحاول أن ينزل بالفلسفة إلى مصمعة التاريخ ، لكي يكشف لنا عن موهبتها الحيوية في صميم الوجود العالي الراهن . وهو يعددنا في هذا الفصل عن أشكال عديدة من « الصلعية » Nihilisme في التفكير المعاصر ، كما يسط لنا أيضا موقف بعض أصحاب التعاليم الدينية من الفلسفة ، لكي ينتهي إلى القول بأن هؤلاء وأولئك إنما يحكمون على الفلسفة من الخارج ، فهم بالتالي لا يعرفون فيجتها . ولكن الفلسفة لا يمكن أن تتخطى عن الوجود ما عاش الناس ، لأنها تتأصل في الإنسان وجها لوجه أسم ذاته ، وتفتح أمامه السبيل لتحقيق التواصل مع الآخرين ، وتسمى نحو الظاهر على المعنى الملمة للحياة التي يحياها جنبا إلى جنب مع فيه من بني البشر . فليست الفلسفة مجرد ترف فكري ، أو تامل وهمي ، بل هي تحقيق لاستقلال الوجود الإنساني وفرديته . ولكن « الاستقلال » لا يعني العزلة والانفصال عن العليا ، بل هو يعني التحرر الفعلي الذي لا يمكن أن يتحقق إلا في عالم يتفتح فيه الآخرون أيضا بحريتهم . فحقا أن الفلسفة تخطب الفرد ، ولكنها تنفي في الإنسان الشعور بأن حياته لا بد من أن تكون على اتصال بالآخرين ، فهي تهيب به أن يتخلط

عنه أداة لتحقيق أعلى ضرب من ضروب التواصل بينه وبين الآخرين . ويسير بصبر واجبة الفلسفة اليوم في النطاق الأربع التالية :

أولا : البحث عن السلام ، والعمل باستمرار على استبقاء ثقافة التفق البشرى ...

ثانيا : ضرورة اجتياز مرحلة « العمية » من أجل العمل على تمثيل التقاليد ...

ثالثا : التماس العلوم الخاصة ، كخدمة ضرورية للبحث الفلسفي .

رابعا : العمل على تحويل (العقل) الى اداة تواصل لا حد لها .

وليس في وسعنا - في مثل هذا العرض الموجز - ان نشرح كل نقطة من هذه النطاق الأربع بالتفصيل ، ولكن حسينا ان نقول ان الطريق الفلسفي - في رأى يسير - هو السبيل الإزحد نحو تعقيل ضرب من « الوصال الطبقي » بين الناس ، لأن الفلسفة تعلمنا ان في امكاننا معشر البشر ان نحيا حقا ، وان نتكلم معا ، وان نهتدي معا الى طريق الحقيقة ، وان نصبح هناك معقدين لثوانا كما ينبغي ... (ص ٨٢) .

... واما الفصل الأخير من الكتاب فهو يتضمن الترجمة العربية لمعاصرة يسير من « العقلية الدرية ومستقبل الإنسانية » . وبدأ يسير حديثه بلينين لنا ان الخطر الذي أصبح يهدد اليوم مستقبل الإنسانية إنما هو خطر الغفل ، وأبلغ من كل ما قد يتصوره العقل . وقد نحاول ان نضمن فلسفتنا بأن نقول ان كارثة تجلوزفي بشأنها جميع حدود الغفالى لا بد ان تكون مستتمة الوفوع ، ولكن « لم لا يكون ضياء الإنسانية معكنا ، ولم لا يكون قريبا ؟ ألم تكن هناك شائعة سابقة في ان يتصرف الإنسان على الارض بالطاقات الكونية ، وبالطاقات الشمسية ، يوصلها من المادة الارضية التي ظلت ساكنة الى ذلك العين ؟ » . والواقع اننا - ما لم نفهم موقفنا الروحي كله ، ومنهجنا في التفكير وادرائنا الاخلاقية والسياسية - فاننا سنأورن حمة الى هلاك الإنسانية كلها .. « يجب على الفرد ان يغير ما يتفحسه اذا أراد ان يواصل الحياة » ، فإذا لم يفكر الا في الأمر المباشر « عوالت اليوم التي تشب الحرب الدرية فيه ، وأكبر الظن انه يومئذ يكون كل شيء قد انتهى » . (ص ١٠٩) . لم يستطع كارل يسيرف فيبين لنا كيف ان الاعتبارات السياسية والاخلاقية لا تكفى وحدها لحل مشكلة التصير البشرى ، ما دامت جذور المشكلة أعمق ناصلا في تربة التاريخ البشرى من كل هذه الاعتبارات ، والراى متديروا أنه لا يمكن القول باننا متصرفون فيها الى الهاوية بلفاء محتسوم لا مرد له ، فان مصيرنا قد أودع بين أيدينا ، والينا يرجع الأمر في ان نحصى الى الهاوية ، او ان نلحق حركة صاعدة رالمة نحو حياة أوفر لواء على النوام . وهنا يحرب يسيرف من لفته الطعنة في العقل فيقول ان « هذا التمدد موجه الى عقل الإنسان ، لكن الى العقل في اوسع مداه وأبعد اقواره ، وهو العقل المشتغل على الإرادة الطيبة ، وهذه الإرادة في هذا العالم هي الحقيقة الوحيدة القصوى التي نستطيع ان ننتند اليها » . (ص ١٢٢) ، فلا سبيل الى تجنب الكارثة التي يمكن ان تعيق بالتمام ، لانهم لا يتقبل الحاضر ، والاسترشاد بفكار العقل ، مع الاستناد في الوقت نفسه الى معطيات الواقع . حقا ان الصعالة غالبية على حياة الاقلية العالمة من الناس ، ولكن التجربة تعلمنا كذلك ان في مقدور العقل ان يستيقظ فينا وان يهجو . والعقل وحده هو الذي يطمنا

انه ليس من الشجاعة في شيء ان نطلق أحكاما على النهاية والهلاك الذين لا مناص منهما ، وانما الشجاعة ان نبذل غاية جهتنا في المعرفة ، ولا نتخلي عن الأمل مادما أحياء . والعقل أيضا هو الذي يحفز ارادتنا نحو العمل ، فلا تلبث ان تجد في بلل الجهد للبناء أكبر معنى للحياة على ظهر هذه البسيطة ، حتى ولو لم يقدر لنا ان نعرف كم من الزمن سيبقى على هذه الارض ما ينشاه او شيننا دقلعه ...

وعلى الرغم مما في فلسفة يسيرف من دراما حية ، فاننا نراها تنتهي بنقطة تفوقية ، اذ يقول صاحبها بلهجة ملؤها التسجاعة والثقة في المستقبل : « ان ما يبقى هو ان نتأمل بهاء العالم ، وان نوثق مدى القوة بيننا وبين بني آدم ، ما شاء الله ان يقدم علينا نعمة العية . وان ما يبقى هو الحب الذي يجعلنا وأحبين لاصلنا و شاعرين باليدية . ان ما يبقى على هذه الأسس هو ان نحيا في عالنا هذا لا وفقا للنحن المتناهي . بل وفقا للعقل ، وفقا للعقل العالما الذي يفتح لنا آفاق الكون ، ويعبنا على ان نوجه خواطرننا ونزعائنا وجوونا نحو الانتصار الذي لا بد ان يتخذ لنا على الكارثة الأخيرة التي تهدنا . » (ص ١٢٨) . وهكذا ترى يسيرف يستمسك بأهداب العقل ، ويهيب بنا ان نتقلب على الكارثة الشاملة الداهية من طريق العمل على تقليص صوت الحكمة والتفعل والفهم على أصوات المدافلة والجهالة والنزق . ولئن كان التمسك برى العقل فضلا مثاليا قد يهجو بعيد المثال ، الا ان يسيرف يقول في لهجة ملؤها الايمان والثقة : « لما ان ما يكون مثاليا يكون معكنا ، فذلك حقيقة نؤكد لها لغة مودعة فينا ، هي لغة لا أساس لها في هذه الدنيا ، ولكن لا ينالها مع ذلك الا من يعمل فيها ما يستطيع .. » (ص ١٢٨) .

تلك خلاصة سريعة لكتاب « مستقبل الإنسانية » الذي ترجمه وقدم له الأستاذ الدكتور عثمان أمين . ونحن على القصة من ان الاستاذ المترجم لن يفسن علينا أخرى جديدة في سلسلة « مكتبته تالسي الفلسفة العربية » التي يشرها على إصدارها . ولكننا نتأخر عنه ان يقدم لنا هذه المرة امهات الكتب التي دجها براع فلاسفة الغرب : دون الاقتصار على ترجمة آرائهم في الحرب والسلام ، او في العقلية الدرية ومستقبل الإنسانية ... الخ . ولستنا نعلم ان لا أهمية لأمثال هذه الرسائل الصغيرة ، وانما كل ما نعلمه ان الكتب العربية مفترقة الى « افئدة روحية » المزر مارة واكثر دسامة ، وان من يقرأ لتخص الاستاذ الدكتور عثمان أمين « الذي نشر الأخير في مجموعة « تراث الإنسانية ») لكتاب كاتل في « نقد العقل الغالسي » ليدرك تماما ان من حق قراء العربية على استلام الكبير ان يطلبوا اليه الاصطلاح بترجمة امثال هذه الكتب الفلسفية الكبرى . فلذا افسلنا الى هذا ان شتى الترجمات التي قدمها لنا الدكتور عثمان أمين حتى ان قد امتازت بسلوحيات العربي الشرق ، ونصاحتها الفكرية الهائلة امكنا ان نلعب في الزبد من الترجمات ، وحق لنا ان نتطلب من الاستاذ المترجم مواصلة جهوده المشكورة في هذا الميدان .. ولا يسعنا في النهاية سوى ان نشيد بترجمة الدكتور عثمان أمين لهذا الكتاب الذي عرفنا لأول مرة - بجانب من تفكير كارل يسيرف ، آمين ان نلعب في الزرب العاجل على ترجمته الجديدة لكتاب هيدجر « ما الفلسفة ؟ » ، وإيريه من الكتب الفلسفية الحديثة ..

الدكتور زكريا إبراهيم



الدكتور عبد الحميد الجندى زهير بن ابي سلمى شاعر السام في الجاهلية

ترتدق ومن عبد آلهة أخرى ، ومنهم من كان عالمًا يبحث عن الآله الحق ، حتى جاء الإسلام هدهدًا ، ووجههم على عبادة الله . وبذلك ينتهى الباب الأول ، ولكن السؤال الذى يتبادر الى الأذهان بعد قراءة هذا الباب ، خاص بقيمهم الاجتماعية ، فهي متناقضة مع بعض قيمنا الآن ، وهى على تنوعها يجمعها مثل أعلى واحد ، فما هو هذا النثل الأعلى لتلك الحياة المتبدية ، وكيف ترد إليه كل القيم ؟

الواقع أن العرب فى الصطراهم وراء الماء ، كان من الطبيعى ألا يعرفوا نظام الملكية ، لانهم لا يقيمون إلا ديمًا يناله الماء ويستنفذ الكل فيتحوّلون . ولكن انعدام نظام الملكية أوقعهم فى كثير من الخلل ، واستتبّع نزاعًا على الماء ، كانت النتيجة فيه للقوة ، التى تقدر الحق فى الملكية .

ومن هنا أكبر العربى القوة ، وكانت القوة عنده والصق شيئا واحدا . ولم يكن الفرق واضحا فى ذهنه بين الصق والقوة ، ما استطاع أن يصل اليه بقوته فهو حق له ، وإذا وصلت يده إلى الزبد أسيرا فهو حقه ، ربما استميدته ولم يبتد . فحين يستطيع أن ترد كل القيم والأشياء التى كانت موضع إعجاب العرب ، وإكباره الى القوة . وهذا هو شاعر الخصامة لا يضاهله فى قومه شيء إلا أنهم أصحاب حلم وإحسان ، وأنهم ليسوا أصحاب شر وعذوان ، لذلك يقول متهمًا :

لكن قومي وإن كانوا ذوي مدد
ليسوا من الشر في شيء وإن عانا

ومن هنا نعرف تغير القيم ، فهذا البيت يمدح به الإنسان قومه الآن ، لأن القيم التى تنادى بها هي قيم الانصاف . ومن أجل هذا فقد كان أعز شيء على العربى وأكثر ما يعتد به هو الفرس ودواب اللاتال وثروة الرجال ، ولقد بلغ من إعزاز العربى لفرسه أنه يفضله أحبًا على زوجته . وهذه الحياة المصطرية كانت يعيون كثرة التسل من الجيش . وهذه الحياة المصطرية كانت تستلزم القوة ، ولذلك كره العربى الى الرجل أن يكون سمينا ، لأن ذلك من آثار الترف والقعود ، وأحب العرب فى الرجل أن يكون نحيلًا من أثر التهام الأموال . يقول عروة بن الورد :

أبرأ متى أن سميت وإن تسرى
يجسى من الحق والصق جاهد
أقسم جسدى من جسيم كثيرة
وأصبر قراح الماء ولأد باره

ومعنى هذه الصورة كانت تستحب فى المرأة كانوا يصورون المرأة ، وقد اتفقت لأن ذلك مظهر من مظاهر الترف ، فهي

ونحن فى إطار دراسة حاضرنا ، لا ينبغي أن نفلت عن ماضيها ، ونحن بسبيل تقويم ثقافتنا المعاصرة ، نركز على أساسى ثقافتنا ونسعى أجدادنا . ومن هنا كانت دراسة أدبنا القديم ، لا تقل أهمية من دراسة أدبنا المعاصر ، ولكن هذه الدراسة يجب أن تضيف جديدًا لتكون جذرية تكشفنا ومناهجنا . وعلى هذا الأساس ننقل الى كتاب « زهير شاعر السام » الذى أخرجته المطابع منذ أيام . وهو فى الواقع رسالة نال بها صاحبها درجة الماجستير ، ولكن المؤلف غير فيها وحذف وبدل بحيث تلائم كل القراء ، لا أصحاب التخصص وحدهم . ويتضمن الكتاب أربعة أبواب تتناول عصر زهير وبشئته وحياته لم شعره ومطلته المشهورة .

أما الباب الأول الذى يتناول بالدراسة عصر زهير فيعبر فيه المؤلف الحياة السياسية فى ذلك الوقت ، وكيف كان أفراد القبيلة يتمتعون بحرية كبيرة فه لا يتمتع بها كثيرون فى ظل الحكومات النظامية الآن . وليس القبيلة - ومجلسها يختارون من بين الرجال الذين عرفوا برجاجة الفضل وسد النقص . وكانت هناك عادة العيرة وإمارة القسطنطين وإمارة أخرى قامت فى نجد ردها من الزمن وتحكمها قبيلة بن أسد وهى لفسقة كنده .

ومن طريق هذه الإمارات عرف العرب النظر نوعا من المعارف وشيئا من التحضر ولكن الصلابة الغالبة هي الحياة البدوية الفخشة ، التى يعاقرون فيها الضمر ويتصلون فيها بسرعة الإنفال ويمجدون التجارة والإقدام ويعنون فيها بحيولهم أبلغ عناية ، وهم يحبون هذه الحياة التى نشأوا فيها ويفلسفونها على حياة الترف أن قدر لأحدهم أن ينتقل الى حياة الحضر .

وهكذا أحب العربى وطنه رغم ما يلاقيه فيه من عروب الفكر والجهد والحرمان . وبعد أن يعرض الدكتور الجندى لمعارف العرب التى جاءت وليدة الحاجة كعلم النجوم والبطيرة والتاريخ والأخبار يقرر أن طبيعة العقل العربى كانت لا تبنى بالتفكير المركز أو النظرة الشاملة ولهذا لم يكن لهم علم منظم بالعلم الصحيح ، وكل ما ركزوه من مظاهر الحياة الطفيلة لا يست الى العلم ، لأن الحياة البدوية المصطرية لا تتيح لأصحابها أن يكون لهم علم منظم .

ويختتم المؤلف هذا الباب بالحديث عن الحياة الدينية ، فيرى أن الوثنية لم تكن مختلفة فى نفوسهم ، ويستدل على ذلك بأن منهم من أكل السمسم الذى عبده وقت الجاهلية ، لأنه من الثمر الطرى ، ومنهم من دعا بالزعم وسبه وكما كان من العرب من

ليست محتاجة للحركة ، لأنها مغنونة وزوجها قوى يكفيا عايشا . ومن مقاصد القوة احتمال الرجل على الصواب ، لأن الجند هو القوة في مقابلة الزمن ، ولأن الاستسلام للزمن ضعف لا يجوز بالرجل القوى :

ولا ترامم وإن جئت مصيبتهم
مع البكة على من مات يبكوا

وهذه القيم نجدتها في شعر الحب العربي الجاهلي ، فكثيرا ما يصور الشاعر مساجحته وهي في عمل حوفا الحرس الشداد ، فهو لا يصل إليها إلا بعد جهاد . والحب في مثل هذه الصور ليس إلا نوعا من الصراع ، وليس إلا رغبة في الاستلاك . لذلك كثيرا ما نجد في شعر الفخر الجاهلي إلى جانب الفخر بالقوة ، الفخر بالنساء وبالفخر وبالكسر . ولم يكن المتدح بهذه المتع لما فيها من لذة ، ولكنه كان مندهم مقفرا من مقاصد الفتوة والتجيب ، والتجيب في نفسه قوة . فالزجل الجاهلي غزل رجل يرغب لذة ولا تركه اللذة . ولستطيع أن نرد شعر المدح في الجاهلية إلى القوة أيضا ، فالكرم الذي كان يفتنى فيه اللادح بمدحهم لم يكن موضع افتخار لأنه صورة من صور الرحمة ، ولكنه كان موضع الفخر لأنه مظهر السيادة والقوة والترفع . والواقع أن اتساقا في ذلك العصر لم يكن يستطيع أن يكون كريما دون أن يكون قويا ، فالكرم هو القوى الذي يجسود مما يأسده من السيوف والرماح .



الرجل الذي يرث الثروة لا يستطيع أن يختلف بها إلا إذا كان قويا ، فالكرم ملازم للقوة والسيادة . الرجل القوى لا يضر المال لأنه لا يخشى الفقر ، ولأنه يعلم أنه يستطيع أن ينتزع الثروة حيث كانت . فالجساسة في ذلك الوقت كانت صريحة واضحة ، تعترف بذلك القانون الأزلي (الجساسة للأصلح) .

وننتقل المؤلف إلى الباب الثاني فيتناول بالدراسة بيئة زهير وحياته . وهي بيئة شعرية أصيلة ، فابوه شاعر ، وزوج أمه شاعر ، وخاله شاعر ، واختاه شاعران ، بل وأبنائه شعراء . وكان زهير النجم اللامع في هذا البيت الذي توارث فن الشعر . ويتبع الدكتور الجندى تأليف زوج أمه أوس بن حجر وتأليف خاله بشامة بن الفخير في شعر زهير ، الذي كان معجبا بهما متقلدا لرواية شعرهما . فهو يتبع تأليف شعرهما في شعره ، مقابلا المعنى بمعنى والصورة بصورة خاصة شعر أوس الذي كان لا يبدل به بدلا . وينتهي من ذلك إلى أنه كان تلميذا نابغة لأستاذ كبير ، وإلى أن نوعا من المدارس الأدبية وجدت في ذلك الحين .

يتلى سؤال يعرفه له المؤلف ، وظلنا عرقى لدراس الأدب الجاهلي ، خاص بالتكسب بالشعر .

هل كان زهير واحدا من الشعراء الذين باعوا مصالحهم من أجل المال ؟ يقول الدكتور الجندى :

« لم يكن زهير مثل النابغة ، ولم يكن مثل الأملح في اتفانها الشعر وسيلة للتكسب ، وكل ما قالوه عنه أنه تكسب يسيرا مع هرم ، ولذلك لم يصموه بصفة الخنزرة كما وصموا زهير » . فالتفكير العربي إذن هي التي تمنعه من التكسب بشعره واستجداد غيره معها علا مقامه كما نستطيع أن نلهم من أقوال « ابن رشي » . والواقع أن زهيراً - كما يقول المؤلف - كان يمثل شخصية العربي الجاد الذي يبتغى إلى المثل العليا ، شخصية العربي الفخ والتسامح ، الذي لا يكتف على لئله ، ولا يقدس القوة الفاشقة ، فهي إذن شخصية تادرة في البيئة الجاهلية . ويعرض المؤلف بعد ذلك لبيئة زهير اللذين يقول فيهما :

فلا تكنن الله ما في نفوسكم
ليخفى ومما يكتم الله يصمكم
يؤخر فيوسف في كتاب فيدر
ليوم حساب أو يعجل لينتم

ثم يعلق عليهما فيرى سلامة عقيدة زهير وموافقها لبعض المبادئ التي جاء بها الإسلام .

وهو يرفض أن يكون مثل هذا اللون من الشعر منعولا ، لأنه يجد له تالاج ليست قليلة من شعر بعض الجاهليين ، ويعمل ذلك يفتشاش تفكير السخطين قبل الإسلام .



أما الباب الثالث من الكتاب فخاص بشعر زهير ، ويتناول المؤلف في الفصل الأول قضية الانتحال فيرى أن « أول من بحث هذه المسألة بحثا علميا متقنا مزمزا بالبراهين الصامم الأريب فحمد بن سلام » النجعي . فقد تناول مسألة الشعر المنحول بالحدث المستفيض في دقة تدل على إلمامه بالثقافة المأما طيبا ، وعلى أنه قد درس الشعر الجاهلي دراسة وافية . وقد بحث الدكتور الجندى هذه المسألة بحثا طبيا خاصة حين ربط بينها وبين اختلاف اللهجات بين القبائل العربية وعلى الأخص بين عرب اليمن وبين العدنانيين قبل الإسلام بزمن كما تثبت النقوش التاريخية .

ولكن الدكتور الجندى لم يعرض للانتحال في شعر زهير نفسه ، ونحن لدينا زهير روايات مطبوعتان أحدهما رواية الأصمعي والأخرى رواية لعلي ، ويقول الدكتور شوقي سيف : « وتمتاز الأولى بالثقة ، فهي لا تروي سوى لغات شيرة قصيدة ومقطوعة ينتهيها التتميز بلونه : (كمل جميع مادواه الأصمعي من شعر زهير وصل في بعض الروايات) ويضيف من رواية التوفيقين قصيدتين شك الرواة في تأليفهما . وإذا نظرنا في رواية لعلي الكوفية وجدناها تصيف مشرات القصائد والمقطوعات ، ومن حين إلى حين تنص على أن هذه القصيدة وتلك المقطوعة من رواية حماد أو ابن الكلبى المعروفين بكثرة الوضوح » .

ومن الحق أن المؤلف قد حلف هذا الفصل من الرسالة الأصلية لأنه لا يوم كثيرا للقراري العام .

ويتناول بعد ذلك خصائص شعر زهير وهي تتركز في ثلاثة أمور :

- ١ - التصوير وهو استيعاب الصورة واسترقاق الوصف .
- ٢ - العناية الفنية ، وإيراد بها تزيين الشعر وتقنيته وبذل الجهد والشفقة في إنشائه .

٣ - الموسيقى ، وهي من الظواهر الفنية التي تتجلى في شعر زهير واضحة أكثر مما في شعر غيره .

ومن الطبيعي أن نجد الصور مادية في طابعها في هذه البيئة الجاهلية ، لأن الصور المئوية مرحلة أخرى من مراحل التطور . وزهير من أكثر الشعراء اهتماما بالصورة الشعرية ، فهو لا يرسم صوره في سرعة ولا يمر عليها مروراً عابراً كما كان يصنع نمرؤ القيس مثلاً ، ولكنه يندلق في رسم صوره ويوضح جزئياتها . على أن الأمر لا يقتصر على ذلك فهو يسعى على صورة الحركة ، بحيث يصبح شاعرنا كالصور السينمائي الماهر .

والواقع أن هذه ناحية هامة وخاصة من خصائص الشعر الجاهلي عامة - على تدرج المستوى بين الشعراء - فنحن اليوم حين نلقت في شعرنا إلى الصورة الأدبية لانطلاق جديداً .

ومن الحق أن الشعر العربي في فترة من حياته قد استحال في تقرير ولم يمتثل إلى أسلوب التعبير بالصورة ، ومن أجل ذلك حين التفتنا إلى ذلك التعبير امتدنا أننا شغوباً على جديد ، ولكن من الحق أيضاً أن الفصيلة الجاهلية لم تعرف اللوحة الشاملة وإنما هي صور متفرقة في الفصيلة الواحدة قد لا يجمع بينها رابط واضح ، وكل لفظة الجديدة التي طبعت شعرنا الحديث ، هي استعانة الفصيلة إلى لوحة شاملة .

ويهتم المؤلف بتفنيح زهير لشعره ، وهذا التفنيح سمة من سمات مدرسة أوس بن حجر كما هو .

وينقل قول ابن قتيبة : « أن زهيراً من المتكلمين لأنه يقوم شعره بالتلفاز ويتقنه بطول التفتيش ولعاده النثر فيه بعد النثر » . ولكن الدكتور الجندى يرى أن شعره قد برى من التكلف ووضح فيه الطبع والظفر السمحة والإستقامة وكاتما اللين زاد يقترب من معيته مهما نلح فلا تلج مظهرًا من مظاهر الجهد والتكلف . وفي تفنيح هذا الشاعر الكبير لشعره درس يلخ لشعرنا من التسيب الذين لا يصبرون حتى تنفج تجاريمهم ولا يعودون إلى شعرهم ينفقونه قبل أن يذيقوه ، ومن هنا كثيراً ما نجد الفتاة والصف .

أما المسألة الأخيرة التي يعرض لها المؤلف في هذا الفصل فهي موسيقية شعر زهير ، وهو يرى هذه الموسيقى في شعره أوضح منها في شعر غيره ، وهي قائمة على الجناس والمقابلة في أكثر الأحيان وتظهر اللفظ لذاته في أحيان أخرى . ويعلم الدكتور الجندى فيدل على رايه بإبيات للشاعر ، لم يمارى رأى القدماء الذين وصلوا شعره بعدم للمائلة واجتناب الحوشى فهو رأى ينل عن شعره العشونة ولا يصفه بالسلاسل والموسيقى

ويؤيد رأى جسرير الذى وصف شعره بأنه كائن نيرا ؟ كل هذا جميل ولكن ليست المقارنة أكثر انصافاً ؟ لو قارن الدكتور الجندى بين شعر زهير - الذى يرى الموسيقى في شعره أوضح منها في شعر غيره - وبين شعر الأسي - صناعة العرب الذى كان يتقن بشعره موسيقياً وبين لنا تفوق زهير مثلاً لكان أكثر انصافاً لنا .

ونتقل بعد ذلك إلى الباب الأخير وهو خاص بملفة زهير . فيناقش قضية الملقات ويشيع اللول فيها مستشهداً برأى القدماء ويرأى المستشرقين ويخلص مؤيداً رأى بعض القدماء في أن معناها مجازى فهي قد طفت بالقلوب أو بالقول . ويقسم ملقة زهير إلى عدة أقسام هي المدح والهجاء والوصف والفزل والحكم . ولعل المدح أهم أجزاء الملقة ، ولكنه كما يقول الناقد اليوم في غير خالف . الواقع أن شعر المدح خلد لنا القيم العربية فزهير حين يمدح بالتعبادة والمثل والفضيلة والتمسك وشراف الوجه عند الكرم تعرف أن هذه القيم هي المثل العليا في المجتمع . أما الهجاء فغير أصيل في ملقة زهير وفي شعره على وجه العموم ، وأما الوصف فقد ذكرنا قدرة زهير على الانطلاق إلى جزئيات صوره ، ونضيف هنا أنه ممن ابتكروا طوائف من الماتى والصور ، ظل التشييع من بعد يتألفونها ويعودون فيها . والفزل في ملقة زهير وفي شعره موصوما فزل فني وحسب ، فلم يعرف أنه صاحب ليو لكثير من الشعراء الجاهليين . ونصل إلى نهاية فصول الكتاب وهو من الحكم في ملقة زهير ، والعلمة خلاصة تجربة مرت بإنسان عريق الأحاسيس ، فيها صياغة أدبية . وفي الوقت الذى كان فيه الشاعر يقوم بدور الحكيم ، كان لحكمته أثر بالغ ، ونحن الآن ما زلنا نمثل بالحكمة في كثير من مواقف حياتنا ، لاحتوائها على تجربة إنسانية عميقة . وهي تؤدي دورها بمجرد التمثل بها لأننا نضيفها إلى تجاربنا ، ثم يكون لها أثرها في تعميق مفهومنا للحياة . وحكم زهير أشبه بدستور خلقي يمسح للناس قواعد السلوك المثالي لأنه يريد أن يعيش الإنسانية تحت ظلال الخير ، ولعل ذلك هو الذى دفع بعض الشعراء من بعد إلى تأثرها مثلما صنع وليم زائرل .

بقى عنوان الكتاب « زهير شاعر السلم في الجاهلية » أن الذى دفع المؤلف إلى اختياره هو ما يؤوله بعد ذلك :

« أنه تم يتج لنا أن نسمع صوتاً ينادى بالسلم في الجاهلية ، غير صوت زهير ابن أبي سلمى » . والحق أيضاً أنه لم تتج لنا دراسة طيبة من زهير قبل كتاب الدكتور الجندى .

ففيه تنضح شخصية المؤلف من خصال نقاشه لكثير من الإراء ، وفردته على الاتباع بما يستند لذلك من حجج ، كما تنضح في الكتاب فمسيلة الأمانة العلمية ، فما من رأى إلا وهو منسوب ، وما من فكرة ولو جزئية إلا وأها مرجعها ، كما يتضح أخيراً مجهود الدكتور الجندى وصبره الطويل على استقصاء واستيعاب المراجع التي عرضت لموضوعه .

دكتور ماهر حسن فهمي

الدكتور زكريا ابراهيم مشكلة الحب

دار الآداب - بيروت - ١٩٦٢ - ٢٥٠ صفحة



الحضارة الغربية بوجه خاص خلال مختلف عصورها منذ
الغلاطون حتى جان بول سارتر وسيهون دي بوفوار . وليست
هناك سوى اشارات قليلة متباعدة الى ما جاء متعلقا بهذا
الموضوع في التراث العربي ، كذلك الاشارات الى رابعة العدوية
والحلاج في الفصل الذي خصه المؤلف للمعبدة ، وكذلك تلك
الإشارة التي جاءت في الفصل الخاص بالصدافة حيث عرض
المؤلف لآراء أبي حيان التوحيدي في كتابه «الصدافة والصديق»
ولذلك فيقدر ما يتميز كتاب «مشكلة الحب» بالمجهود الثقافي
المخلص في عرض وجهات نظر كتاب القرب ومناقشتها ، فقد تعمز
أيضا بآفته جاد معزولا عن تراثنا النضال رغم أنه لم يعدم المؤلفات
ولا المؤلفين على نحو ماريانا ، ولعل أطفال هذا التراث هو الذي
جدا بالكاتب الى ان يذكر ان ريبط الحب بالموت قد تسرب الى
الطباقية المسيحية نتيجة لتأثر الحضارة الأوروبية بالمفهوم
التراجيدي للحب المتمثل في فكرة الأيروس أو الشفق ، دون ان
يشير اليه ان فكرة الربط بين الحب والموت موجودة في كل
الحضارات ، ومنها الحضارة العربية على نحو ما نجسد في
قصص القصة الطويلة الشامية . بل يقال ان الحب الرومانسي
الذي ظهر في أوروبا - وظهر فيه هذا الربط بين الحب والموت
- قد تأثر بالإشعاع والأزجال العربية التي تفتت بهذا اللون
من الحب عندما انتقلت من الإندلس الى أوروبا عن طريق
شعراء التروبادور . ويكفينا دليلا على ربط الحب بالموت في
الفكر العربي وجود كتاب مثل كتاب «مصارع المشايخ» لابن
السراج لا يتناول الحب الا من حيث علاقته بصور الموت المختلفة.

اما الخاصية الثانية لهذا الكتاب ، فهو انه ناقش مشكلة
الحب - ربما لأول مرة في تاريخنا الثقافي - من جانبها الفلسفي
ولم تكن مناقشاته لهذه المشكلة على ضوء علم النفس ولا
اشاراته الى التصوف الأدبي الا بقدر ما تتصل بالجابات
الفلسفي منها . وله سبق للمؤلف نفسه ان نشر منذ ست
سنوات كتابين يتصلان بهذا الموضوع هما «سيكولوجية المرأة»
و «الزواج والاستقرار النفسي» وواضح - حتى من مجرد
عنواني الكتابين - ان دراسة هذين الموضوعين كانت تقوم على
أساس نفسي أكثر مما تقوم على أساس فلسفي . ولعل هذا
هو الفرق المنهجي بين كتابيه السابق وكتابه الأخير «مشكلة
الحب» .

وال مؤلف يعطي عن منهجه الفلسفي في صراحة في مقدمته حيث
يناقش ما يسميه : اللغات المختلفة في المحدث من الحب ،

مشكلة الحب من اهم الموضوعات التي شغلت البشرية دائما
وقد اولاما تراثنا العربي جانبها غير قليل من اهتمامه . ولعل
رسالة الجاحظ «في العشق والتساء» وكتاب «الزهر» لابي
داود القاهري اللذين كتبوا منذ أكثر من ألف عام ، لهما أول
كتابين بليا لنا في هذا الموضوع في تاريخ الفكر العربي ان لم
يكونا أول كتابين ألفا فعلا فيه . وخلال هذه الايام آلاف الكتب
كتب كثيرة في الموضوع نفسه بعضها فقد وبسطها ما يزال
مخطوطا وبعضها تم نشره فعلا مثل «طوق الحمامة» لابن
حزم و «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن قيم الجوزية ،
ومصارع المشايخ لابن السراج ، ولم الهوى لابن الجوزي ،
وترين الاسواق لملود الإنطلي حتى نصل الى كتاب مثل كتاب
مدامع المشايخ الذي نشره الدكتور زكي مبارك عام ١٩٢٥ . .
ولعل كتاب «مشكلة الحب» للدكتور زكريا ابراهيم هو آخر
ما ظهر في تاريخ الكتاب العربي حول هذا الموضوع .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الاختلاف بين هذه المؤلفات في
طريقة تناولها لهذا الموضوع ، وان كانت ترجع من ناحية الى
شخصية مؤلفها ، فهي ترجع من ناحية أخرى الى اختلاف
البيئات الأدبية والفكرية التي عاش فيها هؤلاء المفكرون - فطول
الجماعة مثلا قد غلبت عليه روح الابتكار حتى ان المؤلف يستشهد
على آرائه مما وقع له في حياته الخاصة وحياة أصدقائه ومعارفه
وبما نظم هو شخصا من شعر في هذه التفسيرات بحيث ان
كتابه - على صغر حجمه - فيه من اصالة التفكير ما نلتقده
في مؤلفات في اصناف حجمه . بينما كتاب مثل كتاب «ذم
الهوى» قد غلبت عليه صفة التجميع بحيث تصبح الأهمية
الأولى لمل هذا المؤلف هي في جهد صاحبه في تجميع واختيار
القصص والأشعار التي تصل بهذا الموضوع لم في تبويبها
اما مساهمة المؤلف براهبه الشخصي فكأنها ثانوية - وهناك
نوع ثالث من المؤلفات يجمع بين الابتكار والتجميع مثل كتاب
«روضة المحبين ونزهة المشتاقين» .

فالذا تراثنا كتاب «مشكلة الحب» للدكتور زكريا ابراهيم
أدركنا لولاه الأولى - من مادته ومنهجه - أثر العكس المتأخر
الثقافي في النصف الثاني من القرن العشرين على مشيل هذا
الكتاب . فالمؤلف لا يستكشف طريقا جديدا ولا يتنفس مصالما
المشكلة بمجهود الروحاني الخاص أو من وقائع حياته أو بما
يعثر عليه متناظرا في نوادر الأدب العربي والشرطه ، إنما هو
يستفيد من التجربة الإنسانية كما غير منها كبار رجال الفكر في

وهي اللغات الشعرية والاخلاقية والبيولوجية والاجتماعية والصوفية ، ليصل الى بيان عجز كل هذه اللغات عن تفسير ماهية الحب ، وليعلن في النهاية ان الفلسفة وحدها هي التي تفسر الحب بوصفه تجربة متكاملة .

فلذا نلحظ بعد ذلك في ابواب الكتاب وجدناه مقسما الى اربعة ابواب ، كل باب منها مقسم الى ثلاثة فصول . اما الباب الاول فيتناول ما يطلق عليه المؤلف اسم اشياء الحب وهي حب الذات والشقة والتعاطف . والباب الثاني يتناول اشكال الحب وهي الامومة والاخوة والعابدة . ويتناول الباب الثالث اماط الحب : العشق والمحبة والصداقة . ويتحدث الباب الثالث عن اطوار الحب : مولده فسياته واخيرا موته .



اما ان حب الذات والشقة والتعاطف اشياء الحب فذلك لان الحب الحقيقي يقوم على التبادل الشخصي بين الانا والاآت وهذا هو تعريف الحب الذي يقوم على لسانه كل ما في الكتاب من مناقشات وفي كل من حب الذات والشقة والتعاطف لا يتحقق هذا التبادل من لم فهي ليست اشكالا للحب لكنها اشياء له .

اما اشكال الحب الرئيسية التي يتحقق فيها هذا التبادل فهي الامومة والاخوة والعبادة . ولقد يبدو ان التبادل غير متحقق في كل من هذه الاشكال ، وهذا ما يحاول المؤلف ان يثبت نفسه .

فالامومة الصحيحة ليست هي التي تجعل الطفل مجرد امتداد لذات الام بل هي التي تعاون الطفل على ان يكون له وجوده المستقل ، فيصبح حبا له مثل اي حب اخر في حين انبه ينظر الى الطفل بوصفه حدا يراد الوصول اليه ، لا كما نعلم القرية التي نعد مجرد حد يراد الاستدلاء عنه . فتمسك الام على تربية ذلك الاآت الذي تحبه ، حتى اذا شب الطفل من الطوق اصبح في وسعه ان يبادل والده حبا بصب ، وان يعمل على توليد الحب بدوره في نفسهما ، فيحاول ان يكون محبا بدلا من ان يظل مجرد محبوب . كذلك الحب الاخوي الصحيح : انه مظهر من مظاهر الايمان بقيمة الانسان ، وانتراف ضمنى بالانتماء الخاص الذي تتمتع به كل ذات من الذات ، والتبادل الذي ينطوي عليه الحب الاخوي انما يتجلى بمسلة خاصة في كون كل فرد منا هو في حاجة الى معونة الآخر حتى يحقق ذاته . اما الصداقة فانما نجد في الصلاة اكمل صورة من صور التبادل الحقيقي للفعال بين الانا والاآت الابدي .

ولذا كان الفرع من التحدث عن اشكال الحب هو ابرار نماذجه الانسانية ، فان الفرع من نناول اماط الحب هو الكشف عن اساليبه المختلفة ، اي الطرق التباينة في النظر اليه . واوّل هذه الاماط هو الايروس او العشق . وهنسا يسيطر الكاتب الى التخلي لأول مرة عن مفهوم الحب باعتباره علاقة متبادلة بين اثنين مع انه استبعد على اساس هذا المفهوم كلا من حب الذات والشقة والتعاطف . ففي الايروس يتمم التبادل لانه نعد اتاني من اماط الحب ، حيث العاشق لا

يحب المحبوب بل يحب الحب . وهو مفهوم ظهر في الحضارة اليونانية لم يمتد الرومانسيون في القرن التاسع عشر بمسدة الميلاد . اما الاجابية او المحبة فهي النمط المسيحي ، وتقوم على التبادل والمشاركة .

لهذا بينما يحترق انصار العشق الرابطة الزوجية ، دعت المسيحية الى تقليدها ، ذلك لان الايروس يستند الى التحرك الذاتي وارتك عسلي فلسفة السعادة ، ويقوم على التهور والاندفاع والانفعال العنيف ، في حين ان الاجابية تستند الى التصفية بالذات او تركيز على فلسفة الايتار ، وتقوم على التعامل والاستقرار والوفاء المتبادل .



اما الصداقة فهي علاقة تبادلية تقوم على التكافل او المساواة وهي جهد ايجابي من اجل العمل على لعقق سعادة الاخر وتربيته ولذلك فلا بد ان تقوم على الاعتماد بالآخر ورعايته ومعرفته واحترامه . والصديقان لا يعيان ما عليه كل منهما في صميم الواقع ، بل يعيان ما يروج كل منهما ان يصيره عن طريق الاخر . والصداقة توجه دائما نحو موضوع مشترك او حد كوسط يكون هو الجامع بين الانا والاآت . وبالتالي فلا بد من قيم مشتركة وعبادة موحدة تكون بمثابة نظمية تلاقى الانا والاآت .

واخيرا يتناول المؤلف اطوار الحب الثلاثة ، مولده فسياته فوته . اما مولده فلا يرجع الى مجرد الحاجة الجنسية ، فهذه الحاجة موجهة لدى الحيوان ، بينما الحب يتجاوب مع الترقى النفسي للوجود البشري . وكل ما نعلمه بقلّة الفرائز الجنسية انها تساعد على خلق الجو انفس اللام لمولد الحب فالدالة الحيوية للحب لا يمكن ان تكون التماسك او التفرغ الجنسي . بل هي التحرر من العزلة النفسية .

فالحب يعبر الذات من ضغط القوى الاخلاقية التي تقيم السدود في وجه عملية اشباع الفرائز . والحب عاطفة سائلة على عملية اختيارتنا لموضوع حبا ، وتعتبر اخر فان ماهية الحب تسبق وجوده .

فلذا ما ولد الحب اصبح مشاركة فعالة تم بين حريتين . اما غناء للحب في المحبوب فمعناه سقوط كل علاقة بينهما وباتتالي انهيار الحب نفسه . ومن هنا فان الحب الهيمد بالانغماس او الاسترقاق في شخص المحبوب سرمان ما يتغير نفسه حيلة يستطيع عن طريقها اعادة خلق التمايز او الفاصل التي فستت عليه حالة الانحداد الصولي . وليست هذه الحيلة سوى الانتباه الى خلق العواطف واصطناع الهجر والاكتار من الفياض . فالواصل في مثل هذه العواقي ليس هو دائما مجرد الليل الى الشقاء ، بل هو ضرورة بقاء الحب والمحبوب شخصين متمايزين . فالعواقي ليست غاية في ذاتها بل هي بمثابة الواسطة التي توخر الوصول الى القاية ، وتزيد في الوقتنفسه من حدة الرغبة في بلوغها ، فالحب ليس وحدة بل مشاركة .

وربما كانت الفكرة كذلك وسيلة من الوسائل الصالحة التي يلجأ إليها الحب لإكفاء شطحة الفراغ في نفوس أصحابه ، وكأنما يريد أن يذكرهم بأن موضوع حبهم يمكن أن يتحول ، أو أن الكائن المحبوب هو نفسه كسب متجدد لا بد من المصسل على الاحتفاظ به كل يوم . وهكذا يصبح الحب تكييفا لوجود متغير مع موجود آخر ، وتعبيراً عن ذلك الصراع الذي يتم بين الأنا والآلة في نطاق العالم والتاريخ والزمان .

والزواج يعرض أهله لخطر الرتابة والتكرار والآلة الشاملة في حين أن هذه جميعاً لا تتلاءم مع الحب . وإن كان ما في الزواج من شقاء يرجع إلى أنه يقرب منا الشجرة المشتعلة فلا يترك لنا الفرصة لأن نتعرق شوقاً إليها ، ولتجتمع حين أحبال الحب إلى تكليف أو الزام ، فهي على ما هيته باعتباره عاطفة تلقائية . ومجرى الطفل يوسع من دائرة الأسرة فيجعلها ثلاثية بعد أن كانت ثنائية ، وعندما لا يستطيع الزوجان أن يتقيان مجرد محبين بعيداً الواحد منها الآخر فالحسب ، بل تنشأت عاطفتهم الزوجية ، لكي لا تثبت أن تعود فتلتقي عند رأس الطفل ولكن ظهور الطفل في حياة الزوجين قد يعني أيضاً تباعد الطرفين

الإناسيين للحب ، إذ لا يعود الواحد منهما يلتقي من الآخر سوى العاطفة العادية التي قد تحدث شيئاً من عدم الإكتراث ، أن لم نأفل من العدد في بعض الأحيان .

وهكذا فلان الحب يتم في الزمان فهو معرض للموت . والحب - كما يقول سارتر - يطالب بالتمهد بالوفاء لكنه يقتات في الوقت نفسه من هذا العهد . ولهذا فإن تحول الحب إلى كراهية فعل يسير لا يحتاج إلى كبير عناء . فالحب في دنيا البشر فضيلة سريعة أو قبيحة خاطئة أو - كما يعبر المؤلف - مطلق تسيي . ولئن كان الإنسان يشعر قبل الحب بأنه شيء وعند الحب بأنه كل شيء فإنه يشعر بعد الحب بأنه لا شيء . وهذا هو السبب في أن الحب يتجلبب بنا دائماً بين قطبي الحياة والموت .

ويختتم الدكتور ذكرياً إبراهيم كتابه القيم بقوله : ربما كانت روعة المؤلف البشري أنه مؤلف تسيي يريد دائماً أن يكون مطلقاً ، أو مؤلف زماني يحاول جاهداً أن يكون أبدياً خالداً .

يوسف الشاروني

ARCHIVE



المكتبة الغربية

ABC

روبين م. هولاند وبيتر ليفي
مختارات من شعر ايفتوشنكو

Yevtushenko Selected Poems

Translated with an Introduction

By : Robin Milner - Yulland & Peter Levi

Penguins Books (1963)

ويتر ليفي ، اللذان نجحوا - كما يقولان - الكثير من المعاني في سبيل تقليد شعر ايفتوشنكو وقربه الى الاوزان الانجليزية دون المساس بأصالة صورته وأخيلته . ولعل من المفيد قبل أن نعرض للغمزة أن نفتتح هنا هذه الفقرة التي توضح منهجنا في ترجمة الشعر ومنهجنا في نقله من لغة الى أخرى . . يقولان : « رغم أن هذه الترجمات قام بها شاعر لا يعرف شيئاً من اللغة الروسية عودارس لها من غير الشعراء ، إلا أنه من الطبيعي أن كلا المترجمين مسئول مسئولية كاملة عن كل جزء من أجزاء الترجمة النهائية . فقد كان يدرس اللغة الروسية يرسل الى الشاعر ترجمة المقترحات التي يقع عليها اختياره أولاً بأول ، وكلمة بكلمة ، مصحوبة - في العادة - ببعض الملاحظات والصور المختلفة للترجمة .

وهذه كان العمل يجري فيها متداخلاً حتى تخرج منها قصيدة بالانجليزية ، ويتولى كل منا - على حدة وبالتناوب - فحصها ومراجعتها . وكان من الغلام أن نجتمع مرة أو اثنتين قبل أن يستقر الرأي على كل قصيدة . »

وقد ضمن المترجمان مقدمتهما دراسة مركزة تناولوا فيها الشعر الروسي وحياة ايفتوشنكو ومكانته بين شعراء بلده . وهما يذكران أن لغة فترتين لمعروفين في تاريخ الشعر الروسي ، أولاهما ترتبط باسمي بوشكين وليرمنتوف ، وتقع بين عامي 1810 و 1840 . أما الثانية فتشمل الطود الثلاثة الأولى من هذا القرن ، وتعتبر من أهم الفترات التاريخية في تطور الأدب السوفييتي ، إذ هي فترة الثورة والتجربة العميلة والتنوع ،

في الحقبة الأخيرة من تاريخ الأدب السوفييتي تار الجدل والنقاش على صعيد محلي وعالمي حول شاعرين لخصاً بالآخر فارق السن ، ووجد بينهما طابع التبريد ، أو الجراة بمقتضى ، لم فرقهما الموت فتضى على صداقتهما الناشئة . أولهما واحد من أبناء الجيل القديم المخضرم الذي عاصر القيصرية وشهد الثورة البلشفية ، وعاش في ظلها ، وهو الشاعر الروائي الراحل المعاصر علي جائزة نوبل : يوديس باسترناك . أما الثاني فوليد هذه الثورة وفرسها ، وهو الشاعر الشاب يغني الكساندروفيتش ايفتوشكو . غير أن الجدل والنقاش اللذين أثارهما ايفتوشكو في بلاده ولي خارجها ظالا في الحقيقة ما سبق أن أثاره باسترناك من جيل ونقاش ثم هذا حديثهما إلا بعد وفاته .

بل أن من الغريب أن نجد ما يكتب اليوم من ايفتوشكو في الغرب لا يعنو أن يكون صورة أخسرى لما كتب من قبل عن باسترناك ، ولا تكاد تقرأ اسمه دون إشارة لمسألة سلطه مؤلف « دكتور زنياجو » .

ولقد احتلت سلسلة بنجوين صنفا حين أطلقت على عاتقها منذ سنوات مهمة تعريف قارئ الانجليزية بأروع ما في التراث الشعري العالمي الحديث من أمثال ونماذج . كما أنها خصصت مؤخرأ أعدادا بأكملها للتعريف بالشعراء الأوربيين الحداثيين ، كان لنا منها هذا الكتيب الذي ضم مختارات للشاعر «الزويست» كما يسمونه في إنجلترا وأمريكا . وقد نقلت المختارات الى الانجليزية وقدم لها النتان من الكتلين الانجليز ، أحدهما شاعر والاخر يدرس اللغة الروسية ، وهما : روبين ميلنر جولاند

وقد ظهر خلالها عدد لا بأس به من الشعراء الإبداء ، نشطوا قبل الثورة وبمدها ، وكان عسلى باسم : بلوك وبريسوف وباسترنك وماياكوفسكي وأخسانوف وخليتيكوف وماندلشتام وإيسنين ، وقد آمنوا جميعا بالثورة ومطالب الدولة السوفيتية الخفية ، كما صهرهم النظام الجديد ، وجعلهم ينحون في شعورهم نحو استيعاب الواقع النشأ وتأمله واستيعاد مطالبه . وما أن حل العقد الرابع حتى بدأت مرحلة أخرى دون سابقتها بكثير ، إذ انصر للثورة ، وانطلق بريق الشعراء وصمت أقرهم . ولم يكد ينتهي عام ١٩٢٤ حتى كان الشعراء السابقون قد ماتوا أو انتحروا فيما عدا أخسانوف وماندلشتام وباسترنك الذين صمتوا بدورهم ولم ينتجوا أى جديد إبان هذا العقد . وفى تلك الأثناء ازدادت هيمنة الدولة على الأدب ، ولم يعد للشعراء نصيب كبير في حصة الأجاس الأدبية ، وحل محلهم الروائيين وكتاب القصة . وظلت الحال كذلك حتى أواخر عهد ستالين ، حين ظهر عدد من الشعراء الشبان كان على رأسهم بلغنى اينشتنكو .

ولد اينشتنكو عام ١٩٢٢ ، أى بعد ملى سنوات كثيرة على الثورة والحرب الأهلية وولادة لينين . وفتح مينه على نظام مستلر الى حد كبير ، يكاد يخلو من الصراع بين القديم والتدري والجديد لتطلع الى البناء والتبسي . ولكن هذا الخنى الطموح من أن ينتج الطريق بعد سنوات أمام جيل جديد من الشعراء يمد يديه للامام أجمع ، ويتطلع الى الإنسان أينما كان ، دون أن يترأى إيمانه ببلده ونظامه .

أما حياة اينشتنكو فقد كلفها هو مؤنة البيت من لئاسيلها ، إذ سجنها في شعره بكل دافئها وكبارها . وقد ولد بمدينة « زيبا » في سيبيريا لأب يشتغل بالجيولوجيا وينشئ لأسرة ريفية .

ولعنى منذ طفولته للحياة النشأة في سيبيريا ، صاحبه نشأ ريفيا قوى البنية مفتول المصلاط ، متوينا بسباق الدراجات والبنج بونج وكرة القدم ، لدرجة أنه نشر أول قصائده في صحيفة الواسية عام ١٩٤٩ ، كما كان في طفولته أيضا - أثناء الحرب الثانية - يوزي الفرس والفناء ، ويرجل الشعر الى أن اشتد ساعد موهبته فكانت قصائده تلحن وتغنى وهو يعد أصبي .

والحق اينشتنكو بمحمد موسكو الأدبي لكنه لم يحقق نجاحا يذكر ، ولم يلبث أن هجر الدراسة وتفرغ للشعر . ورغم أنه حاول النظام في سن مبكرة ألا أن موهبته لم تنفع إلى بعد فترة . فقد نشر أول ديوان له عام ١٩٥٢ وتلاه في عام ١٩٥٥ ديوان آخر .

ومنذ ذلك التاريخ اكدل نفسه الخنى ، ولذاع اسمه وردد الناس أشعاره ، لكن الشهرة كلفت لهما غالبا ، إذ لقي هجوما هنيئا من النقاد السوفيت ، واخذت كثير من الصحف الأدبية أعداءه بالكملة للهجوم على شعره يمدون على فالحج وأنه لا يلتزم خطة الحزب . بل أن منظمة الشبيبة طردته من عضويتها اثر نشره قصيدة الطويلة : « مارل زيبا » التي صور فيها طفولته وصباه في سيبيريا وعودته اليها في سن العشرين . وفي عام ١٩٥٩ أصدر ديوانين جديدين ، طبع منهما نحو ١٠ ألف نسخة بيعت فور صدورها . وفي العام التالي أصدر ديوانه الخامس بعنوان « النخلة » . وبعد اتشح ديوانونه والفريا الى التامل وأن كانت تظلمه مسحة من التشاؤم . وتلا ذلك ديوانه السادس عام ١٩٦٢ الذي نكس نفسه (١٠٠ ألف نسخة) عقب صدوره بقليل .

وفي عام ١٩٦٠ سافر اينشتنكو الى الخارج ، حيث زار فرنسا والولايات المتحدة وكوبا وبريطانيا وبعض دول أفريقيا ، ووجد في السفر عملا منشأ لشاعريته ، وطالب له أن يقضى شهورا في الخارج يدافع حب الاستطلاع والبراسة .

ومما يذكر أن اينشتنكو قد تزوج مرتين ، أولاها عام ١٩٥٤ . كما أن له محاولات في كتابة القالة والسيناريو ، وقد اعتاد أن ينشد شعره في الأندية الروسية والمصانع والجامعات والسارح ، وهو يذكر أنه ألفى شعره بنفسه نحو ٢٥ مرة عام ١٩٦١ فقط ! .

لكن ما مكانته بالنسبة لمن سبقه من الشعراء ؟ وما مكانته في شعر بلاده اليوم ؟ . . . لقد حاول المترجمان أن يجيبا على هذين السؤالين فقالا أنه يدين بالكثير للماضي ، لكن شعره يخلو من قووى شاعر مثل خليتيكوف ومن نحا نحوه من شعراء هذا القرن . ولقد أبدى هو نفسه إعجاباه ببلوك وماياكوفسكي وإيسنين وباسترنك . كما أن ثمة رباطا قويا يربط بينه وبين ماياكوفسكي من جهة وإيسنين من جهة أخرى . فهل كياكوفسكي في ثورته الطبيعية وكراهيته للجمود والمبودية والنشال ، وهو كاييسين صبرى دلى جاء الى المدينة لكن مسقط رأسه يشده اليه على الدوام .

ومع ذلك كله فإنه شاعر أصيل ، لديه مقدرة على الحرية بغير جهد ، والتنقل من الأفكار الاجتماعية الى الأفكار الشخصية ومن الدعاية الى الفنية ، وبالتالي فإنه قادر على أن يمزج كل هذا في القصيدة الواحدة بموهبة وصالة . وهو في شعره جميعه وأصبي يستمد مادته من الحياة ، متفائل بمؤمن بمستقبل بلاده ، فيه رقة وعلوية مزوجتان يروح فكله سافرة .

ويجب للمترجمان على ما أثارته الصحافة الغربية حول اينشتنكو بقولهما أن هذه الصحافة قد تعدلت عن اينشتنكو كشخصي الخنى مما تعدلت منه كموضوع أو كشاعر ، وأنها راحت تفرق في وصف لئاسه ونفقاته وعاداته وأهميته السياسية دون أن يلقوا شعره بنصيب فصيل من التملق والتعطيل ، هذا في الواف الذى لقيته فيه الصحافة باسم « شاعر روسيا الشاب الساحط » ، وزعمت أنه يمادى الشيوعية . ومع ذلك كله فإن شعر اينشتنكو خير دليل على كذب هذه الإداعات ، وذلك في مهمة هذه المختارات ومقدمتها كما يقول المترجمان ، أى إزالة الأكاذيب وإظهار الوجه الحقيقي لشخصية اينشتنكو وشعره . ونأى به هذا المختارات وعذبات التنان وعشرون قصيدة منها قصيدة « مارل زيبا » وتقع وحدها في ٢٢ صفحة في الترجمة الإنجليزية ، وهي أطول قصائد اينشتنكو وأجودها ، كما أنها سبب شهرته في الاتحاد السوفيتي ، ويعن أن اعتبر بحق وثيقة لحياة اينشتنكو وشعره . فهو يصور فيها طفولته وأسرته وفلاحي الخنقة في سيبيريا ، كما يستخدم طريقة « العودة للماضي » في تصوير الثورة والحرب الأهلية ، وقد نشر فيها آراءه في الفن والحياة من حوله ، كراهيه في ستالين وماياكوفسكي وبيري .

وتكتفى هنا بثلاث قصائد قصيرة الى حد ما لكنها تحمل كل خصائص اينشتنكو وملائع شعره . وأولها قصيدة « الأكاذيب » :
خطا أن تكذب على الشباب
خطا أن تثبت له أن الأكاذيب حقائق
خطا أن تقول له أن الله في سجنائه
وأن العالم في خير
الشباب يعرف ما تعنيه . الشهاب صلب

اما القصيدة الثالثة فتوالتها « كلام » ولكنه يرد فيها على
نقاده كما ناشد امه في قصيدته السابقة .. يقول :

فلأولى اى انك وجل شجاع
وانا لست شجاعا

الشجاعة لم تكن قط صلتى
ما فكرت الا في انها لا تناسب مسمى
حتى اجد نفسى منها كما فعل الآخرون
ان شيئا من علوماتى الاساسية لم يهتز

صولى لا اكتر من ضحكك على الزيف
ثم اخل شيئا اكثر من الى الكتب
قط لم اتي ولم اشعر بأحد

ثم اخل عنى شيئا شغل لكبرى
نصرت كل من استحق ان ينصر

ودعيت صدى الوهبة من الكتاب الجاهل
(اتي اقبل ما ينيل ان يكون على آية حال)

والآن يحتضنوني قائلين لي اتنى شجاع
كم سيخجل أطفالنا اشد الخجل

اذ يشرعون في الانتقام من هذه الاحوال في النهاية
وهم يدركون كم يمكن ان تظهر النزاعة العامة

مثل الشجاعة في زمن قريب كهذا

ان يبحثوك على آية حال ما يزال فاس العود وأعدا ، لكن
هل يمكن ان يسد فراغ شاعر عظيم كجيموفسكى الذى انتصر في
عهد ستالين ؟ .. جواب ذلك لحمله السترات القليلة اللامعة
بلا شك ، والا كانت « الزوبعة » في فنجان !

« على شئش »

قل له ان الصاعب لا يمكن ان تصي
ولا تدعه يرى ما سوف يكون فقط
لكن دعه يرى بوضوح هذه الزمنة الراهنة
قل له ان المتيات موجودة
واته ينيل ان يصطدم بها
اياله ان تصغر من هذا أنت على علم به
فانه سيكدر نفسه ، ويترايد
وسوف لا يعطى تائبنا فيما بعد
عما فعلوا منه نحن في انفسنا .
والقصيدة الثانية عنوانها « عيد الميلاد » :
امام ، دعيني امثلك
على عيد ميلاد ولدك
اتك قللة عليه اشد التعلق
وها هنا يرد ،

اله يكسب قليلا ، ولواجه في غير محله
انه طويل ، اخذ في التصول ، لم يخلق ذلته
كراه ، يالها من نظرة حب يالسة !
منك استمد طريده ، استمد الثورة
انك لم تبغليه مرفها او مشهورا
فموهته الوحيدة هي الجسارة
افنى نوافله
ادخل رزقة الطيور على الافسان المورقة
قلبي هنيهة الدهشتين
اصطه « كراسته » وزجاجة حبره
اصطه جرعة من اللبن ولاخليفة (3) يمضى

فريدا فورد هام مقدمة لنظريات يونج في علم النفس

An Introduction to Jung's Psychology
by : Frieda Fordham, Pelican Series 1962



اما يونج فقد ولد بسويسرا عام ١٨٧٥ - واتم تعليمه في
بازل حيث حصل على بكالوريوس الطب ، وبدأ منذ عام ١٩٠٠
في ممارسة مهنته كطبيب نفس بمستشفى بارجولز للأعراض
العقلية ببرويرخ وفي العيادة النمسية بجامعة بازل . ودرس على
يد جانيه Janet في باريس عام ١٩٠٢ ، ثم على يد أوجان
بليولر Eugane Bleuler ومنذ عام ١٩٠٢ ، ثم على يد أوجان
الحامسة من حياة يونج فهي الفترة التي التقى فيها بالعلماء
النمساويين الكبار سيجموند فرويد شخصيا عام ١٩٠٧ حيث وجدوا
تقاربا فكريا واضحا بينهما مما أدى الى قيام صداقة حميمة
وببادل كبرى حسب استمر لعواما عديدة .

ويجب ان تنفي هنا ما قد يكون متربسا في الأذهان من أن
يونيغ وصل الى افكاره خلال ملائته بفرويد او مزاملته له ،
لان اتجاهات يونج بدأت تتضح منذ فترة باكرا من نموه العقلي .
وينتسج افكار يونج واتساعها في اللاشعور برز له تباعها
الواضح مع آراء فرويد في التكوين النفسي للإنسان .. وخلال
لك الفترة أصدر كتابه الموسوم « سيكولوجية اللاشعور » حيث

هذا الكتاب - على صغر حجمه (١٢٨ صفحة) - يعتبر
مخللا طبيا لفهم النظرية النفسية منذ كارل جوستاف يونج
صاحب مدرسة علم النفس التحليلي . وقيمة هذا الكتاب في
انه يعرض بأسلوب دقيق مركز الاسس النظرية التي اعتبرها يونج
اساسا لفهم النفس الانسانية ، والتي غابت عن أذهان الكثيرين
من التالفين حتى التخصصين منهم في علم النفس ، تحت سيطرة
اكتار فرويد ، من جهة ، ولان يونج ، من جهة اخرى ، لم يحاول
ان يضع نظرية بالمعنى الجامد للمفهوم النظرية ، وانما حاول ان
يسع على حد قوله : « افتراهات وسعالات عقلية نظرية علمية
وجديدة مع الكائنات الانسانية » . وما يرفع من قيمة هذا الكتاب
ايضا ان مؤلفته وهي « فريدا فورد هام » تمثل محلة نفسية
والمعلمة في جمعية علم النفس التحليلي بسجود يونج التحريسي
بلندن . لذلك فلتتنا بالؤلفة لاشرها شاذية ، لانها محبة
بأسرار العمل الذي اخذت على ماضيها تحقيته . لهذا فلم يكن
من الغريب ان يقدم يونج بنفسه للكتاب في صفح امصياه
بالؤلفة وبطريقتها في عرض افكاره السيكولوجية .

الأحلام فيه ما يترك مفاهيمه من مفاهيم فرويد .. وبدأت القطيعة - منذ ذلك الوقت - بين يونج وفرويد .. فأخذت أعمال فرويد وتلاميذه تعرف بمدرسة التحليل النفسي ، بينما أخذت أعمال يونج وتلاميذه تنتمي إلى مدرسة « علم النفس التطبيقي وأحيانا وعلم نفس المتعد النفسية أحيانا أخرى » .

وكتاب فرودهام يعرض في سبعة فصول أعمال يونج ومفاهيمه التحليلية - تبدأ الألفة بمقدمة عامة ، ثم تفرد فصلا للأناط والسيكولوجية Psychological Types وتخصص الفصل الثالث للاشعور الجمعي Collective unconscious والمطلة أما الفصل الرابع فمعرض فيه لمفهوم الدين وعلائكه بالعمليات الفردية . ومعرض في الفصل الخامس الأسس النظرية للعلاج النفسي Psychotherapy وفي الفصل السادس تكتب من تفسير الأحلام وفي السابع تبين علاقة التربية بعلم النفس .

ومعرض الآن أهم ما تعرضت له المؤلف في كتاب في هذا الكتاب - في المقدمة تعرف المؤلف للهيكل التحليلي لمسلم النفس منذ يونج ، فتيما يعرض وجهة نظر يونج تجاه المخط القديم بين مفهومي عقل Mental ونفس Psychical وقصد اختار يونج مصطلح « نفس » ليعطي كلا من المجال الشعوري والاشعوري للذات - بينما قصر مفهوم « عقل » على المجال الشعوري الشعوري منها وحسب .

ومفهوم يونج من النفس مفهوما من جهاز دينامي في حركة مستمرة تتغيرها الذات ، وهو يطلق كلمة اللبيدو Libido اللايتية على تلك الطاقة النفسية العامة - ومفهوم يونج من اللبيدو يختلف من مفهوم فرويد عنه .. ليحيي نهج أن يونج يطلق الكلمة على الطاقة النفسية عموما ، نهج أن فرويد يطلقها على ذلك الجانب من الجهاز النفسي الجنسي بالإنسان Id ، في مستودع الغرائز الجنسية eros والغرائز السادونية thantos وهو بهذا المعنى يقتصر على جانب من الاشعور في الذات أما عند يونج فهو يعطي جوانب شعورية ولا شعورية من الطاقة النفسية .

والحركة الطبيعية للبيدو عند يونج إما حركة متقدمة ، أو حركة رجاعة ، ويطلق يونج مفهوم التقدم progression على الحركة النفسية والتي من شأنها إرضاء الحاجات الشعورية للشخصية . ويطلق مفهوم التكرس regression على الحركة الرجاعة التي من شأنها إرضاء الحاجات اللاشعورية . والتقدم من شأنه بهذا المعنى العمل على تكيف الفرد الاجتماعي ببيئته . أما التكرس فمن شأنه تكيف الفرد لحاجاته الداخلية - ومعنى التكرس عند يونج يختلف عن مفهوم البعوى له - كمفهوم فرويد منه بأنه ميكانيزم دفاعي يسهروه الآن في وجه الوجدانات والحوالز الغريزية المقلدة الصاعدة من « إبي » فهو ميكانيزم مرهق يتراجع فيه الآن إلى مراحله بدائية من الإشباع النفسي الباطل - فيونج نفسه يستخدمه بمعنىين : أما رجعة إلى حالة حالة بعد فترة من التكرس والانسحاب العقلي المستمر ، وأما رجعة إلى مراحل مبكرة من النمو النفسي ولكنها ليست بالضرورة خاطئة أو مرفية كما هي عند فرويد واتصاره .

وهكذا تنتقل المؤلف من فكرة إلى فكرة بصورة منهجية ، لا يموهها التبدل ، ولا تنسى أن تعرض في المقدمة لمفهوم الاشعور عند يونج . ذلك المفهوم ، الذي ظل وسيطلا اكتشافا خطيرا يحمل

كثيرا من مفاهيم النفس - ويتر لنا الطريق إلى فهم الكثير من مفاهيمه وملاحياتها - ومفهوم الاشعور عند يونج قوة تلمس نتائجه ولا تحسه - هو مختلف عن الشعور ومستقل عنه ، ولكنه أكثر منه قدرة وقاطية .. فهو يؤثر في العقل الشعوري ويوجه طريقته .

والاشعور ظاهرة عامة في حياة كل فرد لا يقتصر على الحالات الشاذة - كما قد يعتقد لأول وهلة - ولكنه يبرز حتى في حياة السوياء والأمحاء فليس من النادر أن نرى أنفسنا وقد صدمت منا أطفال لا ندرى كنه دوافعها الحقيقية ، ليصبح احدا وقد ملأه الدهشة « ما الذي دعاني ؟ » .

ولا تنسى المؤلف أن تعرض في جزء من المقدمة وفي الفصل الثالث كله عمل يونج الذي ميز فيه بين نوعين من الاشعور : ١ - الاشعور الشعوري conscious ٢ - الاشعور الجمعي collective unconscious

أما الاشعور الشعوري فيطلق عليه يونج اسم الظل Libido والظل كائن وضيع inferior يعيش في ذاتنا - هو تلك القوة الهائلة التي تصارع العرد للقيام بأعمال لا يسمح له شعوره بها - هو بمثابة صستر هايد - الجانب الشرير الضمر - في ذات الدكتور جيكيل - الجانب الرمزي للذات الشعورية الواعية - وفي هذا الجزء من الشخصية تكمن كل الرغبات المسممة والاضغاث البربرية . وكل ما لا نرضى منه الجماعة -

والجدير بالذكر هنا أن ذلك الجانب لا يتغير بأساليب التربية المألوفة ، لأنه هو طفولنا بما فيها من أنانية لظرفية والندفاعة خالصة - بل أنه وجد منذ أن خطا الإنسان خطواته الأولى على الأرض - ويطلقك المي يصبح الشر طبيعة فريزية متعصبة في النفس الإنسانية - ويكترى على الإنسان أن يظل يصارع تلك الرغبات ، فينصره أحيانا ويقتصر عليه في حالات الجفون والبربرية - ولكنه لا يستسلم مغالبتها أبدا فهي جزء من ذاته وإذا أفتانها فقد أفتى نفسه - وإنما يطبقها ويحول من مجراها فيكون الفنان المبدع أو البشري الخلاق أو العالم المذؤوب - أو يكبتها فيكون الشخص المعادي الذي يمارس الحياة الاجتماعية - أو يطال في كبتها ليكون الممرض النفسي « المصناب » بفشائه المختلفة من قلق أو كآبة أو حالات هستيرية تطمح كآبها على اليلد أحيانا في حالات المي أو الشلل الوطيفي .

أما الاشعور الجمعي فهو يشمل طبقة معينة من الاشعور العمق جطورا وأكثر أصلا في الناس من الظل - أي الاشعور الشعوري .

أولى انماط الاشعور الجمعي التي اهتم بها يونج وعالجتها فرودهام بأسباب : نمط الذكورة والانوثة - فلي رأى يونج أنه طالما أن الرجل والانثى شخصية وفلا بالتساوي .. فإن الفرق الوحيد بين الذكر والانثى يتروك في مستوى الظل من كل منهما ، فظل الرجل ذكري بينما ظل المرأة أنثوي - ومن رآه أن انظرقة سلوكية لا طبيعية . فالاشعور الذكري يشتمل على عصر نسائي والعكس بالعكس - والرجل ليس رجسلا في كل الأوقات - والانثى ليست أنثى في كل الأوقات - ودالما نجد في ذات الشخص سمات ذكورية تعيش جنبها إلى جنب مع السمات الانثوية - فالتكر الذكور وجسولة لا يخفون مظاهر المطف والركة من الأطفال أو النساء - وأتري الرجال لا يفهم من الاستسلام لمواظفه في حساساته الخاصة فيصبح أنسانا وفودا

رفيقا . يقول يونج في هذا المعنى « توجد في لا شعور الرجل انماض ذات طبيعة اتزوية وهي التي تمكنه من فهم طبيعة المرأة » . والنمط الاتزوي في اللاشعور الجسمي للرجل يتشكل ، اول ما يتشكل ، من خلال العلاقة بالأم . فمن خلال هذه العلاقة يعمل الشخص خبرته الاولى (العلاقة مع الابن) . وكثيرا ما نجد رجلا عاجزين عن التحرر من تلك العلاقة الامية فتقتل حياتهم سلسلة من المثمل المتلاحق في ملاقاتهم بالجنس الآخر .



والجدير بالملاحظة أن خبرة الطفل بألمه تكتسب بثوب ذاتي . فلا يكتفى أن تتعامل من كيفة معاملة الام للطفل . وإنما - الأكثر فاعلية وفيها - أن تتعامل من شعور الطفل آزاد تلك المعاملة . أما المتحرر الذكري في المرأة فينبغي من ثلاث مصادر : الصورة العامة الموروثة ، وخبرتها بالذكورة التي تأتيها من خلال ملاحظته من علاقات بالرجال في حياتها كالأب . ثم عنصر الذكورة الكائن في ذاتها .

ويشير المتحرر الذكري في المرأة من نفسه صهيروا ايجابيا خلال ما يتوهم به المرأة من امثال ذكورية في صميمها .. ولعل هذا هو ما يمكن وراء تغلب المرأة من امثالها الطبيعية وخروجها اثناء الحروب مثلا لتقوم ببعض الاعمال البدائية . ولكن المرأة حينئذ تقوم بمثل هذه الاعمال انما تصنعها بصيغة اتزوية فهي إذ تخرج اثناء الحرب انما لتقوم بأعمال التحريض مثلا . وإذا كانت الذكورة والانوثة تعطين أسيلين يردان الى نطاق اللاشعور الجسمي فانها ليسا بالتعطين الوحيدتين في النماط . فالي في اللاشعور يرد يونج كل ما من شأنه العمل على ادامة تقاليد وعادات السلالة .. ويرد اليه امثال السحر والاساطير التي تعال الى مجتمعات مختلفة بطريقة مشابهة ليعود للمرأة .. ويرد اليه الاحلام ذات المحتوى السالبي .. والرموز المأففة كرمز « آتنا الارشي » .

ومن النماط اللاشعور الجسمي التي اهتم بها يونج في كثير من كتاباته ، واورث لها فريدا فوردهام نصلا كاملا : الدين religion ونظرية يونج في الدين نظرية اقرب الى الواقع ولا تصدم الكثيرين في معتقداتهم على عكس من كانوا يرون في الدين خداعا illusion وخدوبا من الواقع وعوذة الى حسنة الطفولة . وقد كان فرويد يرى في الدين ما كان يراه في الاراضى النفسية التي كان يعالجها ، تنطبق عليه كل اعراض الصبب التهمسرى compulsion neurosis فالقسوس التي يقوم بها المتدين كالكلام او الصوم او التطهير البشع اصبه بما يفعله الحزازي obsessed الذي يقتل في اليوم آلاف الفرات اختلاسا تعزيا نتيجة احساس لا شعوري ذفين بالالم والنجاسة .

أما الدين - عند يونج - فهو وظيفة طبيعية ترتب بانبيائها صحة الانسان النفسية ، واستقراره الوجداني . فمن طريق هذا الانبعاث يرتبط عالم الفرد الداخلي والخارجي بدرجة متساوية - والسمة الجوهرية في الدين هي التعبير الشعوري عن انماض مختلفة في غيابها اللاشعور ، وهي وظيفة تعجز عن ادائها أي معرفة عليية .

والدين عند يونج مفهوم دينامي .. وديناميته تلك هي التي تجعل من الحب والغيرة يمكن أن تقوم بتعريف واضح محدد له .. وقد عبرت هذه الدينامية هو نفسها في اللغوي ، في

حركات الانسلاخ ، في الحسروب المعاكسة ، في الانطوائيات الدنيوية ، في سيطرة السحرة كم في تعذيبهم ، في الجهودات الفخلفة المجدبة التي جعلت الناس يتبعون العابد ، ويتشبهون الساجد والتكاسي . كما تعبر اليوم من نفسها في الحركات المتعددة كالتشويق والفنلزي والمخاضية .

ويرى يونج أن في نفس كل منا وبالدات في منطقة اللاشعور الجسمي صورة - ه - وكل انسان محتاج لأن يغير هذه الصورة وإن يشعر بسلامتها لانتكالك المعاكسة التي يطمعها به دينه . وإذا لم يحدث ذلك فإن التماسا خطرا سيحترى الشخصية الانسانية « بينما قد تكون في مظهرها متدبنة فانها في داخلها بربرية متوحشة » .

والفصل الذي لقرده المؤلف للانماط السيكلوجية جسدبر بالتفتا ، لذا كان كل اهتمامها منصب في غير هذا الفصل من اللاشعور وانماطه وطبقاته . فان هذا الفصل بالدات يناقش بناء الشعور عند يونج .

وتتمركز مساهمة يونج في علم النفس الشعوري بتجديده بين تعطين من الاتجاهات يحويان كل الشخصيات الانسانية بـما في اتجاهاتها من تروغ واختلاف وهما : النمط النظوي والنمط الانبساطي .

والنمط الانطوائي يطلق على مجموعة من الاشخاص تتميز بانحيازهم على خاص يتقدمهم الى عالم الذات وتتبع احوالها والبعيد عن الآخرين والشعور في الانا لا الآخر .. بل يصحح الآخر هنا مجرد ضايف سيكلوجي واستنداد لاما وانكاسية لا .. بمسيرة أخرى غير شخص مرجس الوجه الليبوي عنده الى الداخل وأخيرا يصب في الذات بالمعنى الفرويدى .

أما الانبياء الانبساطي فهو يطلق على مجموعة من الاشخاص تتميز بتبؤهم تقلى يتقدمهم الى الارتباط بالجماعة والنمو من عالم الذات او التمركز حولها . يبدو من الناحية النفسية متفانكا متحمسا وان كان حماسه لا يدوم طويلا . بمسيرة أخرى فهو شخص اتجه عنده الليبوي نحو الخارج بالمعنى الفرويدى . والمخوف في هذا المجال هو تاريخية هذا التعبير لتكاملها نمطان يبرزان منذ الطفولة المبكرة . بل ان يونج ينجه الى اعتبارهما تعطين لطريين .

تلك هي الصورة المجدبة للكتاب تركنا في عرضها كثيرا من التفاصيل ويعنى التفتينات النفسية التي تفيد الشخص من ولعل الفرويدي يراه من خلال هذا العرض التفتينات المتكامل وتراء المؤلف وتركيز العالم . ولو أن الكتابة استطاعت أن تحرر نفسها من الطريقة المدرسية في العرض ليلقت القدوة ، ويؤخذ على المؤلف أيضا أن الكتاب - على سفره - تتكرر فيه بعض الاكاذب في الفصول المختلفة بصورة ملة وعملها في ذلك واضح للعالم الذي تعرضت له ، وجعل غصب مثله يصعب تعظيم الكثرة في فصول محددة .. وهو نفسه لم يستطع ذلك في أي من كتبه .

وتقدرنا ليونج - مع ذلك - لا ينسبنا أن مفهومه من اللاشعور مفهوم يشوبه القنوص واللغوي وعدم التعديد في الوقت الذي تميز فيه زميله فرويد بالتعديد والتفطيط النظم لهذه المنطقة الجهرولة من الذات - ومع هذا فاننا نتعرف بأن هناك تقاربا واضحا بينهما في مفاهيمهما من اللاشعور .. فهاير

ونظرية يونج - كما عرضتها فرويدهام - في التجميع بين اللاكورة والآتية - همل الفروق التشريعية بين الذكر والأنثى ولا اعتقد أن هناك وجهة نظريته لها النجاح وهي همل تلك الناحية التشريعية في تحديد الطلق... هذه حقيقة لم تفت على سيجمند فرويد فاستغلها كاحسن ما بكون الاستغلال .

عبد الستار أبراهيم محمد

اكثر مما كان يعتقد فرويد أو يونج . مفهوم « الظل » عند يونج يكالي تقريبا مفهوم الهى عند فرويد .. ولذا اعدنا الفكر في الوظائف التي يرددها يونج الى اللاشعور الجسي رأينا تناسبا واضحا بما رده فرويد الى الانا الاملى .. مع فروق في التفاصيل والتكوينات العقلية لئلا الاملى عند فرويد .

ا.ج. ستولز و.ب. ييتس شعره وفكره

W. B. YEATS HIS POETRY AND THOUGHT

by: A. G. STOCK

Cambridge University Press, 1961.



الملاحين واما من كبار اللاه . كان هؤلاء اللاه يعيشون في بيوت كبيرة ولكنهم اخلوا بشناقصون منذ عام ١٩١٦ - بل وقبل ذلك - الى أن قضت الحرب الاهلية على من بنى منهم . وقد كتب ييتس عن هؤلاء اللاه وبيوتاتهم الكبيرة في حين وعطف . اما اللاهون فكانوا يعيشون في ضياء حملة التراث الايرلندي وإن لم يحتلوا مكان الصدارة في نظيره مثلما كان الشأن مع معاصره جيمسون ميتلجتون ستج .

ان في الحضارة الصناعية عناصر لابد وان تستثير كراهية الفنان . وهكذا ما اراه واضعا في الادب الانجليزي منذ القرن الثامن عشر . وفي فرنسا هذا جهر بالهجوم عليها ثلاثة فنانين مختلفين جدا الاختلاف هم : د.ه. لورانس والدوس هكسلي و ت.س. اليوت . ولكن الثلاثة ظاوا - رغم ذلك - يدورون في فلكها ولا يصدمون مهربا منها . اما لورانس فقد هاجم الحضارة ثم مات . واما هكسلي فقد اتجه الى التصوف في معاناة ثم عنها رواياته . واما اليوت فلم يتحول الى الدين الا بعد أن شرح الحضارة في قصيدته « الارض البياض » .

وقد ترتب على هذا الاختلاف بين طبيعة الحياة الايرلندية والحياة الانجليزية ان كان الكتاب الايرلنديون - على وجه العموم - اقل اهتماما من اقرانهم الانجليز بدراسة الحضارة الصناعية وما خلقت من آثار فنية وروحية . هذا لقد استأثرت هذه المشكلة باهتمام الكتاب الايرلندي سين اوكاس ولكن اغلب بنى جلسته - بما فيهم ييتس - قد وجهوا اهتمامهم الى موضوعات اخرى .

وفي الفصل الثاني (الكتاب الاول) تحدث المؤلف في ديوان (جولات اوزيرين وقصائد اخرى) وهو الديوان الاول لييتس وقد نشر في لندن عام ١٨٨٩ . كان ييتس في الرابعة والعشرين حينذاك وكان حريصا على ان يطلق في ديوانه مالا من صنعه تمره الاحلام . وهكذا خرج الديوان قطعة من الادب الرومانسي المتكفي الالفاظ البعيد من لغة الحياة . وقد ضم الديوان ثلاث قصائد من وهي الهند ما يقع بالي الفكر الهندوسي في مشاعرنا . فلي قصائده تزي يدلة الفكرة القليلة بان الله هو الشكل المثالي لكل مخلوق حي ، وهي الفكرة التي اطلقت به الى كراهية المادة وتعبجسد

هذا الكتاب دراسة ضافية لشعر الشاعر الايرلندي الكبير وليم بتر ييتس (١٨٦٥ - ١٩٢٩) في مراحل حياته المختلفة . وتقول الأستاذة ستولز مؤلفة الكتاب ان ييتس كان يعيا في حالة اكتشاف مستمر لذاته مما يجعل كل قصيدة من قصائده تلقي الضوء على اخواتها . وهكذا فكل صبح ان القصيدة عنده وحدة عضوية قائمة براسها ، فقد صبح ايضا ان قصائده الاولى تزداد عمقا حين ننظر اليها في ضوء قصائده الاخيرة وان فسيالده الاخيرة تزداد وضوحا حين ننظر اليها في ضوء قصائده الاولى . ولا كانت المؤلف ترى ان مسرحيات ييتس الشعرية تستحق بحثا مفردا فانها لم تشر اليها الا عاما ، والكتاب - الى ذلك - معني بعرض الافكار التي تتردد في قصائد ييتس باعتبار هذه الافكار جزءا من كيان القصائد نفسها . وتولي المؤلف التراث الايرلندي الذي درج ييتس في كتله اهتماما كبيرا ، لأن هذا التراث يمنح قصائده مذاقا فريدا . وللفكر الشرقي ايضا نصيب في انتساج ييتس وان كان هذا النصيب محدود النطاق .

والفصل الاول من الكتاب (العقلية) يتولى بالبيان وصف البيئة الايرلندية التي شب شاعرنا فيها والفكر من معاصرها . تقول المؤلف : (لقد كان و.ب. ييتس يكتب بالانجليزية وكان شيسر ويليك وشل وجماعة مقلين روفيلين من بين اساتذته ولكن ميلاده ومزاجه والروف نشاته بل واختياره المتعمد للعروس .. كلها تجعله شاعر انتقالي الايرلندية) . والانتقالي الايرلندية تختلف من تقاليد انجيتسيرا اختلافا يتجاوز مظاهر السطح الى مناهج التفكير ونظام الاقتصاد ومذاهب الدين . وقد كان ييتس على ذكر من هذا الاختلاف الذي فتح له افاقا جديدة واعدة بالصور والرموز . ونرى ان ادراكه لهذه الحقيقة يمنح كل قصائده من اولها الى اخرها - وحدة فنيتموصولة الطاقات . ان ايرلندا - حين ولد ييتس - لم تكن تضم عددا كبيرة ، بل ولا هي كانت تتألف من مجموعة قري .

لقد كانت جزيرة تنتشر الاواكح في ارجائها ، ويكاد كل كوخ ان يكون وحدها مستقلة بذاتها ، ولم تكن بلدا متناحيا كسائر بلدان اوروبا الغربية ولا هي كانت تعوى طبقة متوسطة كبيرة العدد كما هو الحال في إنجلترا . ولهذا نجد ابطسال ييتس اما من

يقول : (أن قرأتى من الرجال والتساء العاديين قد زأدها لون من التشقق للدمر للطق والدين مع عبادة للجمال الحسى ، وقد كان الحاجز القاتم بينى وبين سوى من الناس يعاقبى أحيانا بالرعب ، وكان خجلي - إذ لا أجد خيرا من هذه الكلمة - مغرطا يعول بينى وبين الإصلاح من الفكارى . وهكذا كتبت - وأنا احتقر بالمبادئ والكراهية - شعرا يعبر عن المواقف الشائعة بين كل الماخذين من الشبان والفتيات ولعل هذا أن يفسر قيام شعري - حتى عهد قريب - على القصدات التى كتبتها جميعا قبل بلوغى السابعة والعشرين) .



وبى الفصل الخامس نحاول المؤلفة تتبع المؤثرات التى وجهت بيتس في طفولته . فقد كان أبوه ج.ب. بيتس رساما متفانيا فى عمله . وكان الأب يصادق ابنهارة ويتلو عليهم الشعر فى طفولتهم . وقد التحق بيتس بمدرسة الفنون فى دبلن ، وكان لآبيه الفضل فى توجيه اهتمامه إلى الشعر القصصى والمدرسى . على أن أهم ما تعلمه شاعرنا من أبيه هو أن الفنان إنما يعيش ليطلق أعماله الفنية .

كان بيتس وقتها فيورا يرجو الحرية لوطنه ولكنه لم يتماثلف قط مع المفاهيم السياسية أو الصلوات التى تتربى في الضلام وكان يؤمن بأن للشعب الأيرلندى تقاليده التى تلوح قاتليد الانجليز نبالا ورفعة . وحينما اضطرب جو السياسة فى أيرلندا تحول باهتمامه إلى الأدب لأنه كان مؤمنا بأن البليغة التفلسفية والفنية لا تقل أهمية من المطالبة بالحرية السياسية ، يقول : « لا أدب عظيم بلا فومية ، ولا فومية عظيمة بلا أدب » . ولم يكن اشتراكه في القضاء على مسرح قوسى أيرلندى إلا تعبيرا عن رغبته فى خلق المسرحية الأيرلندية الصحيحة .

ولفتت المؤلفة نظر القارىء إلى ولع بيتس بالسعر وكل مايلعب وراء الطبيعة حتى لقد كتب وهو فى السابعة والعشرين يقول أنه لولا اهتمامه بالسفسر لما تمكن من دراسة بليكه أو كتابه « الكونيتية كالتين » . وكان والد بيتس لا أفرأ وهكذا لم يجد شاعرنا ما يدفعه إلى التمسك بالتعاليم المسيحية تمسكا دقيقا . على أن مزاجه - فى جوهره - كان مزاجا دينيا يقره الواقعية العلمية التى تفسر قواهر الروح تفسيرا ماديا . وعندما كان طالباً فى مدرسة دبلن للفنون دعا بالاشتراك مع بعض أصدقائه شبانيا برهميا يدعى « موهينى تشاترجى » ليلتزم مبادئ الفلسفة الشرقية . وقد علمهم هذا البرهمي « أن كل ما ندركه - بما فى ذلك ما نسميه اشباحا - موجود فى العالم الخارجى ، وأن هذا العالم بمثابة مجرى يتدفق دون أن يتحكم فيه الإنسان ، وأنفسا لستأ سوى راياء ، وما الخلاص إلا إهمساد هذه أكرابا بحيث لاتعصى شيتا » . وإيمان بيتس بالسعر لايتبع فى كتبه المعرفة قدر ما يتفصح فى مذكراته التى لم تشر بعد ، فقد كان يشهد الجلسات الروحية ، والتحق بجمعية سرية تمارس الشعر . وكان يستهدف وضع نفسه فى حالات من الليبوبة تأليه معوها الرؤى من مناطق مجهولة . ولم يكن يخفى عليه أنزواءه قد لايعود أن تكون أكثر من أسلاف لمخاطفه وإمانيه ، ولكنه كان يرجو أن تنتهى به - ومع ذلك إلى لون من الحكمة يجعله سواء .

الحياة وتلك قيمة الفرد . فقد وجد بيتس فى الفكر الكونيتى شيئا يوافق مزاجه ويصل له التشكال التى لاتعنها المسيحية أو العلم . ولكن قصائد ديوانه - بعد ذلك - تفرط بجلودها فى بيتسه الأيرلندية . فهناك مجموعة قصائد من سكان ريف أيرلندا تسم بواقعية صورية ، وهناك قصائد عن الجنيات الأتالي يؤمن الأيرلنديون بوجودها إيماناً حقيقاً ، وهناك القصيدة « جنون الملك جول » التى تصور الصراع بين كبرياء الإنسان وتوفقه إلى الجسد الفلبوى من ناحية ورأيتة فى التوحد والانزوال من ناحية أخرى . فى هذه القصيدة يصاب الملك جول بالجنون ليلقى بالنتاج فى لحظة انتصاره ، ويتجول فى الغابات وأجدا فتنة لا تقاوم - وعذابا أيضا - فى هبوب الريح وتسايط أوراق الشجر وتماتها . وهذا الصراع الذى تصوره القصيدة قد قام فى نفس بيتس ، وهلل يشغله طوال حياته ، ولكنه وجسد ماديه أيضا فى الأساطير الأيرلندية من حوله .

وبى الفصل الثالث (المسرحيات الأولى) تقول المؤلفة أنه لا يمكن الفصل بين مسرحيات بيتس وقصائده ، فقد كتب بيتس شعرا دراميا قبل أن يتجه إلى المسرح كما أن بعض أجزاء مسرحياته الشعرية يمكن أن تعد قصائد قافية برأسها . وإذا كان ديوان بيتس الأول (جولان أوزين) ذا طابع سجع وثنى فقدس جاءت مسرحيته الأولى (الكونيتية كالتين) ذات طابع مسيحى . وفى هذه المسرحية نجد مجاعة نحل يافس أيرلندا حتى لتتضر البطة إلى بيع دوحها للشيطن لقاء اتفاق مستأجرى أرضها من ألوت جوعا وكفافها السماء على ذلك يلقاهاها هى الأخرى ، أو كصفا يقول الملك فى نهاية المسرحية :

أن نور الأثران
ينظر دائما إلى الباعث لا إلى القبله
أما طل الظلال فلا ينظر إلا إلى القبله .

ولهذه المسرحية مزايافا كما أن لها هيوبيا : فى ممتاز بالبساطة والوضوح والجمال وأحكام الصنعة المسرحية وطريقة الشعر لغتى الحال ، ولكنها - من ناحية أخرى - ليست عملا دراميا كاملا لاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار التدام منصر الصراع فى شخصية البطة .

وبى الفصل الرابع (عالم الحلم) تقول المؤلفة أن التقصا الدخيلين لا يعجلون لجوء الشعر إلى استيعاء عالم العلم باعتباره غاية فى حد ذاته ، ويتطلبون من الشاعر - مهما تكن وساسته الفنية - أن يصور ألوان الصراع النفسى والاجتماعى . ولعل هذا هوالسبب فى أن ديوانى بيتس اللادين نشرأ عام ١٨٩١و١٨٩٩ لم يلقى اهتماما كبيرا . فى هذين الديوانين وجه اهتمامه إلى الموسيقى والصور مستبعدا كل قضايا السياسة والفلسفة والبن من شعره . وهكذا جاء الديوانان زاخرين بالمفاتيح والبحيرات والتلال المقلزة والتساقط والكثرة الطامعين فى النسن وعازلى التفتار وسكان الأكواخ وإبطال الأساطير وملكات العفسود الوسطى والجنيات .. وحتى حين يفسر الشاعر يتفك تكثيره صورة مجموعة متلاحقة من الصور الشعرية .

على أن المنظر البهيجة فى عالم بيتس لا تنفى ما نفسسه فى قصائده من شعور حاد بالوحدة ، وقد كتب ذات مرة من شيابه

وفي الفصل السادس (التنجيز) نرى ييتس وقد أصبح أكثر واقعياً من ذي قبل ، ووسع من نطاق موضوعاته ، ووفق مسلته بالأحداث الجارية من حوله وبدأ يمل عالمه داخله ورواه :

ما رياح الشتاء هي التي صوحت الألمان
لكنها قد صوحت لأتني فصصت عليها أحلامي

وكان ييتس يحب فتاة تسمى (مودجن) حبسا لا أمل فيه ، ولهذا كانت المرأة في قصائده الأولى رمزاً أكثر منها مخلوقاً حياً . وذات يوم كان يستعد للقاء محاضرة حين تلقى برقية مؤداها أن فتاته تزوجت رجلاً آخر - ويبلغ من عتف الصمة أنه لم يعس بها لأول وهلة ، فراح يلقى معافاته ، وكان شيئاً لم يكن - حتى إذا أفاد أدرك - بما لا يبلل الشك - أن حبها مازال متكاملاً من قلبه ، وأنه لا سبيل له إلى الحصول عليها ، وأن شبيبته كله قد مضى .

أي حبس خلى كان يلهم الشاعر أنه سيبلغ فتاته لا قد كتب ييتس في اليوم السابق لذلك اليوم مباشرة القصيدة عنوانها (لمة آدم) وتحدث فيها عن طباب المحبين الذين يرح بهم الألم . وفي هذه القصيدة نراه يتحدث عن :

فس مرعق كأنه مصارع
فصلتها أمواج الزمان حين طلت وميض
حول النجوم ، وتكررت أيماناً وأمراماً

لم يقول أن طباب المحبين :

لقد بدأ سعادة خالصة ، ورغم ذلك
أرعتن ثلوثنا كذلك الفكر الإحرق

وتذكر المؤلفة أن ييتس حين أصدر ديوانه المسمى « الفصول الكفراء » بدأ يقدو شاعراً مشهوراً ولبيسته كان يحظى آراء الجماهير ولا يؤمن بها - سألوه أن يشيع جماعة من الشمراد الذين يقدونهم فاجابهم بهذا البيت من الشعر :

أو رأى أحد كلباً ينش على البراهيت التي في جسمه
وفي الفصل السابع « الفن والاستراتيجية » تقول الأستاذة ستون أن آراء ييتس في القضايا السياسية والاجتماعية - كآرائه في الشعر - قلما تلقى قبولا - على أن ييتس كان يؤمن بهسده الآراء أيماناً حقيقاً ، ولم يضمنها شعره إلا بعد أن أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تكوينه النفسي والفكري - ففي ديوان « الفصول الكفراء » يعبر عن اعتقاده للديمقراطية وتوفه إلى الفلاسفل الاستراتيجية للديمية - وهو حين يتخزل في هيبته (مودجن) إنما يؤكد اختلافها من غيرها وتفردها بمصطلات التبل والكهرباء :

أنت أوتيت مثلاً
جعله النيل بسيطاً كأنهار
وأوتيت جمال القوس المشدود ، أنها من طراز
لا يبعد من مثل هذا العصر
لهم شامخة ، متوحدة ، جادة .

على أن مؤلفة ييتس النفسية لم تقف حالاً بينه وبين الإيمان بخلود الروح وخلود الجنس البشري - لقد رافقه الإيمان بالروح منذ صباه ، أما الإيمان بالإنسانية فقد استغرق في قلبه منذ بلوغه

مختلف العصر - وديوانه « مسئوليات » عتدى إلى أسلافه حيث يستلزم لهم من أنه خلف لمن بعده شعراً بدلاً من أن يظلم وريثاً - اغفروا ذلك لشهرة مقبلة
وهم أتى فارتبت التاسعة والأربعين
لا ولد لي ، لا شيء عندي سوى الكتاب
لا شيء سواه يثبت حكمهم ودمي .

على أن العهد لم يخل ييتس على كتابة هذه الأبيات حتى تزوج وتجنب أطفالاً .

أنتا تعلم أن اللاطون كان يرى في الطبيعة المخلوقة صورة لنافسة للحقيقة المكنونة ، فجمال الجسم عنده ليس إلا صورة للجسمال بهيمة المطلق - أما ييتس فكان يرى - كما هو واضح من أبياته - أن المطلق والتجسد أمران يكمل أحدهما الآخر - وإذا كان مؤ مؤدا بان الروح صورة لكل ما هو لا نهائي ، فقد كان يؤمن أبشيسا بضرورة تحقيق الروح لذاتها في هذا العالم لطيفاً كاملاً - ولكن يعلق الفنان هذا ينبغي أن تكون له « رؤياه » الخاصة .

والفصل الثامن « رؤيا » يستلم اسمه من كتاب شسهيير لييتس بهذا الاسم - أصدر ييتس هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٢٥ ولكنه لم يرعه عنه فاعاد كتابته وأصدره عام ١٩٢٧ . والكتاب يعرض آراء ييتس في الروح خلال الحياة وبعدها ، كما يعسور بدوره للتاريخ ، فمتد ييتس أن يبلوغ مرحلة تحقيق الذات يعني ببلوغها مرحلة التوازن التام أو مايسمى بـ « وحدة الوجود » - وتتمثل هذه الوحدة بالجمال الخالق لأن الروح تمكن معها من تحقيق مثلثها الأثلي - والروح أربع قوى هي : « الإرادة » و « الانتاع » و « المثل الخالق » و « مادة القدر » - فالإرادة هي القوة الحيوية التي تدفع الذات إلى آليات وجودها . والانتاع هو الصور التي تصفها الإرادة - والمثل الخالق هو قوة الفكر التي تولد بها - ومادة القدر هي حصيلته الظروف الموجودة في العالم الخارجي - وقد الحق ييتس بكتابه السالف الذكر كتابين آخرين هما « الرمز الكامل » و « الروح عند الحساب » .

وفي الفصل التاسع تتابع المؤلفة الحديث عن كتاب « رؤيا » . لقد زعم ييتس أنه استلمهم أفكار هذا الكتاب من « أصحاب الاتصالات » وهم عنده مخلوق مجردة لا أجسام لها - وإذا كان نطاق علمهم منحصراً في مجال الفكر ، فانهم يدركون المأني التي ينطوي عليها عالم الحس . وقد قالوا مرة حين سمعوا نعيب بومه : « أن مثل هذا الصوت يبعثنا سروراً طليماً » - ولا شك للمؤلفة في أن ييتس كان يبحث بقرهم على ذلك ، ففي شعره ترد هذه الأصوات كثيراً ، وإلى جانب « أصحاب الاتصالات » يوجد « المظنون » وهم الذين يستهدفون تسليته بتعانيهم المظلمة . ولا يذكر ييتس أن « أصحاب الاتصالات » ليهسود إلى هؤلاء « المحبين » غير مرة واحدة - ففي ذات يوم أتاه « مصليب » متكرر وراح يشرح له « نموذجاً هندسياً لطاعة الروح بعد الموت حيث يمكن تحويلها إلى معرفة » عما أثار « أصحاب الاتصالات » على هذا الميت الفارغ والمضطرب إلى التدخل !

ولم يكن في استطاعة ييتس أن يفسر لنا السر في أن « أصحاب الاتصالات » يستهدفون هدائنه بينما يستهدف « المظنون »

التخفيف به . ولكنه يرجع أن « أصحاب الاتصالات » أرادوا يرسلتهم لأنه صاحب قدرة بيانية واضحة تمكنه من تفصيل الرسالة نقلا صحيحا . وفيما عدا هذا السبب لا يعتقد بيتس أن « أصحاب الاتصالات » يكون له أي تقدير خاص !

وفي الفصل العاشر « الصنف والنوبة » تذكر المؤلف أن ديوان بيتس السمي « البيجات البرية في كول » ١٩١٩ كان أول ديوان يصدر له بعد قيام الحرب العالمية الأولى . وإذا كانت الحرب قد أثرت تأثيرا عميقا على أقرانه من الشعراء الإنجليز ، وجعلتهم ما بين مؤيد ومستنكر ، فقد بقي بيتس بعيدا عن تأثيرها ، بل إن كلمة الحرب لا تجري على شفة قلبه حين يري صديقه « روبرت جريجوري » الذي استشهد في القتال . وفي قصيدة « حيار إيرلندي يتنبا بموته » يقول :

أتا لا يفيش من أحاربههم
ولا اسب من أدالح عنهم *

وحين طلبوا منه أن يكتب قصيدة عن الحرب قال :
يخيل الي أنه من الخير في مثل هذا الزمان
أن يظل الشاعر صامتا . إذ الحق
أننا لم نؤت التسفيرة على رد الرسالة إلى الصواب
عل أن الانفصاليات الداخلية في أيرلندا أثارت قلقه ، وفي قصيدته المسماة (١٩١٩) يتحسر على سعادة الأيام الغوالي :
قد كان لناحن أيضا كثير من الآلام الجبيلات فلوئنا
وما كان قانوننا ليأبه للوم أو للهدج
ولا للرشوة أو للتهديد .

وفي القصيدة « يس هعق » :
الإنسان يشق ، وما يشق لا يلبث أن يفيش .
فهل بقي لي ما أؤله ؟

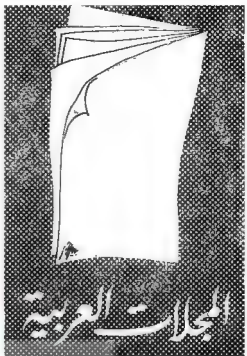
وفي الفصل الحادي عشر « رجل السيف » تقول المؤلف أن بيتس في ديوان « البرج » و « القسم المتخرج » بلغ درجة عالية من الوضوح الفكري والبراعة التقنية وازدادت رموزه طمعا وعمقا ، فلم يكن الرمز عنده مجرد يدل على الأفكار المجردة وإنما كان مصدرا متجددا للتفكير والتأمل . وإلى جانب رموزه نجد الديوانين الآخرين بالأفكار وصور الريف والتصاميم البشرية . ورغم مخالفته على عمود الشعر فإن قصائده لا تفقد اتصالها بلغة الحديث اليومي . وهو إلى ذلك شاعر غنائي كبير

يتقن بالصراع بين الروح في إطار الإبدية والروح في إطار الزمان . وليس توفه إلى الحياة الأخرى تعبيرا من زهد في هذه الحياة وإنما هو تعبير عن توفه إلى حياة أفضل . تقول المؤلف : « قلما يعرف فنان عظيم ينبد الصول للحياة . إن أعمال الفنان - وهي نتاج شهوة الحياة - تقديه أن تبدا . حتى لو كانت أعماله رموزا للغلود فيفيش أن تعاش هذه الرموز أن هي شامت أن يكون لها أي معنى غير معناها الصاسي » . وهنا نقارن المؤلف بين بيتس والشاعر الإنجليزي « جون دون » (١٥٧٢ - ١٦٣١) فتقول : « هم يكن بيتس يشبه دون كثيرا في مزاجه أو عقيدته الدينية وأن كان يفساه حاجته إلى الثور على حافية روحية مجسدة في الحس . لقد بدأ دون حياته متعكا حتى إذا استولى أولا من الهواي أمكنه أن يجد - من خلال الجنس - تأكيدا لما وراء الحس . أما بيتس فقد بدأ بالثالية المتشعبة والثقة المطلقة بالروح وجب الشعر الذي يكاد يخلو من ذكر الجسد ، لم تعلم في رجولته كيف يلهم بعواصه تجسد الروح في الفرزة الجنسية » .

وفي الفصل الثاني عشر من الكتاب « المرحلة الأخيرة » نوفي مع المؤلف على خاتمة الطلاب . فقد تقدم الشكاس في السن ، ولكن قلق الفنان لم يزأله . يقول في رسالة لصديقه « أوليفيا شكسير » : « أفتني اعتديت في الفترة الأخيرة إلى إدراك الطريقة أدراكا متسقا ولكني لا أعلم أن كان هذا سيجعلني استمر في الكتابة أو لا استمر » . وقد استمر بيتس فعلا في الكتابة ، وأنتج قصيدة في رداء الزعيم الأيرلندي « باتول » تعد أكثر قصائده السياسية مرارة . أما قصائده المسماة « الإنشيد ما وراء الطبيعة » فهي تبين تآزر بالشعراء البيتايفيزيين في القرنين السابع عشر . ويرفاس بيتس في هذه الإنشيد أي فصل بين الروح والجسد . يعتقد أن قوة العاطفة هي التي تجعل الإنسان صورة من الله ، وبسبب الشهوة لا صورة للحب الإلهي . يقول :
الخلود هو الشهوة ، هو بشت أو ولد
يتمنان في مستنح سرورهما الجنسي ؛
والا الإبد والي الأبد *

ولقد نشر بيتس في السنين الأربعة الأخيرة من حياته ديوانا سماه « القصائد الأخيرة » ويستند بعض قصائده هذا الديوان موضوعاتها من تأملاته في التاريخ ، على أن لغتها المكثفة والتفانيها غير التوفقة تجعل فهمها من الصعوبة بمكان .
ملهم شفيق فريد





يقدمها:

حسن الفقي
محمد العواني

● الأديب (بيروت يناير ١٩٦٤)

في هذا العدد من مجلة الأديب كتب الأستاذ نكولا يوسف عن محمد أمين حسونة تحت عنوان الكاتب محمد أمين حسونة قبين أن محمد أمين حسونة كاتب صحفي تالذ من لثة الكتاب الذين وفلاوا حياتهم على خدمة المجتمع واسلاحه بأنالهم . وأنه خلف من المطبوع أربعة عشر كتابا مؤلفا وخمسة مترجمين غير ماكنبه من البحوث والمقالات والأفاناصيص والروايات والتعليقات والندقات في منظم الصحف والمجلات العربية التي عاصرها .

لم عدد الأستاذ نكولا يوسف الأصال الأدبية والمناصب التي لولاه محمد أمين حسونة من بدء حياته الأدبية عام ١٩٢٥ الى عام ١٩٥٦ حين وصل به الطائف محررا بمجلة التحرير وجريدة الجمهورية عند تأسيسها .

وكان مولد محمد أمين حسونة ببيت غير بمعفاظة الدلالية في نوفمبر سنة ١٩٠٨ واستشهد في حوادث من حوادث الطائرات . . وكان في حياته نائب الحركة واسم النشاط له صلات أدبية واسعة ، ففي عام ١٩٢٥ كتب في الجزائر والمجلات التي عاصرها . وفي عام ١٩٣٠ نشرت له قصة طويلة باسم « مصر الحرة وأشبال الثورة » ثم في عام ١٩٣٣ أبعها بمجموعة من أقاصيصه بعنوان « الورود الأبيض » وقلمها محمود تيمور ، كما عرض منددا من الظوحت البائرة لسنائر بلاده منها « الواحة » ، « المرأة الجديدة » ، « القروب » لم ظهرت له قصة « رابوية » ثم أصدر كتابا في أدب الرحلات باسم « لوراء البهارة » أبعده مشاهداته في رحلة قام بها عام ١٩٣٥ في

دروج انشعا ولحقا ودومانيا وتركيا واليونان . وله في باب الترجمات الأدبية ثلاثة كتب هي : كتاب من « بيراندلو » الكاتب الإيطالي ، وكتاب من « بيتوق » شاعر الثورة الجرية ، وكتاب من الشاعر الفرنسي « بوديلير » وديوانه الزهار الشر ويدخل في هذا الباب التلذذ كتابه « الباب الهبى » الذى غشته بعض ملفصات القصص العالي ومنها روايتا « الينبوع » لشارلس مورجان و « الدكتور إبراهيم » لجون نيتل . . وجمع من أبحاثه النقدية خمسا وعشرين مقالة احتواها كتابه « ساعات الصمت » تعهد فيه عن أساليب النقد ، ومستقبلنا التلذذ ، والرمزية ، واللن اللن ، والأدب الماخن ، وأحرار الفكر ، ثم دراسات من محمود تيمور ، وجيسوفاني بابيش ، ودانولزو ، وبوبين . .

كذلك ترجم ليراندلو روايتين أحدهما « هنري الرابع » عام ١٩٣٧ والاخرى « الحب والموت » عام ١٩٤٧ ، وترجم لكيرن برامسون عام ١٩٤٢ « الأستاذ كلينوف » ثم ترجم رواية « الينبوع » لشارلس مورجان ١٩٥٥ وترجم كثيرا عن اللغات الأوروبية من مختارات الشعر والنثر ماقتضه بعض مؤلفاته ثم وضع كتابا في ميدان التاريخ هي « مصر والطرق الحديثة » و « كفاح الشعب من عصر مكرم الى جمال تيسه الناصر » الذى ظهر جزؤه الاول عام ١٩٥٥ بعنوان « الوعى القومى » والثاني من « الوعى الثورى » وكان يعد للطبع جزاين آخرين من « الوعى السيسى » و « الوعى الشعبى » ولم يبعله اقتدر لأخراجه وسجل حسونة تاريخ الثورة المصرية في ٢٢ يوليو

١٩٥٢ في كتابه « ٢٣ يوليو لورة التحرير » كما سجل جلال أعمالها في كتابه « جمهورية مصر في عهد الأول » الطبع عام ١٩٥٤ وكتاب « جمهورية مصر في عهد الثاني » للطبع عام ١٩٥٥ وله ترجمة إلى بعض اللغات الأوروبية .

لم حتم الكاتب مقالته بالدعوة إلى الحفاظ على تراثه ومخطوطاته التي لم تنثر وهي : الجزء الثالث من كتاب « كفاية الشعب من عمر مكرم إلى جمال عبد الناصر » ومجموعة أناميس بعنوان « سلطة » ورسالة التوكلي نشرها مجلة بجملة التحرير .. وكتاب من الأدباء المعاصرين ومؤلفاتهم . وأبحاثه وأدائاته المبشرة لم تجمع بعد .. لم رسالته الخاصة التي تبادلها مع أديب الشرق والغرب .

● الفسفة (عشق)

ولي مجلة المعرفة طالع بقلم الدكتور فؤاد أيوب يرضى فيه كتاب « تأملات في الشعر » للشاعر الفرنسي بول كلوديل ليتم له بقوله « إن الشاعري العظيم هو دائما نادر كبير أيضا ، ولعل بصيرته الثقافية هي التمسك للصلة الرفيعة التي يميز بها شعره وأن بول كلوديل هو أحد أولئك الشعراء الصائفة الذين انحسروا موهبتهم الشعرية لمكتهم النقدية ، واعملوا الفكر في موضوع الآخر الفني بصورة عامة والشعر بصورة خاصة .

والله ليحدثنا في كتابه « تأملات في الشعر » عن الكلمة بصورة عامة . وعن البيت الشعري وعن الفرق بين الشعر والنثر وعن الشعر العسبر والشعر العروفي للشعر . وعن القافية الشعرية وفردونها والكلمة الاستثناء عنها أو عن مشكلة اللغة بالنسبة إلى الآخر الشعري . وعن الإلهام والوهية الشعرية والعناصر الأخرى التي لا بد منها في سبيل صقلها وأغراها عن الصفات التي تعطي الشعر العظيم . وعن الفرق بين العلم والفن بصيغة عامة . ومما لا ريب فيه أنه ما يؤوله لنا ليستأهل أن نتوقف عنده وأن نأمل فيه ، ولعلنا نستخرج منه عادة تليق في حق لا يزال النقاش سجلا في هذه المواضيع بين شعرائنا ونقادنا العرب . بعد هذا بين أن اتلام المكتوب يستفيد لفرعين . أما لأحداث حالة من المعرفة والنشر . هو الأمر الأساسي في هذه الحالة إذ المقصود أن ندم عنه وصفا تحليليا مفصلا كعلا في حق هذه الحالة صنع النثر وأما لأحداث حالة من النثر لانا نسمى بواسطة الكلمات مثل الرسم بواسطة الألوان والتوسيلي بواسطة الإلهام لأن تشكل من التشهد أو الانفعال أو حتى التكرار الجردة نوعا من الجدل السائل للانطلاق في الفكر وهنما في حيز التعبير الأمر الرئيس وأثنا في هذه الحالة نضع الشعر . والشعر ينقسم إلى الشعر العر وهو الخاص بالفراد ووهية مرنة إلى الدرجة القصوى وذلك هو شعر التراكيب والإيقاع .. وال شعر الكبير الروائي أو التليسي كالتليسي العروفيكية (تقديدا جدا)

لم نر كلمة الإلهام بثلاثة معاني وأوضح الصفات الثلاثة المميزة للشاعر العظيم : الإلهام إذ ليس شاعري ولا يجب أن يلهم قبل أن يتفنى .. ويتمز الإلهام الشعري بهيئتي المسبوبة والهدوء . والذكا . أو التقدي أو الدوق حتى درجة فاحشة هو الصفة الثانية من دلالات كون الشاعر عظيما ثم تأتي الصفة الثالثة وهي المرونة الجامة ويبنى بهيئة . أن هؤلاء الشعراء الممازين كل نلقوا من الله أشياء واسعة جدا يجب أن يصيروا عنها بحيث يلزمهم العالم كله .

وانهى بحثه بالإشارة إلى الفرق بين العلم والفن « العلم لا يعنى إلا الأشياء المنقولة وأن شأته هو أن يذهب من السبب إلى النتيجة وأن ميدانه هو معالجة الأشياء وليس ما تعنيه الأشياء وأنه يستخدم من الواهب الإنسانية العقل فقط . وأن لليلان الخاص بالفن والشعر هو الصناعة فالإنسان يصنع شيئا أدركته حواسه شيئا يمكن أن يفهمه العقل .

● الآداب (بيروت)

أخذ الأستاذ « أمين الأبي » « دراسة في أدب فرجينيا وولف » عنوانا لبحثه الذي صدره بجملة من قولها « ليست الحياة سلسلة من تكتلات متسقة الترتيب ، إنما الحياة حالة متيرة ، غلاب نصف شفاف يكتنفها من بداية الوجدان إلى نهايته » ف .و

ولدت فرجينيا وولف في لندن عام ١٨٨٢ وكاتبته لنفسها في بيئة علمية ثقافية ظهر ازما وأخفا في حياتها الأدبية إذ كان أبوها ناديا وليسوليا ، ولم تكن متعلقة بالتعليم لمدرسة وإنما الآخر الأكبر في تعليمها هو مكتبة والدها وما لديها من المؤلفات القيمة النفسية وكان من أثر تنقل أسرة فرجينيا بين الريف والمدنية أن ظهر هذا في قصصها « فرواية » « فرلة يقوب » مثلا تبدأ في كورنوال وتنتهي في لندن ، وهناك عامل آخر ساعد على تحديد معالم شخصيتها هو طفلى والدها من قبلته الدنيئة في سن مبكرة وأعتانها مذهب « اللاأدابة » وتمسك به طوال حياتها ، فكان لذلك أثره في حياتها وفنها فهي كصا كان يروا النقاد الآن كاتبة أخلاقية متزنة تؤمن بأن مهمتها في الحياة هي أن تبث عن الحقيقة ، دون أن تكون من المحدثين أو التكتيك .

ولما مات أبوها انتقلت مع بعض أفراد أسرتها إلى منسزل بضاحية « بلومزيري » حيث بدأت تجاربها الأدبية . وهناك بعض العوامل التي لا يمكن تجاهلها وإن يبدت ثانوية فقد كان لها فضل كبير في فنها لحاولاتها الأدبية وتنمية ثقافتها فمن أن مثلها كان على قدر كبير من الثقافة والشراء ، فهذا حشرت بالحرية والاستقرار وفجتها على المص في كتابتها ، كما كان بيتها وأحوالها في « بلومزيري » هو المهد الأول الذي ترعرعت فيه جامعة بلومزيري الشهيرة التي كان يرتادها الكتاب والفنانون في ذلك الوقت . وكان أول إنتاجها الأدبي عبارة عن مقالات في النقد وكان زواجها يصحلي مفكر وسياسي كاتب مقال هو « لينارد وولف » مشجعا لها على المص في طريقها الأدبي وبدأت نشاطها كناقد للكتب في الصحف الأدبية لجريدة التايمز واستمرت على هذا العمل حتى موتها وكانت تنشر بين العيين والحين بعض المقالات النقدية في الجلات الانجليزية والأمريكية وفي عام ١٩١٥ نشرت قصة « الرحلة البحرية » وهي أول عمل لها بعد سبع سنوات من العمل والدراسة .

والقصة وأن كانت تتفق مع تقاليد الكتابة القصصية إلا أنها تلمح من محاولة الكتابة البحث عن وسيلة أكثر ممن الوسائل التقليدية على نقل التجربة الفنية .

ويظهر على الكتابة في مجالتها هذه القصة أنها لها شيء من التردد وعدم الاستقرار وأرجع الأستاذ أمين الأبي هذا إلى أنها لم تكن قد اعتنت بعد إلى الوسيلة المناسبة لتقضي

التجربة التي تعمل في لغوس شخصيا « وعلى الرغم مما في هذه القصة من ميوه فان فيرجينيا قد اضاءت شيئا جديدا للقصة الانجليزية يمكن ان نسميه بالشمسية الفنية .

لم ظهر لها في عام ١٩١٩ رواية ثالثة هي « ليل ونهار » وهي قصة ليست كوميدية اجتماعية من النوع الذي برعت فيه جين أوستن ، بل اطار تحولا فيه الشخصيات بدافع بحثها عن الحقيقة .

ولا نتم فيرجينيا بالتجارب والاحداث التي لم يهسا شخصيات القصة فدر ما تهتم بالحالات النفسية أو الوجدانية التي تليها تلك الاحداث في النفوس .

وفي مرحلة تطورها التي كانت تعتقد ان ذكاء الشخصيات كلما زاد ساعدنا ذلك على الانصاع من مثل هذه الحالات الوجدانية ، ولكنها عدلت من هذا الرأي فيما بعد .

ولقد فحرت فيرجينيا بان الاسس الفنية لكتابة السرواية كما درج عليها القدماء لم تعد الوسيلة المثالية لنقل التجربة أو للتعبير عن الواقع النفسي للشخصية . فهي تعتقد ان مهمة الفنان هي ان يعبر عن احساسه الخاص بالواقع او عن رؤياه الذاتية كاحية الحياة . وعلى هذا فهي ترى ان استنساخ الواقع ليس مسألة احدات خارجية في قالب درامي .

لذلك لم نشر في مقال لها من « الادب الحديث » الى انها انضمت الى صفوف المترددين على القواعد المتفق عليها في كتابة الرواية فهي تحاول ان تقترب من الحياة أو الروح من الحقيقة أو الواقع « اكثر مما تسمح هذه القواعد » وهي ترى ان « جيمس جويس » هو الكاتب المعبر الذي يستطاع ان يقترب من الحياة اكثر من غيره متجاوزا مقام « الترويض » التي ينهجها الكتاب عامة .

ونقول مسر وولف في هذا الصدد : « لتتسجل تلك اللحظات التي تتصاف على العقل ينفي نظام تساقطها » ولتتيسع الصورة التي نطبعها كل حاله او منظر على الوجدان مهما بدت ميتورة او متلفه . ليس علينا ان نقبل فكرة وجود الحقيقة على اعتبار انها قضية مسلمة » .

ولقد اكدت في كتابها استخدام المشاهد في رواية « ليل ونهار » لتعظم العواجز بين الافكار والاحداث . بين الواقع والخيال والتأملات والذكريات حتى تستطيع ان تقدم لنا « الثلاث نصف الشفاف الذي يكتنفنا من بداية الوجدان الى نهايته » .

ول اثناء كتابتها روايتها الرحلة البحرية لويل ونهار برزت لها مشكلة الاعتناء الى اسلوب نفي أو وسيلة تستطيع من خلالها ان تحقق توازنا بين سرد الاحداث والتعبير عن الواقع النفسي للشخصية فقامت ذلك الى التحول عن كتابة الرواية التقليدية الى بعض التجارب الادبية ولم يكن كتاب « الاتنين » الا الثلاثة . سوى سجل لهذه التجارب ويسمى عالمي صور ثرية ، وعلى الرغم من ان هذه الكتابات ليست أعمالا كاملة فانها تحتل مكانا بارزا في تطور التكنيك الروائي عندما ولقد استخدمت الكتابة هذا الاسلوب في كل اعمالها فيما بعد .

وبهذا انتهت مرحلة التجارب واصبحت على اعتماد تام لان فيما في كتابة سلسلة من الروايات الطويلة تستخدم ما

وصلت اليه من اسلوب الطباشير من تستطيع ان تعبر به عن نوار التجربة . ان كيف تستطيع ان تستخدم هذا الاسلوب في كتابة الرواية ؟

فقد اجابت على هذا السؤال بنشر قصتها « غرفة يعقوب » حيث يتلخص أسلوبها للردوس للتعبير عن مختلف المواقف في القصة وهي لا تلتزم حدود السبيل الزمني للاحداث ، فالتجربة تكثفت بين يديها لتكون سلسلة متلاحمة من الانطباعات . ورات في اول عمل لها ان الحكمة التقليدية ليست بالوسيلة التي تساعد على العوص في اعماق تجربة الفرد الذاتية . وبذلك في روايتها « مسر دالوي » محاولة ناجحة للكشف من جوانب هذه التجربة .

ان فيرجينيا تريد ان تشكل صورة لمحاولة الفرد الوصول الى الحقيقة الداخلية . وكانت لامن بان هذه الحقيقة غير قابلة للتعبير عنها فقد خلصت الى انها لا تستطيع ان تصف هذه المحاولة من جانب الفرد الا على مستوى عقلي لا يصل الى مرحلة التعبير اللغوي . ولبار الشعور عند شخصيات مسر دالوي هو مروج من التامل في الماضي والنظر الى المستقبل

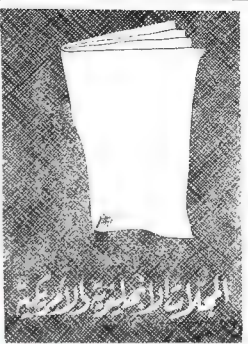
ولقد وصلت فيرجينيا الى قمة فنها في رواية « الفناء » التي ظهرت بعد عامين من ظهور رواية « مسر دالوي » وهي في هذه الرواية لتتأثر مجموعة من الشخصيات تعيش في منزل بطل على البحر لم تصف البحر المحيط بهم وتصور كل عناصر القصة لتحولها الى « الهالة الخيرة » أو الرمز الذي يمسدل الحياة .

على ان مخالفتها للرواية ابرع بكثير مما يستطيع هذا الشخص ان يوهي به وهي ترسم شخصياتها وطلاقة كل منهم بالاحس في مهارة فائقة وتخرج من كل هذا بنمط رمزي محدد .

وفي عام ١٩٢٨ نشرت الكاتبة روايتها « اورلاندو » وهي عبارة من سجل لتاريخ حياة احدى صديقاتها وهي ليست رواية بقلبي المفهوم بل سيرة فلسفية لحياة شخص رمزي ، وتطوره الفكري ، تمتد من اول العصر الايليزابيثي حتى السنة التي نشر فيها الكتاب .

لم ابعث هذا « كتاب بروايتن هما « الامواج » و « السنن » لم في عام ١٩٤١ وبعد موتها يشهور ظهرت اخر رواياتها « بين النسرل » وفيها تحاول تصوير الحياة الانجليزية ولطورا المعاصرة في انجلترا عبر قرون التاريخ حتى وصلت الى ما هي عليه في العصر الحديث كل ذلك في قالب رمزي .

وغتم الكاتب بحثه بتصوير حالها : بانها عاشت حياتها في حرف من الجنون اذ كانت تنتابها احيانا حالات من الكآبة والقلق تهدد بارتداد قواها العقلية ولقد اصابها نوبة كانت تلعب بقواها العقلية وان اصابها كانت في نور عصبي دائم اصابها من جراء الحرب فخرجت ذات صباح متجهة صوب شاطئ النهر كعادتها وحين خرج زوجها واخذها للبحث عنها لم يجدا سوى عصاها ملقاة على الشاطئ وبهذا خبا صوء يمد ان سلط فاخته شخصية كبيرة في عالم الادب »



تقدمها:

الدكتورة فاطمة موسى

والطالب الأريشي يترك أرضها يعرفها جيدا إذ يقرأ كيف نشأت روما من اتحاد مجموعة من القبائل لأغراض الدفاع المتبادل بدون أن تعد كل قبيلة شخصيتها المستقلة ، ففي ليبيجريا الشمالية مثلا سكن مجموعة العائلة قطعة أرض محددة ويدرس الأب أو الشيخ فيكونا وهي تكون جزءا من القبيلة العسكرية وتدعى لها بالترابيات اوبونية وعسكرية ولكل هذا مقاسمات في القصور الزمراني في أراحله الاولى ، ويدبر الرئيس حشرون القبيلة الى جانب مجلس من « الشيوخ » ولم يسكن مجلس السينات Senate الذي مرلت به روما الا صورة من هذا التقليد .

وقد تكون كثير من العادات التي يذكرها الكاتب في سبيلها الى الزوال بدخول كثير من الدول الافريقية في عهد نهضة جديدة وحرس شعوبها على الاخذ بتعصبها من التقدم الا ان هناك حقيقة مؤكدة وملغية للظن وهي أن تراث العرب يسود اليوم اقرب البنا ابناء حضارات اسيا والافريقيا منه الى ابناء حضارة أوروبا و أمريكا « في النصف الثاني من القرن العشرين » ولست انسى هنا بمجرد التقدم المادي بل بما نقلته هذه الحضارات المادية من مفاهيم السابية وقيم شخصها دغان المصنع ، فلذا كان استاذ من برنجهام قد لاحظ ان ابناء غانا ونيجريا اقدر على لهم هوميروس من ابناء شيلاند وليربول ، لقد سبق أن أدرك كثير من المثقفين بالادب الانجليزي بيننا أن تراث الادب الانجليزي من كسبيير الى القرن الثامن عشر أقرب الى نفوسنا منه الى ابناء التيسس وقد قطعت حضارة الالة والتيليزيون وسحافة الاعلانات ما بينهم وبين ماضيهم من وشائج .

وقد صدر الى جانب هذا العدد الأخير من المجلد عدد آخر بصيغة ملحق له بعنوان Parthenos & Parthenon باليونان واليونان .

وهذا بمناسبة مرور أربعة وعشرين قرنا من الزمان على اعداء الااليين لانهم ابنا تمثالا عظيميا من الصاج والذهب سثير تعجب أعمال الخيال العظيم فيدياس .

الى ذكرى الزميل والصديق الذي اختطفه الموت فجأة وكان معه أمنا في ازدهار الدراسات الكلاسيكية لى اللغة العربية ، الى الدكتور محمد صفى خليفة ، تهدي هذا العرض السريع لبعض المجلات المختصة بالدراسات اليونانية واللاتينية .

« مجلة « اليونان وروما » Green & Rome نصف سنوية تصدر من جمعية الدراسات الكلاسيكية بالكلود »

في العدد الأخير من هذه المجلد « أكتوبر ١٩٦٢ » بحث عن دراسة اللغة اللاتينية في افريقيا ، وكاتب المقال مدرس بجامعة برنجهام وقد سبق له التدريس في غرب افريقيا . يتناول الكاتب :

كثيرا ما سئلت من قيمة هذه الدراسة الأكاديمية العالية لروم قد خرجوا لتوهم من مرحلة البدائية ، وتواجههم ضرورات التقدم العلمي ، ومن الاهمية بمكان أن الاكاديميين أنفسهم لا ينتقدون دراسة لا تبيح كما ان اصحاب الشأن في هذا الموضوع وهم طلبة المدارس الثانوية لا يبدون أي اهتمام على دراسة اللغة اللاتينية ، وقد يكون السبب في ذلك انه لا يجدون صعوبة كبيرة في هذه الدراسة لا يمتلكون به من قوة الذاكرة « ويبدو أن الكلية الافريقية مشغولون فعلا بقوة الحافظة » ولكنني ارجح أن للمسألة اسعلا ابعد من ذلك فاللغة اللاتينية اذا احسن تدريسها تبدو زاخرة بالامكانيات الثقافية للطلاب الافريقي كما نلاحظه من تشابه من العادات والتقاليد الدينية والاجتماعية والمالية في المجتمع الروماني وبعض المجتمعات الافريقية ، وكلها من خصائص المجتمعات القبلية .

ويعني الكاتب في تفصيل بعض مظاهر هذا التشابه واصفا ما يخص بالتصنيف الدينية والسياسية لتقديس روح الاجداد ظاهرة مشتركة بين الحضارة الرومانية وكثير من المجتمعات الافريقية وتقديم الذبايح للشكر واسترضاء الالهة من الطقوس التي ترد كثيرا في النصوص اللاتينية ، ومن المثير ان الطالب الافريقي اقدر على فهم مفراها من الطالب الاوروبي سكان المدينة الذي لم يقدر له ان يرى طائرا او حيوانا يذبح في حياته نعا بالاك بالديجاجة في محراب مقدس .

وعلا ما نسبتا لوالدي يعرف باسم الهلوتوس ولقد اتهم في معبد البارتون على صخرة الاكروبول عام ٧ - ٤٢٨ ق.م كجزء من خطة بناء كبيرة وفيها السياسي الاثيني التيسودو برئيس ويرى المؤرخون فيها الى جانب الفوضى الدينية مراسي واعمالا سياسية هامة ففي مثال من « الفري السيلولي للبارتون » يقول رسيل ميجر مدرس التاريخ القديم بجامعة اكسفورد ان الفرس في فروعهم للزيان القديمة قد دمروا اتيكا وفيها من المدن « احرقوا البيوت وهدموا المصابد وعالوا في الارض فسادا بعد انتصارهم في ترموبلاي وبعد هزيمة الفرس في سلايس » معركة بحرية « لم هزيمتهم على البر في بلاني وانذارهم وانسحابهم من تساليا وترايا الى اسيا وجسد الاثينيون المائلون الى ديزمخ الى الريارة « كما كانوا يسمون غزاتهم من الفرس » قد دكروا مدينتهم دكا ولم يبق بها الا عدد قليل من البيوت ابقى عليه الفارة لسكني سلايس » فحسب رواية لوكيديمس المؤرخ اليوناني كانت المدينة عام ٤٩٦ ق.م لا تزيد على اكوام من الركام والانقاض وعلى الاكروبول كان معبد اتيكا الجديد ولقد بنى في بنائه في زهو انتصار ملاتون « قد سوي بالفرس ولقد تآثرت بقايا الاممعة وقطع الركام الصلبة في كل مكان .

ولقد الاثينيون بناء مدينتهم وقد بدؤوا من الابنية العامة بما يخص بالبناء واستخدموا لذلك احجارا من احجار المبد الجديد « ونبتت المعابد انقاسا كما ركبا الفرس وروى لطياف في القرن الرابع ان السبب في ذلك يعود الى قسم اسمه افريق قبل مائة بلاني : لا يسموا بناءه ميالكيم بل يتركوا عيسى حالها كذلك لامتداد الريارة على مقدسات اليونان . وقد كان غنياء القرن الرابع قبل الميلاد يذكرون افريق بهذا القسم الجليل اذا دعت الحاجة لاستدعائهم حين بدأ حجر على حجر من الركام ووضع في معبد اويس في احرناى حيث عثر عليه في هذا القرن :

الجم لا افضل الحياة على الحرية ولا اخذل فلتا احياء او موتي » وان اقوم بدفن كل من يسلط في فكرته من حلفائنا **والتي لا اتصر على الريارة في الحرب لا اقرب اى مدينة حاربت في صف الافريق »** وان افرض الجزية على من حارب في صف الانداس **والقسم لا اعيد بناءه اى من تلاميذ التي ارفها الريارة وهدمها بل ابعثا لذكارة ان يعنى على قسوة الريارة ووحشتهم .**

ولقد بر اثينيون يقسمون لما يزيد على عشرين سنة فيما يبدو لم عقد الصلح « صلح كانياس » مع الفرس وقصد بعض الساسة ان عقد الصلح قد اهل اتيكا من القسم « ويداركييس مشروعا بنائية ضخمة لعدد من المعابد نتج صخرة الاكروبول وبدأ هذا النشاط بشكل ملحوظ في منتصف القرن « ولديسيا لحسن الحظ الدليل على ان مشروع بناء البارتون قد بدأ في سنة ٦ - ٤٧٧ ق.م فقد نفى بطور الحكم الديديمقراطي في اتيكا ان ينشر الموقنون المكفون بالابنية او الخدمات العامة «كتف الحساب « حيث يمكن لكل مواطن ان يطلق عليه « وتعد بعض الآثار التي تفتتت من حسابات البارتون ان كتف حساب السنة الاولى كان من سنة ٦ - ٤٧٧ ق.م .

وتفيد وثيقة برودية وجدت في مصر ان برلكيس قد حصل في سنة ٤٦ - ٤٥ على موافقة المجلس على اتفاق ما يلي من ميزانية المصبة البلدية **Delian League** لاعادة بناء معبد اتيكا المهلة « وكانت هذه الاموال قد جمعت لافراض الدفاع ضد الفرس »

ويرى بلورتاك في لغة منمقة كيف لزم لوكيديمس ميلياس المارتون في المجلس وكيف : **« صاح الفارصون ان التمش قد لطفه العار وسادت سمعت لانا اتيكا باحوال الافريق العامة من ديوس الى اتيكا ولقد جعل**

برلكيس من المستحيل علينا ان نرد عليهم بصلق فالتين ان هذا في سبيل الامان المشترك - لقد أصبح الافريق مبد استبداد واضح للعيان ان يرون ما اجدوا مرفعين من اجل الدفاع يملو في لججهم مدينتها وتزويها بالبحر غالبية وتمائيل ومعابد تكلف الافاد التجهتات ولقد رد برلكيس بان شعب اتيكا غير مسئول عن تقديم الحساب للحلفاء مادام يصعبهم ويصد منهم الريارة » ولم يسمع الحلفاء بالتقبل او التساهل بل بالقتل « وهذا المال قد اصحى ملكا ان اعطى بل ان اخذ مادام يقوم بالخدمة التي منح اكل من اجلها . وقد جهزت المدينة نفسها بكل ما يلزم من عدة الحرب فلا سبر ان توجه مواردها لشروعات لجلب لها مجدا لا يفي » وتوفي الزنك لعدد كبير من اينائها انهاء التنفيل « فستحتاج في هذه المشروعات الى جميع انواع الصناعات والخدمات « وهذا سيؤدي الى ايجادها « ويوفر الصالة لكل عامل « وهكذا يرتق جميع افراد المدينة الى ترف وتكفل نفسها من مواردها .

ويصف بلورتاك في شرح سياسة برلكيس في ان يعم الفيسر الحارين وغير الحارين « وقد رأى ان يأخذ الصناع نصيبهم ولم يبق في نفس الوقت ان يرتزقوا وهم عاطلون وعلى يسود في كل الصناعات والخدمات الذين سلطهم التشفيل فلا م يمثلون جميع الحرف من التجارين والحدادين والصباغ والراسمين والتحالين الى حال الطرق والنقل والتاجر والنوبة واليخارة :

ولقي الكاتب بعض الشك على المصدر الذي استقى منه بلورتاك تفاصيل دوائته الا يبدو انه ربما استقاه من مصادر من القرن الرابع « ق.م » ولكنه لا يكر ان برلكيس لابد قد استخدم اموال حلف ديوس في الاتفاق على حركة البناء لامة التي قام بها « فلم تكن موارد اتيكا وحدها تكفي لتغطية كل هذه النفقات .

وان لهذا المبد القيمة كبرى في التاريخ السياسي لاتيكا لانه من ثوائل الطيد التي بنيت من الميزانية العامة تقسده ادخل اليها Ephialtes سنة ٤٦٢ اصلاحات كثيرة على قوانين المدينة ويقتضها تحول المدينة المرافق العامة والمعابد وغيرها « ينس ما كان ساريا من قبل من قيام الافراد والاسرة الضنية بتحويل هذه المشروعات التي تفرق باسم باتيها .

وقد اصبح مجلس الديموس Demos في اجتماعه ان يحدد ما يبين من مرافق وينتخب منه مندوبين لالارشاف على العمل وتحويله « وهؤلاء المندوبون مكفون كما اسلفنا باعلان كشف الحساب متقولا في حجر في مكان يراه كل من يرغب في ذلك فالبارتون اذن نتاج مجتمع ديمقراطي حر « ولم ينش على اسم برلكيس « وفي اعضاء المجلس ذلك « ولكنه يرتبط في الدعان الجميع باسم برلكيس فهو خير مايرمز لتلك الفترة القصيرة من حياة اتيكا ا وحظت المدينة بأشكال الديمقراطية ولكنها سارت تحت قيادة زعيم واحد .

في مثال بنونان « ربة التمثال الذهبي « نتاج اونا حوكر مدرسة الاثينية بجامعة برنجهام وفيها اثنية كرواحنة من اتيكا اليونان العديدين يقول ان الافريق كانوا كثيرا ما يشيرون اليها بكلمة « الربة » مجردة من اى صفة اخرى وهذا دليل على احتيائها في عيادتهم « وقد امتد نفوذها حتى شمل كل الاكروبول لم يرى يونانيات اى اوفى اتيكا كلها كانت تقدسها « وبالرغم من انها تفرد ال البارتون كان اروع معابد مدينة اتيكا وان اتيكا كانت سيدة ارباب المدينة فمن الصعب ان تفهم السبب في هذا التناقض فويوس جدير بالحل الاول لكنه « زروس ابو اتيكا وولد من راسه كلفة التوشاكية السلاح « وارس واولو ينالساها لكلامها حامي الحروب وديونيزوس وديمتير اهم منها تقعا الا يتنحان المصلون اليه لاتيكا القديمة « المنب والعتلة « لبا اتيكا لقد اعدت المدينة الزيتون وهي حليمة الصلوات وكل منهما في العمل الثاني بالنسبة للاقتصاد يتالي

كذلك أمكن لهذه الأربة العلواء أن تثبت نفسها بين أرباب
ووبات الدين القديم ؟

والجواب على هذا السؤال في رأي الكاتبة يتعلق بوظيفة هذه
الأربة كحامية الطفل المقدس مما يتخطع من أسطورة ارخونويس
بن جيباستوس ويقال أن أثينا تلقى الطفل من جي
واخته في صندوق ، وحملته إلى الأكروبول ودعشت به إلى أثينا
كثيرويس ، مع طيمات شديدة إلا يتخطى الصندوق ، وقد فتنته
فعلا فوجدن فيه ارخونويس تحرسه حيتان فغسوسن والتقين
بأنفسهن من على صخرة الأكروبول أما الطفل فقد رتبته أثينا في
صحنها حتى شب وأصبح ملك أثينا في يوم من الأيام ، فنصب
للربة تمثالا على الأكروبول وأنشأ الأعياد الباناثانية Panathenae
واستمر في الأعياد بعبارة ذات الجياد الأريصيه وكانت من
اختراعه ، وقد دلت هذه الوقاية في ذمار أثينا حيث كانت تشابه
وهذه الأسطورة مشهورة في القرن الخامس قبل الميلاد وقد
أثقلها كثير من الفنانين موضوعا لرسومات الأواني .

ولعل الأسطورة على أن كنه أثينا وكأنيها كانوا مسئولين
من العرب أحبال الأسرة الماتكة ، المعادل الإنساني للطفل المقدس
فمن الأربة إلى أبناء الأسرة المالكة في المجتمعات ابراهيمية
البدائية كانوا في خطر دائم لأنهم يمثلون تهديدا لحكم الجالس
على العرش كما كانوا موضوعا لشدة زوجات الأب الأخريات ،
ولما سمعنا في أساطير الإيزان من أمير نشأ في بيت أبيه ،
ليضمهم كان يرسل إلى الكهنود خبرون أما العالمة ليكنافوا
يتشكون في المرأة مع علامة أو دليل على أصلهم ليربهم الغرام
وتتسكن هذه العالمة في أسطورة كلين ليريس وديوريس فقد
جنى كل منهما لآل زيرس كان خطرا على أبيه كروبوس الذي
كان يهتم بأبنائه أما ديوريس فكانت زوجة أبيه هيرا لغير له
الشتر وذات أثينا حامية ، وكان صعدا في نفس المسوقف ، وفي
وصف الحالات والاشياء التي وضعت في سرير أبون كمثل ترى
أثينا جميعا مرتبطة بأثينا .

وقد كاتبت ، بوظيفة ، وظيفة حامية ملوك أثينا القليلين
أنرا معلوما بالخاص ، يستلزم اتخاذ احتياطات كثيرة ، لحماية
الأطفال ومن يقومون بتربيتهم ، ولذا فقد أعطوا بالقصة كناية
وكان الأكروبول ميعاد لسهول النطاق هذه التي قد كانت
أسلحة الأربة تبعت الرب فبين تسول له نفسه مهاجمة
لدارها وخاصة راس الجورجون التي تبسها على درعها ، ولذا
أضمت التي للزح في الكفوس ، وقد كان هذا عذبا فية كبيرة في
أثينا البدائية في عصر يؤمن بأن سلامة الجماعة مرتبطة بسلامة
أفراد الجماعة ، ويستوجب المبالغة في السلالة ، تحكمه بدون
النطاق ، ومن السهل أن ينتج عن ذلك أن تصبح الرسوم
الخاصة بتوفير ملوك المستقل بنفس أهمية الرسوم الربطية
بنشأة الملكة ، وأن يصبح الحفاظ على الطفل المقدس
بمقام الحفاظ على حياة الجماعة .

وكان العصبية يشيرون في رعاية أثينا منذ لظهور حتى يلقوا
مرحب الرحمة ، وقد يحدث أن يلقي ابنه الملك مصلحا
الفتيات لفساد سلامتهم ، وكان من المستحيل أن يمشي الصبيان
في ذمار أثينا على الأكروبول حتى يعرف الملك العام مكانهم إذ
ترى من في نفس المكان ولذا فقد كانوا يمدون من طريق التنبؤ
كما حدث لا يون ، وكان أبولو يشترك التنبؤ في مراقبتهم في تلك
الفترة ، فتمت مراقبتهم كانوا يلقون الموسيقى والرياضة البدنية
والصيد وتكون ألعاب ، ولكن أثينا كانت دائما هي اهتمامها
بهم ، فهي التي ترفق على الميزات الباناثانية ، وسرى كل
أربع سنوات حتى لمعد مسابقات في الموسيقى والألعاب
الرياضية لم يسبق مشاغل للتأثير ويظهر الأوبس الأثام للعرض
من طريق إرثته ونحوه ، فيهدى بجائزة من زيت الزيتون
المقدس وينتجوا بأكليل من أفسان الزيتون وكلها مقدمة للربة
أثينا .

وتجبر أثينا الشباب الفاتح لطلب بالعرش فتتمتع الخيل
والسلاح ومن هنا حمايتها للصفقات وترويض الخيل ، وصانها
الوقية بيهاسنوس الصانع ويوسفون مربي الخيول ، وهكذا

يظهر ولي العهد في المدينة كامل النور شائق الملاح كعبا
خرجت من رأس أبيها منذ ميلادها وإذا أثبت التسلسل
جدارته وأنه أهل لاصلة الربيع والتربية المتأخرة التي منحها

نظمه الربيع يوما المرش والنصر .
ومع مرور الزمن اندثرت العادات القديمة كما اندثر الملوك
في مدينة أثينا ، وقد كثير من المراسيم قيمته ولكن نلوا أثينا
أثينا بقي على ما هو ، وبعد أن كانت أم الأطفال الملكين أصبحت
حامية الشباب بأبهره ، وبعد أن كانت العاطفة لمراسيم دين
بدائي أصبحت حامية المدينة كلها ثم إلى المواطنين ليعيدوها
لا كلمة من الخشب ذات فوي شعيرة بل كتمثال جميل من
الذهب والمناج يتصدر البارثون الجديد .

مجلة فيكتس Phoenix
مجلة الجميلة الكلاسيكية بكندا ومصدر من دار النشر جامعة
لورنسو - نصلية .

في العدد الأخير ٩ خريف ١٩٦٣ « دراسة شيلة من للآية
اسيغولس برومينا بقلم ج. هريجتون الأستاذ الوائى بجامعة
لورنسو - وقد خصص الجزء الأول من البحث من العناصر في
الثلاثية ، وأحاصر في العناصر الأربعة التي كان الأستريق
يرجعون إليها أصل الكون ، وهي الأثير والهواء والماء والارباب
وبلغت الكاتبة انظرنا إلى أن أول كلمات يتنزه بها بريثيوس
الطفل في الجزء الأول من الثلاثية هي صرخة ، يشهد بها العناصر
الأربعة على ما أتول به من مفاد ، فيروميثيوس وقد ربط إلى
صخره وحيدا لا يجد من يشهد على ظلم ليريس إلا العناصر
التي تبادى الأثير والارباب ويتابع الإنذار وأمواج البحار والأرضية
لم يتأذى « في الشمس الذي يشهد كل شيء » .

الشمس كروح من النار قد تدرج تحت بند الأثير ، وفي هذه
الانكشاف التستاحية في بروميثيوس في الأتال لا يتنصر في العناصر في
تربيتها التستاح ومن الطريف أنه إذ يتبادى في آخر هذا الجزء
قد أشاء الاضطراب حتى لم يعد كل يفر مكانه ليروميثيوس
يصبح في النهاية .

صوب كرهه يفر في الأمعاء ، والبرق يتلذذ نارا في كل
مكان ، وأزواج تدرج اتراب ، والرياح تهب في كل انحاء
في فحيح عذراي ممدوم ، والأثير قد اختلط بالعر هذه هي
العاصلة التي يلقها على زيرس ليريني .
لم إذا به وقد انشعب الصخور لتنبئته يصيح مستهداهذه
أرة بتعصرين فقط .

يا أي الجلية « الأرض » أي الأثير الذي يجعل التسور
للجميع أشده على ما يتول من من ظلم .

ومن التواضع هنا أن عناصر الأربعة تلعب دورا هاما في نمو
هذه النسالة . . فالنقز والرمب يتوايدان فيها والرمب ليس
فائرا على أية واحدة إلا أنه بل لقد تعداها أي متباصم
الطبيعة نفسها .

ويقدم الكاتبة نظرية قريبة وهي أن كل جزء من الثلاثية
مخصص لعصر من العناصر الأربعة وأنه ربما كان هناك جزءا
وأبدا على شكل مسرحية سابير satyr play
مخصصة للهواء وقد تكون الشطرة المعروفة باسم اودينيا جزءا من هذه
السرحة .

والبحث طريف يشهد بأن في ميدان الأدب اليوناني مجالا
واسعا للدراسة الفلكية .

وفي العدد السابق من نفس المجلة بحث قيم من هيرودوت
للروايات المختلفة والمتضاربة أحيانا ، وهو بحث يقصر من
التفصيل السريع وجدير بالترجمة بمرته .
إن الجليلات المخصصة للدراسات اليونانية اللاتينية كثيرة
هنا وهي تصغر بلفت شتى وكثير منها موجه إلى المتقدمات
ولا تقتصر على ذوي التخصص ، وتشهد في كثيرها ونوعها
على أن في هذه الآداب القديمة متلا مليا لكل من ورد .

« رسالة من لندن »



المجلات الفرنسية

يقدمها:

السيد عطية أبو النجا

هو تلك المرأة ! أيا يخرج مني ويبللني ، ويصبح على الجدران ..
إله ليس بصوتى ، وليس لي يدى أن أسكنه أو أن أمنحه
من أن يمزقنى ويهزى ويحاصرني ، أنه ليس بصوتى ، ليس
لي صوت وعلى أن أكلم ، هذا هو ما فهمه ، وحول ذلك يجب
أن يكون الحديث ، وحول ذلك يتعمق الدوران .

ويستورد روبرت أبي راشد لثلا :

« أن بيكيت ينقلنا إلى شبه اللاشيء ، فنجده أنفسنا مع
شخص يجتر بلا كلل حديثا يالجى به نفسه ، لقد أصبح هذا
الإنسان يعيش على الشعا الضيقة التي تفصل الإنسان من
الحيوان .. أنه يحيا حبيس جسمه . اسم أو أممى ، مشلولا
أو مشوها ، محروما من الحركة ، وأن استطاع التحرك فزحفا
أو درجة ، أن الزمان والمكان قد فقدنا مفراهما بالنسبة إليه
واختلطا في لحظة جامدة شخية ، لقد حدد هذا الشخص سادل
الاشياء الهول ، سادل اللذة مع اندماج الألم ، وتبادل البشاه
مع اللامبالاة ، وخلاصة القول أن هذا الشخص ليس مسوى
معاية رجل أو امرأة ففتن فعدم ميلاة ، بيد أن الاشياء الجوهرية
ما زالت حية في ذلك الصوت الذى يفتى جليلة الحياة ، بالرغم
صا به من تصور وزلات ، أن هذا الصوت الذى يلغى بلا انقطاع
كل ما نطق به هو نغمة الضمير ذاته ، أن هذا الصوت الراهن
لا يفتك يعترض على الآثم الاتسالى ويتشكى من أرض البشر
الحدوث القاسية .

ان كل شيء قد أخذ ينطمس من حول البطل اليكيتي ،
ولكن هامو ذاك البطل يعود ، مع ما بقى له من اشياء ثانوية

الصوت اللامع عند صمويل بيكيت

بلم : روبرت أبي راشد

لا يخفى أسبوع دون أن يظهر مقال من صمويل بيكيت ، ذلك
الأديب الإيرلندي الأصل ، وقد سبق أن قدمناه في دراسات
ظهرت بمجلة Esprit ، وتتل اليوم هذه الدراسة التي
لشربا مجلة Etude الكاثوليكية الشرب في صدها الصادر
في يناير ١٩٦٦ .

« ترتفع مؤلفات صمويل بيكيت في الليل والصباح ، في غموم
المعلم ، وعلى شواطيه اللغة البالية ، وتبدو تقصيصه غير
محدودة متكررة تطرد في صلاتها وتتعمق تارة في قصص
وأخرى في مسرحيات ولكنها من أولها لاخرها متشابة وأن تنوعت
اللائمة التي يضمها الرواة على اختلاف أنواعهم ، بفعل يقرب
وقد حرم من الله وأخذ يتكلم لأنه لا يملك أن يفعل شيئا
آخر طالما بقى له ذلك الصوت الخافت ، أنه لا يملك يخفى
أمام السماء متناثرة البائسة ، ولكن يا له من أستاذ يتصاعد
من ذلك الهذيان ، وكما يحمل اليأس في تنبأه من عرج ، وكما
تجوى هذه الوحدة الكثيفة في تضاميتها من السلبية أخوية ! .
أصبح إلى بيكيت وهو يقول : « أن هذا الصوت الذى يتكلم ،
يعرف أنه يكذب ، ولا يبالى بما يقول ، ولطه قد بلغ من العمر
ونال من الغزى ما يمنعه إلى الأبد من التلوى بالكتابات الكثيلة
بأسكانه ، أن هذا الصوت الذى يتكلم بلا تمنع ولا جدوى ، والذى
لا يفسى لما يقول ، بل ينتبه لما يقطعه من صمت ، من أين سرود
إليه يوما زفرة الطول Avant والرداع ؟ ليس هذا الصوت

● شاتوبريان مؤلف « رحلة أمريكا » بقلم ميشيل بيتر

La Nouvelle Revue Française

نشرت المجلة الفرنسية الجديدة في عددها الصادر في أول يناير ١٩٦٤ دراسة من شاتوبريان وكتابه : « رحلة أمريكا » Voyage en Amérique وشاتوبريان هو أير الرومانتيكية الذي مهد لظهورها برواياته الشهيرة « رينيه René » و « اتلا Atala » ، وكتاب « روح المسيحية » ورواية « الشهداء » ، وقصة « آخر أبناء بني سراج » .

وقد خصص له مصطفى لطفي المنفلوطي قصتي « اتلا » و « آخر أبناء بني سراج »

ولد فرنسوا رينيه دي شاتوبريان في سان مالو في ٤ سبتمبر عام ١٧٦٨ وتوفي في باريس عام ١٨٤٨ ، وكان عاشر أبناء أسرة نبيلة من أسر برتانيا . وقد تلقى العلم في مدارس دول « وارين » ودينان ، ثم عاش فترة من الزمن في قصر والده في كمبريدج في فرنسا ، ثم كاتل بين أحضان الطبيعة ، وحاول الانتحار مرين وفي عام ١٧٨٦ حين شاعبا بكتيبة النافار ، وابتداء من عام ١٧٩١ جعل شاتوبريان يتردد على البلاط والتشديدات الأدبية ، وكان متأثرا بفلسفة القرن الثامن عشر ، لا يؤمن بوجود الله ، ويقرض الشعر .

كان شاتوبريان في هذه الفترة متشجعا بأفكار « روسو » من الطبيعة . وكان روسو يذكر الحياة الاجتماعية ويهرب منها ، ويرى فيها مصدر شقاء البشر ، ومنبع ظلم الإنسان لآخره الإنسان ، وبني فلسفته هذه على فكرة الرجوع بالإنسان إلى الطبيعة . إلى الطبيعة « إصلاح الفرد بفرية الطفل (أمل) وإصلاح الأسرة (يقارب الجديدة) ، ثم إصلاح المجتمع (العقد الاجتماعي) » .

وكان يقصد المقارنات بين الإنسان المتحدين ورجل الطبيعة أو البربري النبيل ، ويفضل بالطبع البربري الذي يعيش على الطبيعة على المتحدين الذي لوثت الحياة المدنية مشواره النبيلة التي تولد منه .

ولد كان لروسو أثر هيكلي على الأدب والفكر الاجتماعي ومن تلامذته برناردون دي سان بيير مؤلف « بول وفرجين » التي ترجمها المنفلوطي ، والتي كان شاتوبريان يحفظها عن ظهر قلب .

وعندما قامت الثورة حلت كتبة شاتوبريان لسافر إلى أمريكا بحجة تحقيق كشف جغرافي ، ولكنه كان يرمي في الواقع إلى تحقيق أمل نأ وترعرع في نفسه وهو يقرأ « روسو » و « برناردون دي سان بيير » ، ألا وهو الهروب من قيود الحياة الاجتماعية والدوان في الطبيعة البرية المهيبة القوامية الظروف الواسعة الأفاق ، والأوتوا من جمالها حتى التمثالة ، وإراحة قلبه الذي تشقيه المهوم والمشار التناقضة بالحياة بين الهنود .

وقد كان رحلة شاتوبريان إلى أمريكا أثرا العاصم في تطوير حسانيته وانطباعها ، وبين شاتوبريان بمجده الأدبي لهذه الرحلة ، فهي التي أوجعت له بقصتي « اتلا - ١٨٠١ » ،

ليعلم لعبسة الكائن الحي ، وشجنا فشيئا ينشغل ويخترع الأحداث . . ويخلص حاصل اقتناعه وهو يأتي النظر على ما حوله : أن ذلك التلخيص مهمة موهبة يستحيل الاستمرار فيها حتى النهاية ، فالحياة تتجدد باستمرار ، وبصورة لا يمكن تفسيرها في أسفر الأجسام الجهرية .

إن البطل « البيكيتي » الذي يقدم حادة على كوم من الدمن أو التمامة ، أو في حجر أو نقطة أرض مهجورة يتدبنا وكأنه أتح لنا ، لا تليحوا بأفكاركم عنه فهو يحكي ماسيك وملاحيكم فان لعن أحيانا ، فما ذلك إلا لانه يؤدي نفس الرقصة التي أولعها وترقصوها . وهذا هو سميت السحر الفاضل الذي يستولى على من يعرف كيف يقرأ مؤلفات بيكيت ، أن السخرية لا تصبح قط صريحا ، والتكرار لا يتحول قط إلى الابتغال ، بل هو مصدر انشاء غير متوقع يعكس تفكيراً متبايناً على مغالطات تفني حيوية ، وهو تفكير يفرط في العالم المومس بجلود مميطة ، وعندما تتخيل أن هذا الكاتب قد قضى على الأدب إذ بالادب يتغير من قلمه ولد وهب قوة خفية لم يعرف لها مثيل .

لم يلع « السيد روبرت أبي واند » إلى أنه كان يعتقد أن جفرية بيكيت تصلح للنقصة أكثر مما تصلح للصرح إلى أن شاهد في لياترو « فرانس » مسرحية Oh les Beaux Jours فرأى فيها تحفة حقيقية .

● كتاب هام من « مولير »

ظهر أخيراً كتاب قيم من مولير ، التي القوا الجديدة على حياة هذا الفنان وعلى أسرته وفرقة التمثيلية « بفضل ملحوا من وثائق لم يسبق نشرها من قبل ، وعنوان هذا الكتاب « مائة سنة من الأحداث حول مولير : حول أسرته وممثلي فرقة Cent ans des recherches sur Molière, sur sa famille et sur les comédiens de sa troupe. »

وهذا المؤلف ثمره أبحاث قامت بها السيدة جيرجنزوالسيدة البراييت ماكسفيد ميلر .

ولد قدم هذا الكتاب في مجلة « آباء الأدب Les Nouvelles Littéraires » في ٩ يناير الناقد جورج مانجر دين Georges Mengredin المعروف بدراسته من مولير ، فنزه بأنه يضم ٢٨٦ وثيقة ، لم ينشر ما يقرب من ثلثها من قبل .

وقر الناقد أن هذا الكتاب يكشف عن جوانب جديدة في أسرة بيجار ، التي أنجبت مادلين بيجار ، معلمة موليسر الأولى « وعشيقته » . وكذلك زوجته أرماد بيجار ، وودت فرقة بخسة من أبنائها . ويتضح من الوثائق التي اشتمل عليها الكتاب أن هذه الأسرة كانت أسرة شريفة ، على خلاف ما وصفا به أعداء مولير في القرن السابع عشر ، كما يرونا الكتاب بمعلومات قيمة من تطور فرقة مولير بمد موه .

« رينيه - ١٨٠٢ » ، ونفسها حوى كتاب « روح المسيحية » (١٨٠٢) لروحات خالدة تصور جمال الطبيعة مما أضحى على هذا الكتاب الدينى فتنة وسحرا جعل القراء يتخلفونه كما كان الزعماء ظاهرا في مقال من الثورات وملصقة « Les Natchez » وكتاب « رحلة أمريكا » ، وهذه المؤلفات الثلاثة لا تظهر من الروعة ولم تكن طليعة إنتاج كاتب لم يكن قد نضج بعد .

وعندما ارتد الشاوربيان الى المسيحية تضلّى من كثير من أفكاره الطبيعية والسياسية التى كان قد صمّمها كتابه « رحلة أمريكا » ولكن حب الطبيعة ظلّ واسعا متأسلا في نفس الفنان .

يحمل كاتب المقال « الرحلة في أمريكا » يقول اب شاوربيان كان يعتقد أن الهنود لم يكونوا مرايرة بمعنى الكلمة بل قسوما نالوا حظا من الحضارة يختلف عن الحضارة الغربية ويتساءل شاوربيان قائلا :

« لا غرو أنه من الغيث المتقول مما كان سيؤول اليه مصير سكان أمريكا لو أن بلادهم زادت من فلاح بحارتها - ورغم أن هذه المسألة غير ذات موضوع فهي لا تفلو من جانب ينسب الفضل ويبدو الى القديس - ترى هل كان سكان أمريكا سينتفضون مثلما انتفضت من قبل أم فاقهم بقتولها وحضارتها المؤدرة على الأرجح في المناطق التي يرونها نهر الأوهيو والبحر الأدنى من نهر المسيسيبي ، وأتاهم النسي وتوسكنم والتجيك دى . »

نقد اكتشفنا لدى هنود كندا وتبو اتجلد ولورويديا بذوايت لجميع عادات الأفريق والرومان واليهود - إقلمن حيلة الهياكث كانت ستؤدي الى حضارة تختلف في طبيعتها مع حضارتنا ، ولعلها كانت ستجبت من حديد وحال المصدر النخبة ، أو ستعجب منها أضواء مجهولة من مصدر نحن به أشد جهلا ، ولعلنا كنا سنرى « كريستوف كولومبس » أمريكا يرسو على شواطئنا ويكتشف العالم القديم . »

وبعض كاتب المقال في تحليل كتاب الرحلة في أمريكا يقول :

« لا شك في أن شاوربيان كان للميلاد لروسو عندما أبحر الى أمريكا ، وكان يريد رسم صورة لرجل « الطبيعة الخالصة » ولكن دراسته لأمريكا جعلته يضفى من أفكاره ووجهة نظره السابقة أو تبين أنه لا يمكن اعتبار الهنود همما بمعنى الكلمة العادى ، بل قوما ذوي حضارة مختلفة ، وهو في ذلك أقرب الى « مونتاني » منه الى روسو أو ديدرو ، فهو أول شاعر عظيم تضى « بالحضارة البدائية » بالمعنى الذى نغهم من هذا التعبير حاليا . »

نقد أشار شاوربيان الى العائق الذى يفصله من روسو في المقدمة الأولى التى وضعها لرواية « أتالا » والتى ميز فيها بين انسان الطبيعة الخالصة ، وبين الإنسان الذى لقبه بالبدائي فقال :

« أتالا لا اعتقد أن الطبيعة الخالصة هي أجل ما في الوجود ، فهي كل مناسبة أبحث لي رؤيتها كنت أجدها بشعة الدعاة . »

أى ومن ينكس الرأى القائل بأن ابن آدم « حيوان قسء » ، فالتفكر هو الذى يجعل منه إنسانا ، لقد أدت كلمة الطبيعة (١) الى خيانتها ، فنلتصور الطبيعة ، ولكن الطبيعة في أجل صورها ونزها بالفرق عن تقليد السوخ . »

كان شاوربيان يميل بين حياة هنود أمريكا التى لا تظهر من لون معين من الحضارة ، وبين حياة « رجل الطبيعة الخالصة »

التي تجعل الإنسان الى مسخ من جديد ، ويجرده من صفاته الإنسانية ، ولهذا كان نشيت حماسا للهنود ، وقد ضم « المقال من الثورات » بمقارنة مقدما بين حياتهم الفطرية والحياة الاجتماعية فأشاد بالأولى وقدهح في الثانية .

وبعض شاوربيان في سرد قصة رحلته فيروى لنا مقابلته فرنس مجوز هو المشهورة لرجل فيليب لكواد Philippe Le Coq الذى عجز ببلاد المتحضرة وهو صغير ، وعاش هائلا بين هنود أمريكا ويقول :

« وما كنت أخاطبه بالفرنسية حتى هزته ذكرى الوطن ، وفروقت في قلته نعمة كبيرة ، أن هذه النعمات المألوفة أملت بعت الى قلب المجوز كل أساسيس الطفولة . اننا نأسف قليلا ونحن في ريعان الشباب على سنرات حياتنا الأولى ، ولكن كلما تقدم بنا العمر ، كلما حلت لنا ذكرى طفولتنا ، إذ نجد متفادا في كل يوم ينسلج وجه مقارنة يبعث على الأسى . »

ودعاني فيليب الى داره فنتعنه ، وأخذ يصير من نعمة بهجد جيد : ويكد في استجماع ما كان له قديما من أفكار وهو رجل متحج « كوكيت أميل » الى دراسته في نهم ، فلاحظ مثلا أنه لم يبق في بيته أى « رطل ثيابين » لثييين هما الكماليات ، والمعال الضر بالمعز يكون فيرب . »

وأملهت سماعات حتى استجمع كمية كبيرة من الكلمات والأفكار قبل أن أوجه اليه سؤالى الأكبر : « هل أنت سعيد يا فيليب ؟ » ولم يعرف في أول الأمر كيف يجيبني ، ولكنه فكر لم قال : سعيد ، أجل ، أجل ، سعيد منذ أن أصبحت بربريا . »

فاستطردت قائلا : « وكيف تعفى حياتك ! »

فأثار سؤالى ضحكها ، وعندئذ استفسرت منه قائلا :

« هل تعتقد أن هذا أمر لا يستحق أجابة ؟ ولكن ألا تود استمادة حياتك الأولى والأولى الى بلدك ؟ فأجابني : بلدى فرنسا ؟ لو لم يتقدم في السن لوددت رؤيتها مرة أخرى . »

فاستطردت قائلا : « ألا تود البقاء بها ؟ » وعندئذ من رأسه عزة ذات معنى .

« ما الذى حدا بك الى أن تجعل من نفسك بربريا على حد قولك ؟ »
(١) يهاجم شاوربيان بطريقة مقننة فكرة الرجوع الى الطبيعة التى كانت في نظره السبب في تحطيم النظم القديمة وأدت الى قيام الثورة الفرنسية التى حاولت إبدال المسيحية بدين آخر فلسفى وأقنعت الكتاكس ، وهو يميز بذلك عن آراء مسيحي ارستقراطي حريص على بقاء النظم السياسية والدينية النليدة .

— لسنا أدنى .. العريضة .

وأخبرت كلمة الشيخ شكوكي ، وأنهت أسئلتي ، وعكست لديه يرمين لأدنيه فلم أتبين لحظة واحدة من أقواله ما يكلب أحواله .
لقد تحررت نفسه من صراع الإحواء الاجتماعية ، وبدأت لي كما يقول البرابرة « سأكنة كساحة الوفي عندما يدخن المحاربون من ظليون السلام » .

ويطلق كذب المقال على هذه القصة المشهورة بأنها تنسب من زغبة دفينه كانت تنسلج في نفس شاتوبريان . لقد كان شاتوبريان يتمنى لو أصبح بربريا حتى يقضي على ما يفسطرم في أمهاتق نفسه من مشاعر متصارعة ، ويعظم بأن اليهود سيبتونه يوما كما يبنى الششير « روتيه » ، والإيراكواد « فليب لوكوك » وعندما ألتقي شاتوبريان بفيليب جيل إليه أن تحقيق حلمه قد أصبح وشيكا ، ولهذا تجهده بنفني برجل الطبيعة غاللا :

« إيه يا رجل الطبيعة ! أنت أنت وحدك الذي يسهلني أحرر يأتي إنسان ، تفكك لا يعرف الطبيعة ، أنت تجهل الزحف في بلاط الملوذ ، أو مدامية النصور التي تحكم الشعوب . فهم عنك فنونا وهم يهلك بدخنا ؟ أنك لو احتجت لي رؤية شيء لتكفل به مبتلك ذهبت الي معبد الطبيعة ، والي الغاية الدينية، حيث تعمل أعمدة (١) أشجار اليلوط المطاة بالخطب القبية التقليدية ، كل حين يسهل نود هريل من خلال ظلمة الحبراب المقدسة ، وتردد تحت السقوف القروسة الرنانة أصوات حمامة وأغان تقيس بالعويل أو رخيمة ..

يقول البعض أن البربري يجهل رمد العيش ودعة الحياة فهل يجهل الرمد الحياة عندما لا يرى داعيا لتطبخ يديه بالأنفيم يصل تجاري (٢) ، أو بممارسة حرفة أكثر فائدة (٣) إلى رباة وهل يعتبر شيئا بلا قيمة استطفة الإنسان الظهور أمام الناس مظلما حرا ، معتزلا بنفسه ، جاعلا بالعوارق البتيلية التي

(١) يشبه شاتوبريان الغابة بالعديد .

(٢) كان شاتوبريان من الطبقة الأرستقراطية التي تعتبر أعمال التجارة .

تقيها الحالة المدنية ، غير مكروه على تطحية لشر من حياته (٤) في أحفاد مشاهير ، وشطرا آخر في رؤية الطالب والمسيحات الاجتماعية ، وهو الذي ولد إنسانا عزيزا محبوبا على الصراحة النبيلة :

ثم يصف شاتوبريان « ليلة بين برابرة أمريكا » الشهيرة التي تقل بعضها منها فيما بعد في « روح المسيحية » فيقول :

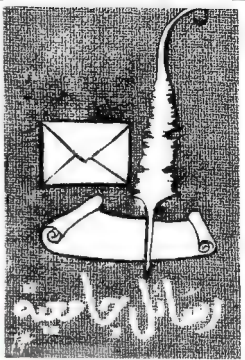
« وعندما تخلصت من ربة المجتمع الجائر ، قطب الي ممان استغلال الطبيعة التي تفوق برامحل شائعة جميع السرقات التي قد تضطر على بال الإنسان التمددين .. ولهمت لماذا لم يصبح بربري واحد أوروبا ؟ بينما تحول عدة أوروبين إلى برابرة ، وأدركت لماذا لا يفتنه معلم فلاستنا كتاب روسو : « محاورات حول عدم المساواة بين الظروف » Discours sur l'Inégalité des conditions

لقد أصبحت الأمم ونظمها القرظة صغيرة ضئيلة في نظري بشكل يتعذر تصديقه ، كان يميل لي أني أرى ممالك الأرض بمنظار مقلوب ، أو أني شخصيا قد كبرت وعظمت ، فجهملت أأمل بنة يمتشي عملاق جبار جنس البشر الذي سقط وانحط »

للك صمعات حللها السيد ميشيل بيتور في « المجلة الفرنسية الجديدة » ، وهي وإن كانت لا ترتفع إلى مستوى مؤلفسات شاتوبريان الأخرى ، إلا أنها مشبوبة حماسة ، غية مشاهيرتها، جذابة بمداجتها ، فباسة بحب الإنسانية والحياة ، زاحرة متشعنت اختست من كتابات شاتوبريان الأخرى عندما جعل من نفسه داعية للذين لا يورثوا للنظام الملكي ، وزمنا حيا للشجر والمثل برالجملة والتلفظ على الموت ، وهذه كلها أفكار وموضوعات التمت أثقت بين شاتوبريان وبين كتاب القرن الثاني عشر ، ومهدت لظهور كتابه القرن التاسع عشر الرومانسيين ، « رسالة من باريس »

(٤) إشارة إلى الحياة الاجتماعية .





تقدمها:

نجاة شاهين

رسالتان في تاريخ الصحافة المصرية

- ١ -

مؤلف الصحافة المصرية
من الاحتلال الإنجليزي في السنوات العشر الأولى

١٨٨٢ - ١٨٩٢

الثورة العربية تم إخمادها بالاحتلال بصدمة هائلة استلزمت بعض وسائلها استطاع التمسك استرداد نفسه المتقطعة من هول ما حدث وكانت الصحافة اذذاك من أهم مظاهر التعبير عما يدور في النفوس من آمال ومخاوف ، فلم تكن لمة الذاعة أو تليفزيون أو سينما ، فالصحافة هي الجسر الوحيد بين الشعوب وحكامها ، وبين أفراد الشعب وبعضهم البعض ، وبينهم وبين المفكرين والفلاسفة وغيرهم .

قسم الباحث رسالته الى أربعة أبواب تضم عشرة فصول تم حاشته * تحدث في الباب الاول عن الصحافة الشعبية المصرية في عهد اسماعيل وتوفيق وكيف قامت بنور هلم ، هل مسرح الاحداث السياسية في البلاد ، كانت هذه الصحف ، رغم الضيق عليها ، هي المبررة عن حركات نفس الضباط والرأي العام ومجلس النواب ، وإذا كان شريف يمد أيا للمستور المصري فانه كان يحنى ارتباط الرأي العام بالضباط والنواب ، ومن ثم أصدر أول قانون خاص بالضباط في مصر في ٢٦ نوفمبر ١٨٨٩ لوضع الصحف في قبضة الحكومة ، ظهرت في تلك الفترة صحف « التنكيك والتبكيك » و « الطلاب » للنديم الى جانب « العجايز » و « النجاح » و « السفير » و « القيد » ، و « مصر » و « التجارة » و « الوطن » و « الاحرام » وغيرها . ويرى الباب الثاني من الرسالة مؤلف الاحتلال من الصحافة المصرية وكانت هي القوة الثاقلة للانجليز بعد تحطيم التسوددة العربية ، وقد اشاع رجال الاحتلال اهم تركوا للصحافة حرية لم تشهد لها مثيلا من قبل ، ووافق بعض المؤرخين على ذلك الرأي ، ولكن دراسة تلك الفترة اثبتت بعد هذه الاقوال من

في كلية آداب جامعة القاهرة نوقشت الرسالة القيمة من السيد سامي عزيز المحرد بدرجة الاحكام لتبيل درجة الدكتوراه من قسم الصحافة في الكلية . وقد اختار الباحث العشر سنوات الاولى من الاحتلال الانجليزي وموقف الصحافة المصرية منه ليكون موضوعا لبحثه الذي اشرف عليه الدكتور محمد انيس رئيس قسم التاريخ الحديث بالكلية ، والدكتور عبد اللطيف حمزة استاذ الصحافة .

في التاريخ سنوات طيسرول لا يجد الباحث مناه في ان يلخصها ويسجلها في صفحة واحدة ، وفيه سنوات أخرى لا يستطيع الباحث ان يسجل سنة واحدة منها في اقل من الالف من الصفحات لما تنمى به من تغيير نوعي شامل .. وتعد السنوات العشر التي يتناولها هذا البحث من ذلك النوع الأخير . اذ بدأ المقدم الممتد من ١٨٨٢ الى ١٨٩٢ بالاحتلال الانجليزي الذي هو كيان مصر بالكلية حكوموها ، واثريها سياسيا واقتصاديا وفكريا ، وتجاذبت البلاد في هذه الحقبة لتبرأت أخرى متعارضة التيار العثماني الذي يستمد قوته من الامر الواقع ، والتبنيار الفرنسي الذي يحاول استمادة حاكم له من تقوى في مصر قبل الاحتلال الانجليزي ، ثم التيار الوطني الذي بلغ ذروته ابان

الحقيقة ، بل لقد بلغ الاس بسلطات الاحتلال الى حشد اهراب الصحف الوطنية .

كما ساعدوا على اصدار صحف تسمح بحشد الاحتلال «كالمطهره و » الاعلام » و « النيل » وغيرها . ولاحظ كذلك في تلك الفترة صدور عدد هائل من الصحف غير السياسية بمصر . وتناول الباب الثالث دور الصحف المصرية في الصراع الذي احتدم بين إنجلترا من ناحية وتركيا وفرنسا من ناحية أخرى في سبيل السيطرة على مصر . وكانت الصحافة هي السلاح الأول ، في هذا الصراع ان لم يكن السلاح الوحيد في أحيان كثيرة .

ومن ثم وجدت في مصر :

- صحافة أحرار الأتراك : ضد السلطات
- صحافة أرمين وبيروت : ضد الدولة العثمانية
- صحافة مصريين ضد المصريين
- صحافة صوريين ضد المصريين
- صحافة تزايد الاحتلال : ضد فرنسا وتركيا
- صحافة تزايد فرنسا وتركيا : ضد الاحتلال الإنجليزي
- صحافة ماسونية : ضد الجزويت
- صحافة وطنية : ضد الاحتلال
- صحافة احتلالية : ضد الوطنيين

وكان الهدف من وراء ذلك المرح الخاطف من الصحف النصارى على الروح الوطنية وهضم الروابط الى كانت لازال تربط مصر بالدولة العثمانية ، وكانت السلطة رغم ضعفها لازال تنافس قدرا من النفوذ في العالم العربي . وكانت حلقة الوصل بين الشعوب العربية ، ومن ثم قال جوردون «في جاحل هذا التكتسب كانت له أهميته باعتبارها متصلة بنوع على العنصر كجزء من الاسبراطورية » .

كذلك كان صائد هدف آخر هو اظهار فرنسا بمظهر الطامع في مصر ومن ثم يفضي المصريون أو معظمهم عن التطلع الى تأييد الحيسة الفرنسية وطلب حاجتها .

وهكذا تجد مصر نفسها وقد فقدت الروح الوطنية وفقدت اللون الخارجي فلا تجد مناسا من الوقوع بين برائي الاحتلال والياب الرابع عنوانه الصحافة وسياسة الاحتلال الداخلية . يشير الى انه منذ ولوع الاحتلال ظهرت قضية الإصلاح في مصر وحاول الإنجليز بك التدفيع الى يقسمون به من إصلاحات ، وأخذت الصحف الموالية لهم تبحث في السبل لاحتلال على البلاد والنعم التي أسبقها وجود الإنجليز على المصريين ، وتربط في الوقت نفسه ربطا تاما بين وجود الإنجليز واستمرار هضم الإصلاحات وتنادي بضرورة بقاء الاحتلال حتى تحيى البلاد لمرات الإصلاح .

وقد وضع الباحث ان كل هذه الإصلاحات كانت تنحدر كلها حول الزراعة ، وكانت تلك الصحف تؤكد ان مصر لن تصلح لعضامة أو تجارة ، وان على أهلها ان يتقبلوا الزراعة حصرية وسبيل وعلهم لا يظنوا في غيرها ، وظهرت في هذا الميدان صحف زراعية عمل الإنجليز على تشجيعها ، رسمها بنسخت الوصائل وشربها بين الأهالي كصحف « الزراعة » وكثر الزراعة » و « البستان » و « الثرائد » .

وأثارت الصحافة في تلك الفترة قضية الكفاية المصرية ،

وحاولت الصحف المؤالية للاحتلال اظهار عجز المصريين عن تولي ادارة مصر وحكومتها ومعالجتها ، ومن ثم تشتت الدعوة الى ضرورة جعل الادارة المصرية انجليزية أما عن طريق وضع اجليز على رأس الادارات ، أو عن طريق تقليد المصريين للحضارة واقتباس مظهرها . وكانت صحيفة « المظم » و « المقتطف » و « اللطائف » على رأس تلك الصحف . في حين أخذت صحف الاحرام » و « الزيد » و « والإستقلال » و « الآداب » تعارض هذا الاتجاه العنصري .

ومن القواهي الصحفية الهامة في تلك السنوات ظهور اول جريدة تصدرها مصرية في مصر ، وهي صحيفة « الفتاة » لهند نوفل ، وكانت تدعو منذ العدد الاول الى الاخلاص بالعصايرة الانجليزية والتابع ماجري في بلاد الانجليز متمثلة بكل ما يحدث للفرقة هناك . كذلك أخذت تلك الصحف تدعو الى القضاء على الجيش المصري ، وكانت تدعو على اصحاب شأن الحياة النيابية في مصر ، مدعية ان مصر لا تصلح لحياة الشورى ، ونسبت المظلمة خاصة في حينها ان مجلس النواب المصري كان له دوره الهام في سياسة مصر قبل الاحتلال .

وانتشرت الدعوة الى تأييد سياسة الاحتلال التعليمية التي قامت على اساس الاكثر من « الكتاب » والقضاء على المدارس المتوسطة والعالية ، والولوف في وجه مجانية التعليم بصفة ان من يريد ان يتعلم عليه ان يشتد ذلك بدفع نفقات تعليمه ، كما «أثارت الدعوة الى تعلم اللغة الاجليرية ، ودعت « المظم » دراسة الى كتابة المقالات بالانجليزية لتنتشر في بعض صحف إنجلترا . واستخدمت الصحف الادبية الروايات والقصص في بلادهم .

والتربط بهذا الموضوع الصراع بين العنصرى والطبعية وأخذت بعض الصحف تطاول المظم من قدر العنصرى وتدعو الى ضرورة افعال شأنها ورفع شأن الطبعية حتى تصبح لغة البسلامة . وكان لجلة « الأحرار » بوجه خاص دور هام في هذا الصدد ، إذ نشرها مهنتس اجليزى يدعى « ويلكوكس » واستعان على تحريرها ببعض حريجي الأحرار ، ودعا فيها الى ضرورة اجتناب العنصرى والاعتماد على العامة فقط حتى يصبح المصريون اصحاب امعارات وتحتل مصر بين الدول المتقدمة علميا . كذلك ظهرت الدعوة الى نشر الماسونية بين المصريين واصبحت مجلة « المظالم » لسنان حال الماسونية الى جانب بعض الصحف والجلات الأخرى ، وتبين من تحليل موقف صحف الماسونية الى انها تدعو الى الاستكانة والخضوع التام للحاكم دون مناقشة .

وهكذا استهدفت الصحافة الموالية للاحتلال خلق مجتمع جديد نصير فيه القيم القادية والمتنوية والمثل التي يسترشد بها الشعب لافى الاوضاع السياسية فحسب بل كذلك في كافة نواحي الحياة الأخرى ، ومحاولة احداث تغييرات متلاحقة تهو القوموات التي رسخت على من العصور حتى يسهل القضاء عليها والعمل في الوقت نفسه على ارساء مقومات أخرى تنفق وأعداف الحكم الاجلبرى واتجاهاته .

وامم النتائج التي توصل اليها الباحث من داسته :

• قام الصحافة المصرية بطور هام في تطور الاحداث ووتوف بعض الصحف في وجه محاولات الانجليز الدنيئة لتحويل مصر الى بلاد ترتبط بهم ماديا وعاطفيا ومعنويا .

• كتب أسطورة حرية الصحافة التي ادعاها الانجليز
• قيام الصحافة بدور هام في ترويح النخبة بالثقافة العربية وآدابها والأخلاق والعادات والاحتفالات للشعب بقومانه الأصلية والدفاع عنها ضد الغزو الأجنبي .

• ارتباط الصحافة والزراعة في مصر ببعضها البعض في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكان الصحفي هو الزعيم ويمثل ذلك حل يوسف الذي أنشأ صحيفة « المؤيد » وطهر حولها حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، كما ظهر مصطفى كامل واحمد لطفي السيد في فترة البحث لينشئ كل منهما بعد ذلك جريدة يحارب بها التدخل الأجنبي ويدافع عن مصر ، لم انتف الحزب الوطني حول صحف « اللواء لمسطفي كامل » و« نصف حزب الأمة حول صحيفة « الجريدة » لطفي السيد بدأ المناقشة الدكتور أحمد حسن أسد التاريخ الحديث بجامعة الاسكندرية قائلا : ان الموضوع الذي قدمه الغالب رسائله فيه موضوع قيم يستاهل البحث لانه يدرس موقف الصحافة المصرية من الاحتلال الانجليزي وغير المصريين والتفكير وهو موضوع له أهميته الخاصة من الوجهة الصحفية والتاريخية . لم أورد ملاحظاته على البحث وكان من بيننا أن الباحث أورد بعض المراجع وهي غير موجودة في الهامش ، وكان من الواجب عليه لمحيص اقتباساته ..

وتحدث الدكتور محمد أنيس عن صاحب الرسالة وذكر أن تخرج في قسم التاريخ بالكلية ، ثم درس في معهد الصحافة . ثم حضر للدكتوراه تحت إشراف الدكتور محمد فؤاد شكرى الذي توفي قبل أن يتم البحث . ويرى الدكتور أنيس أن ثقافة الباحث التاريخية ، جعلت للموضوع صبغة التاريخية التي جعلت صبغة الصحفية ، ويبدو ذلك واضحا من عنوان الرسالة ولهذا يرجو قبل طبع الرسالة أن يقوم الباحث باستكمال الجزء الخاص ببنية الصحافة والكتابة الصحفية في تلك الفترة .

ويرى الدكتور أنيس أن الباحث قد ذكر أهم المراجع الرئيسية اللازمة ، ولكنه أكثر في هذا بعض الشيء . كما أكثر من اقتباساته من الصحف ويقول أن للرسالة حسنة كثيرة ، فحسبنا أنها أعطتنا فكرة عن اتجاهات الصحف في تلك الفترة كما أنها كشفت عن بعض الصحف التي كان كثير منها مجهولا . أما الدكتور عبد اللطيف حمزة ، فقد اخذ على الباحث قصر الفترة التي يتناولها في البحث وهي عشر سنوات ، لأن هذا جعل القارئ لهذه الرسالة يشعر بقرعة ناقصة عن دور الصحافة المصرية للفترة التي لم يبدأ بصورتها الفعالة إلا بعد انتهاء فترة البحث .

وقد نال السيد سامي عزيز على بحثه درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الثانية .

- ٢ -

تطور الصحافة المسائية في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية

ونوقشت في قسم الصحافة بكلية آداب جامعة القاهرة أيضا الرسالة المقدمة من الأستاذ جيهان أحمد على وشنتي لثيل درجة الماجستير في الصحافة . وقد اختارت الأستاذة جيهان الصحافة المسائية وتطورها في الفترة ما بين الحربين العالميتين موضوعا لدراساتها ، وأشرف على البحث الدكتور عبد اللطيف حمزة

ولاشك أن الصحافة كانت هي الذخيرة الحية في جميع المراكز الوطنية والسياسية والاجتماعية التي قامت في مصر في أعقاب الحرب العالمية الأولى واستمرت إلى قيام الحرب المالية الثانية ، وفي هذه الفترة الغنية بالأحداث والتطورات ، ظهرت ملامح جديدة للمجتمع المصري بعد أن تحولت مصر من محمية بريطانية إلى دولة . وبعد أن شملت البنية الوطنية جميع فئات الشعب المصري ، وفي هذه الفترة نشأت الحياة البرلمانية ، وظهرت ملامح نهضة اقتصادية تستهدف التنمية الاقتصادية وكذلك ظهرت ملامح جديدة في دنيا الفنون ، ودراسة الصحافة في هذه الفترة تعطينا فكرة واسعة عن الأساليب المتضاربة التي نشأت في المجتمع المصري أثر الحرب العالمية الأولى ، فبينما نجد روح النهضة التي تخللت ثورة سنة ١٩١٩ ، نجد في أثرها الوضعية التي نشأت من النزاع على السلطة والحكم .

تقول الباحثة انه من اللافت في هذه الفترة الجبل إلى إصدار الصحف المسائية ، وقد توصلت إلى هذه النتيجة بالمقارنة العديدة فقد لاحظت أن الصحف التي نالت حقا من الثبات والانتشار في هذه الفترة كانت ثمانية عشر صحيفة أربع عشرة صحيفة مسائية أما لماذا كانت الكثير من الصحف مسائية فترجعه إلى ثلاثة أسباب :

أولا : اهتمام الرأي العام بالثقافات اهتماما ينافس اهتمامه بالأخبار ، وكانت المقالات تتسوح من أحداث الساعة فكانت تكتب في الصباح ، وتظهر بعد الظهر .

ثانيا : متابعة النظام الرأسمالي التي كانت تتبعه المداوئين الحكوميين لأن غالبية القراء كانوا من موظفي تلك المداوئين ، فضلا عن أن الصحفيين في مصر في تلك الفترة كانوا مرتبطين في وظائف العمل والأخبار بالمداوئين الحكوميين التي تعمل في أوقات معينة من النهار .

ثالثا : صعوبة تشغيل رجال الطباعة ليلا إلا بمضاعفة أجورهم وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة ، استعرضت في الفصل الأول الظروف العامة التي كانت تصدر فيها الصحف المسائية ، وقسمت الصحفيين الذين عاشوا في تلك الفترة إلى أربعة أقسام :

- ١ - صحفيون يكتبون عن عقيدة حرة .
- ٢ - صحفيون يتفقون بلسان أحبارهم سواء أخطأت أم أصابت هذه الأحزاب .
- ٣ - صحفيون يميلون إلى التجارة .
- ٤ - صحفيون انتهازيون للظروف المتغيرة .

وهذه الأنواع الأربعة كانت صورة مطابقة للظروف الاجتماعية والسياسية التي تخللت الفترة الزمنية التي تزخر لمصالحاتها حتى يبين هذا التقسيم للصحف والصحفيين شيئا طبيعيا بالنسبة لظروف تلك الفترة . أما هذه الظروف فنلتزم إلى قسمين :

الأول : موقف الشعب الذي قام بثورة سنة ١٩١٩ ، ثم تابع قادتها بأخلاص حتى ينس منهم ، وما كان لهذا الشعب من تطلمات إلى الحرية السياسية والاجتماعية ثم ما طرأ على حياته من اهتمامات بالحياة الدستورية ، وما انتقم حياته من حزبيات

- ٥ - « الساء » : لأحمد محرم وقد صدرت في يوليو سنة ١٩٣٠
- ٦ - « الوادى » : لأحمد نجيب وقد صدرت في يوليو سنة ١٩٣٠

وواضح من أسماء منشئي هذه الصحف أنهم وإن كانوا من رجال الصحافة ، وكان لبعضهم شيء من الفضل والادب في حياته الصحفية ، إلا أنهم لم يمسوا من ذوى الرسائل الصحفية البارزة وتوارى عن صدور هذه الجلات أيضا بعدد معالم أهدائها وبصفة خاصة الصحف الثلاث التي ظهرت في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ فجريدة « الثغر » ظهرت في عهد حكومة مناحضة لحزب الوفد لتستفيد من وجود هذه الحكومة في الحكم بدليل أنها لم تستطع الاستمرار في الصدور بانتظام حينما عاد حزب الوفد إلى الحكم .

وعلى العكس منها جريدة « الساء » التي ظهرت في ربيع سنة ١٩٣٠ لتحل محل الصحف الولدية المظلة وكذلك جريدة « الوادى »

أما جريدة « مصر » فكان من الممكن أن تكون من صف الصحف لولا أنها لاستطوع أن تؤكد أنها كانت على الدوام مستقلة في رأيها ، والواقع أنها نشأت للدفاع عن فكرة طائفية فلما لم يتجاوب معها الآخرون وضمت نفسها في خدمة الآخرين وفي الحقيقة تحدثت الباحة عن أسباب ضعف الصحافة المسائية بمد الحرب العالية الثانية ولكن ذلك لم يمنع من أن تسجل للصحافة المسائية في فترة ما بين الحربين أثرها الكبير في حياة الصحافة وحياة البلاد .



بدأ الدكتور محمد آيس المناقشة بالشأن على مجهود الباحة ولكنه أخذ عليها أن تصور لها التطور السياسي لمر في هذه الفترة أنها عبارة عن صراع بين الأحزاب دون مبادئ ، وهذا قصور خاطئ ، فالصراع في هذه الفترة كان يقوم على قضيتين أساسيتين هما : الاستقلال والديمقراطية أو الاستعور ، الشعب والوفد المصري في جانب ، والرأى والانجليز في جانب آخر .

وتحدث الدكتور حسين عبد القادر أستاذ الرأى العام بالكلية فقال ان للرمالة عدة مزايا ، فهي غنية بالآراء والمعلومات في هذه الحقبة الهامة من تاريخ بلادنا ، غنية أيضا بالهوامش كما أنها كشفت عن مغازى الأحزاب والعهد السابق للتور ، ولم تقتبس من النصوص الكثير ، كما أنها صححت لنا بعض الأخطاء التي ترد في بعض كتب تاريخ الصحافة ، ولكنه أخذ عليها عدم عرض المسائل الكبرى جملة دون تكرار .

وأخيرا تحدث الدكتور عبد الطيف حبرة ، فقال أنا أوافق الدكتور حسين على أن للرمالة حسنات ، ولكنه أخذ عليه خطأ يقع فيه أغلب الباحثين وهو أنهم ينظرون للماضى ويحكمون عليه بتعليق الحاضر وهذا لهم خاطئ ، للتاريخ - كما أخذ عليها - أن لها أطرافا وأحدا وتناقضا وهو الإطار السياسى وحده ، ونحن ننتمى لمجال الصحافة يجب أن نمالجها من أطرافها المختلفة السياسى والاجتماعى والفكرى

وقد نالت الأستاذة جيهان أحمد على درجة الماجستير بتقدير جيد جدا .

الثاني : موقف الحكومة والصحيب في موقف الوزارات المتعاقبة في هذه الفترة ان واحدة منها لم تنزل عن السياسة الرجعية القديمة في مواجهة تحديات الصحف الحرة ، وكانت وسائل الحكومة مع هذه الصحف هي الإغراء ، بالمال ، ثم التهديد ، وبأن يبعد ذلك التفتن في أسدائر التثريبات التى تخص الحاكم .

وقسمت الباحة الصحف المسائية الى :

صحف رأى مستقل ، صحف رأى حزبي ، صحف إخبار ، صحف مناسبات وتناولت في الفصل التساني صحف الرأى المستقل ، وهي الصحف التي كان مسدورها يتسكون برأيهم الخاص ويصرون في معالجة الشؤون السياسية وغيرها مما يتفق مع تفكيرهم أو معتقداتهم الخاصة .

وهذه الصحف هي :

١ - « الاهالى » : لعبد القادر حبرة ، وقد صدرت في ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٠ .

٢ - « الأخبار » : لابن الرافعي وصدرت في ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٢

٣ - « البلاغ » : لعبد القادر حبرة وصدرت في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣

وعرف الفصل الثالث بالنوع الثانى من هذه الصحف وهي صحف الرأى الحزبي ، وكانت تنطق بلسان الأحزاب بحيث كانت تعبر في توجيهاتها عن وجهات النظر الحزبية سلمية كانت أو غير سلمية . وهذه الصحف هي :

١ - « النظام » : لسيد علي ، وقد صدرت في ٢٨ يوليو سنة ١٩١٩

٢ - « كوكب الشرق » : لأحمد حافظ عوض وقد صدرت في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٤

٣ - « الاتحاد » : لحزب الاتحاد وقد صدرت في ١٩ يناير سنة ١٩٢٥

٤ - « الولد المصري » : لحزب الوفد وقد صدرت في ٢ مارس سنة ١٩٢٨

وتناول الفصل الرابع النوع الثالث من هذه الصحف وهي صحف الخبر .

ويبدو من تاريخ - صدور كل صحيفة من هذه الصحف طبيعة الأهداف التي صدرت من أجلها .

والفصل الخامس من البحث مخصص للحديث عن النوع الرابع من الصحف وهي صحف المناسبات ، وقد سميت صحف مناسبات لانها ظهرت على فترات متقطعة ، كما ان اصحابها كانوا على اتم استعداد لوضع مساهمهم تحت تصرف أى حزب يدع للثمن ، فضلا عن ظهورها في مناسبات معينها واختلافها بعد زوال هذه المناسبات وهذه الصحف هي :

١ - « عصر » : ثنادوس شودة التقليدى وقد صدرت في سنة ١٨٩٥

٢ - « الأكار » : لأبو العيين بدر وقد صدرت في أغسطس سنة ١٩٠٠

٣ - « وادى النيل » : لعبد الكثرة وقد صدرت في سنة ١٩٠٨

٤ - « الثغر » : لسليمان فوزى وقد صدرت في منتصف ابريل سنة ١٩٢٩

الفكر والأدب قبل ٦٠ سنة

إعداد

أنور الجندى



● المؤلف

الفلسفة: ونقل فيه ثلثاً أكثر من مائتي بيت من رباعيات شامرنا
الحرى .

والذى يهنا هو أن الرباعيات التى نقلها الآن وطنينا الغيور
الى اللغة الانجليزية كان قد نقلها قبلا مع غيرها العالم التنسوى
المذكور ونشرها نشأ عام ١٨٧٧ فى أعداد المجلة الألمانية
الأسبوعية المألفة بصيت .

فيستخلص مما ذكر أن أوله من بحث عن أشعار أبى العلاء
الحرى بحثا علميا وترجم نصيبا منها الى إحدى اللغات الأوروبية
هو الكاتب التنسوى المذكور لا ابن وطننا العزيز ، كما جاء سهوا
فى عبارتك السابقة .

أما عن رقة الترجمة ومثانة الفاظها وعدم تعرف المترجم بشئ
من معاني الأصل فيمكنكم أن تحكموا بالمقارنة (وأورد الكاتب
نصرا بالعربية وترجمته بالألمانية)

بشلق صليبا - جوزى (روسيا)

رد صرف

نشكر فضلكم على هذه الغائلة فانا لم نكن نعلم أن الصلاة
فون كريم ترجم هذا القصار من أشعار الحرى الى اللغة الألمانية .
ولا نشبهنا الى ما ذكره الدكتور مرغليوت فى هذا الشأن .

وقد راينا قبلا ترجمة بعض الناطيع ولكنها قليلة متفرقة .
ولا نتذكر الآن أين مكانها الا ترجمة البيتين المشهورين

ورباعيات أبى العلاء

الرد على الدكتور صروف

جاء فى كلامكم على ترجمة رباعيات أبى العلاء الحرى للشاعر
أمين أفندى ربحاني ماخوف : « . » ولم يكن عصر الخيام الا تأييدا
لأبى العلاء الحرى منطقيا منه أو ناسجا على منواله ، ومع ذلك
لم يقدم أحد على ترجمة أشعار الحرى الى اللغات الأوروبية الا الآن .
حينما هزت الأربعة وطينا الأديب أمين أفندى ربحاني »

ويستفاد من هذه العبارة أن أول من أقدم على ترجمة شئ من
أشعار أبى العلاء الى إحدى اللغات الأوروبية هو الأديب المذكور .
وهو خلاف الواقع فإن بعض المستشرقين من الأوروبيين وغيرهم
أبحاث جليلة من هذا الشاعر الحرى . وللبعض الآخر تراجم
لأشعر أشعاره الفلسفية التى تجلت فيها صورته النفسانية
واعقاداته الدينية .

هذا ولا حاجة لنا الى سرد جميع أسماء هؤلاء الكنية وما ترجموه
من أشعار أبى العلاء ، ونحو ذلك مما تراه مذكورا فى حاشية
المقدمة ترجمة رسائل أبى العلاء التى نشرها عام ١٨٩٨ فى اللغة
الانجليزية المستر مرغليوت ، انما اقتصر هنا على ذكر واحد من
هؤلاء العلماء وهو المستشرق التنسوى (فن كريم) الذى
وضع للبحث عن أبى العلاء واكتاره جملة مقالات نشرها فى بعض
المجلات الألمانية وغيرها منذ عشرين عاما أو أكثر ثم كتبنا
خاصا (أشعار أبى العلاء الفلسفية) وقفه للبحث عن أبى العلاء

هفت الحيلة والتصارى ما احدث

ويهود حارب والنجوس مغلفة

انسان اهل الارض ذو عقل بلا

دين واخر دين لا عقيل له

قد ترجمها الى اللغة اللاتينية العالم كارليل الذي كان استنادا للعربية في مدرسة كمبرج الجامعة في اواخر القرن الثامن عشر

● الفيدا

الحكمة الستة في الرحلة العلمية

هي رسالة لحظرة الأستاذ العلامة ثلة الثقات وصفوة المحققين الشيخ محمد محمود بن النعماني التركي الشافعي المشهور تشتمل على عدة قصائد من شعره غصتها افراضا مختلفة وذكر فيها اشياء من تاريخ حياته اهمها رحلته الى الشرق ، ثم رحلته الى بلاد الاندلس للاطلاع على كتب العرب هناك .

وبين ذلك غنون شتى ومساجلات وتحقيقات في مسائل نحوية ولنوعية وفيها ما بالنظم والنثر مبادل على سعة علمه وفراة ومخفظة وامعان في التحقيق والتدقيق .



ديوان ابن التعاويذي

أطرفنا حضرة الأستاذ الفاضل البرونسور مريبلوت أحدث أسئلة العربية في مدرسة الاسفورد الجامعة نسخة من هذا الديوان النفيس . وقد عني بطبعه في هذه الماسة بعد الخلاء من نسختين من المكتبة البدليانية اخذت من كل منها مائة أصل رواية ونلى عنه كل مالا يلائم آداب المصنف النحوي وقد عدده بجدول ذكر فيه أسماء الكتب الواردة فيها ذكر التعاويذي مع الإشارة الى مواضع وروده ، وفقى عليه بنقل ترجمة الناظم من ابن خلكان وختمه بفرسين ذكر في أحدهما أسماء المدرسين والمهجوين مع تعيين عدد الصفحة من الكتاب والبيت من القصيدة وفي الثاني الثاني الوارد ذكرها في الديوان .

واين التعاويذي هذا من اكابر الشعراء المولدين من أصل القرن السادس للهجرة . قال ابن خلكان في ترجمته انه كان شاعر وفن ، ولم يكن فيه مثله جميع شعره بين جزالة الالفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودلتها وهو في غاية الحسن والحلاوة ، وفيما انقذه لم يكن قبله يمانى ستة من يصاحبه .

هـ . ١

ولا جرم ان طبع ديوانه بعد احياء لآثر من اكرم آثار الاولين وقد عني الطابع بطبعه بالشكل الكامل وتولى تصحيح طبعه بنفسه تجاه دليلا على فضله واجتهاده .

وقد تصفحنا طبعا من فسانته فوجدنا أنه مع عناية الأستاذ بتحرير روايته وضبط الفاظه لم يخل من غلط لا يجدر بهذا التنبيه الى بعضها فضاء لحق التذك

على ان هذا لا يفيض من مزية الديوان وان اوجب أحيانا خفاء بعض المعاني بما يقع هناك من التحريف بين أنا على كل حال ننس على حمة الأستاذ ثناء جسيلا لما توحي من نشر هذا الأثر النسي وجعله من الطالبين على جعل النزاع بعد أن كان مما لاتصلق به الاطماع

مؤلفات جديدة

(الوثائق والطلاق) : رواية لتولستوى اسمها لمن كرتسر ترجمها سليم قنبر

(اسرار ديوان التفتيش) : تعريب كاتب مجيد

(معاني الجن) : رواية فارسية بقلم نجيب أسعد جويش

اسرار الارتقاء : عربية توفيق دوس المعاني

آفاق القديسة العاشرة : ترجمه جرجس نقولا بلا

زهرة النسيان : ثلاث قصائد في حروب الروس لاسكندر نحاس

مناهج الحياة : كتاب الاقتصادي تأليف نقولا حداد

المرأة والشعر : خطاب تاريخي لنقولا فياش

مجلات وكتب جديدة

النهل : لطيف القدي حنا محرو الرشد

متران مجلة صدر العدد الاول منها في منتصف هذا الشهر

الاستقلال الاسبوعي : لتجيب القدي شافرا الحامي

صدرت مجلة الاستقلال اسبوعية بعد أن كانت شهرية فزادت

مادتها غزارة في المباحث الفضائية والاجتماعية الشائكة

رواية غرائب الانذار : لعبد اللطيف شكوي ومصطفى نافع

رواية تشخيصية أدبية كتبت بلغة رائعة ، وتضمنت من

الوقائع المدهشة ما يدعو القراء الى الاقبال عليها

الانسانية : لصاحبها محمد أبي النصر ومحررها ابراهيم

الدباغ

مجلة اسبوعية تبحث في العلم والسياسة والادب والدين ،

كثيرة الفوائد وتستحق الاقبال

الواقت لمحمود سلامة

جريدة اسبوعية عمومية عرف صاحبها بالبراعة في التحرير

والنقش في انتقاء المواضيع المفيدة للبلاد .

